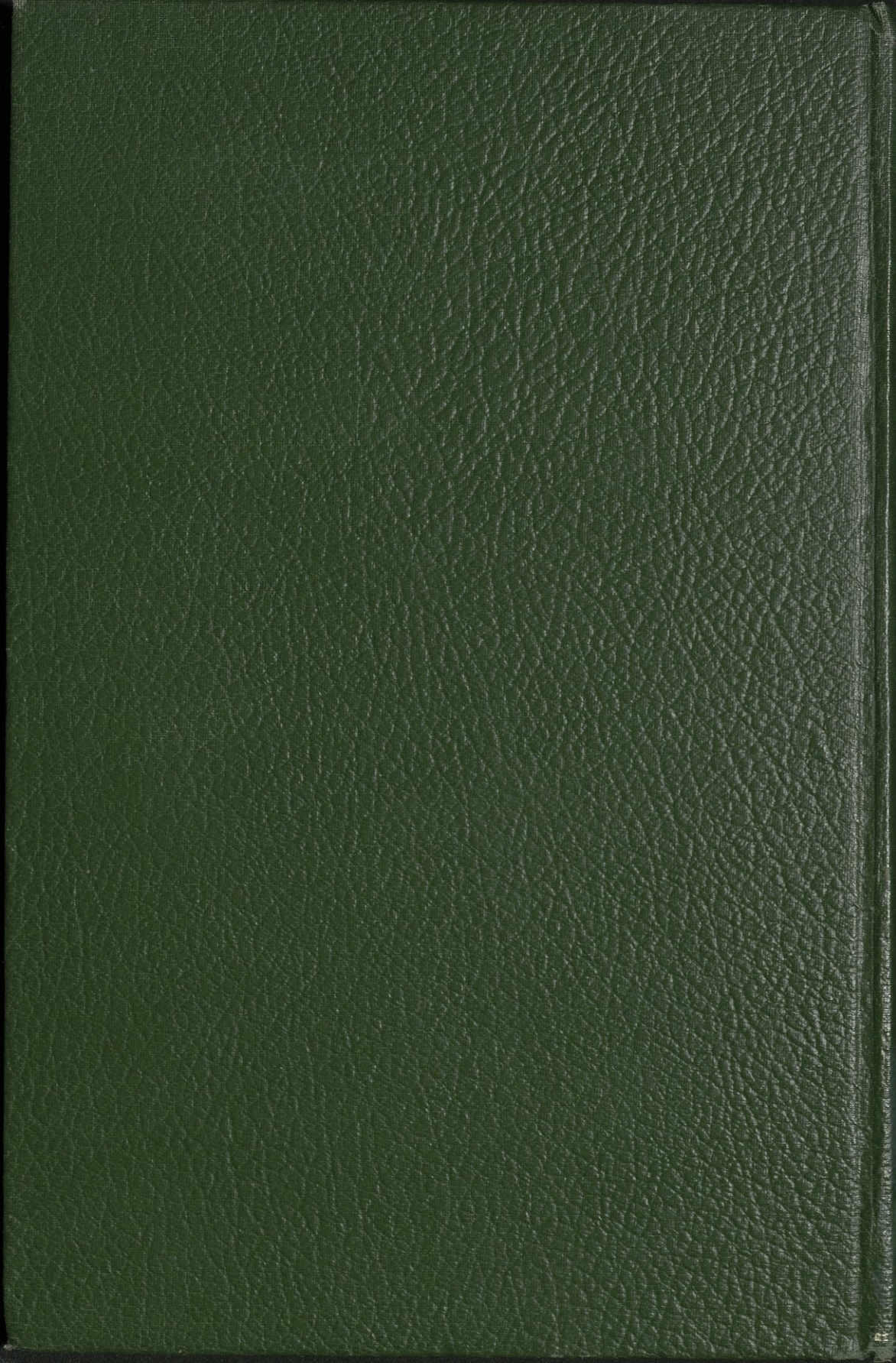
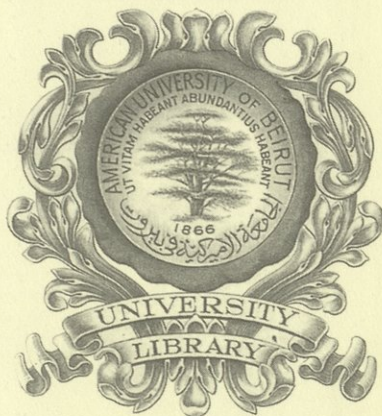


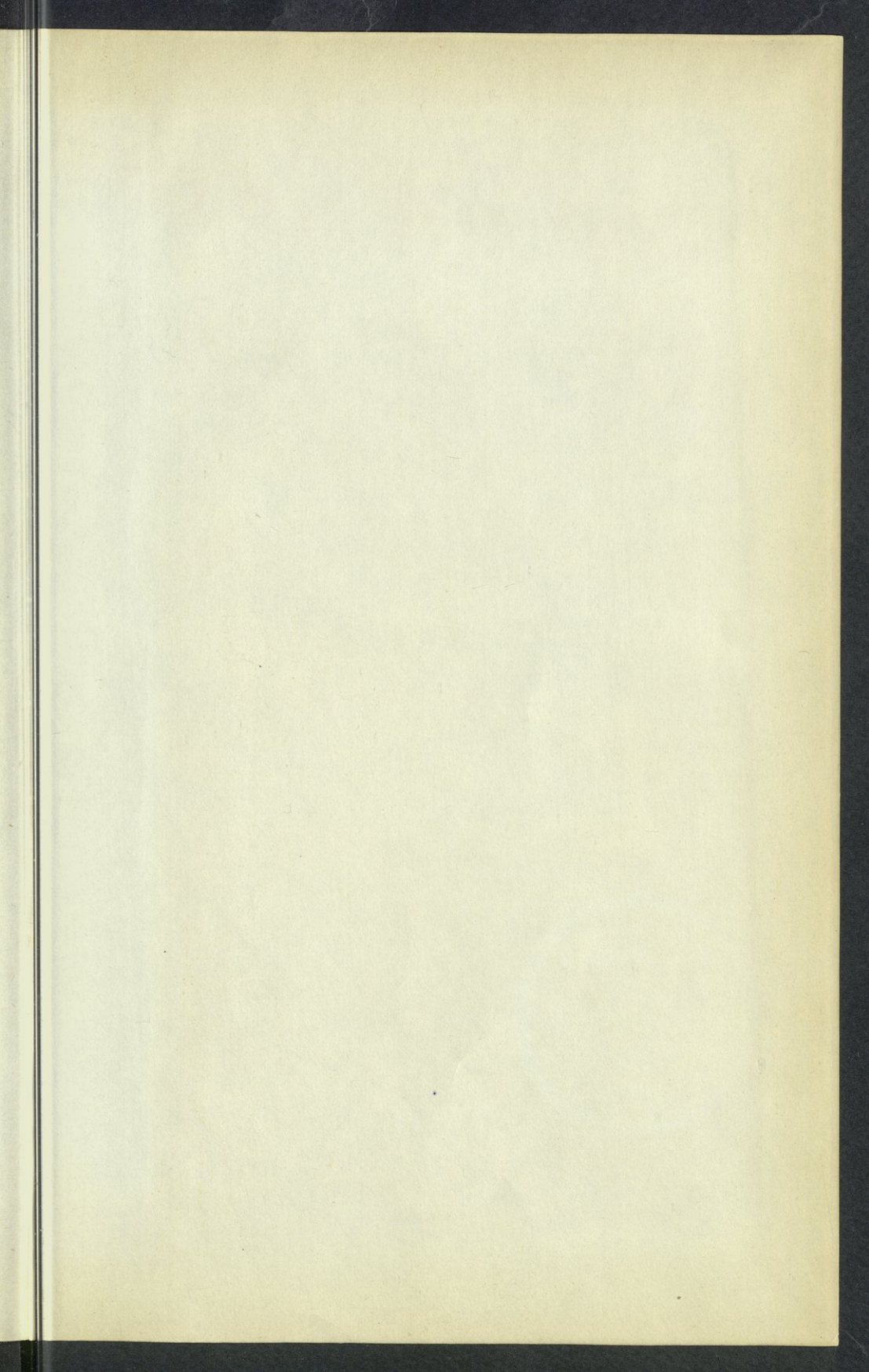


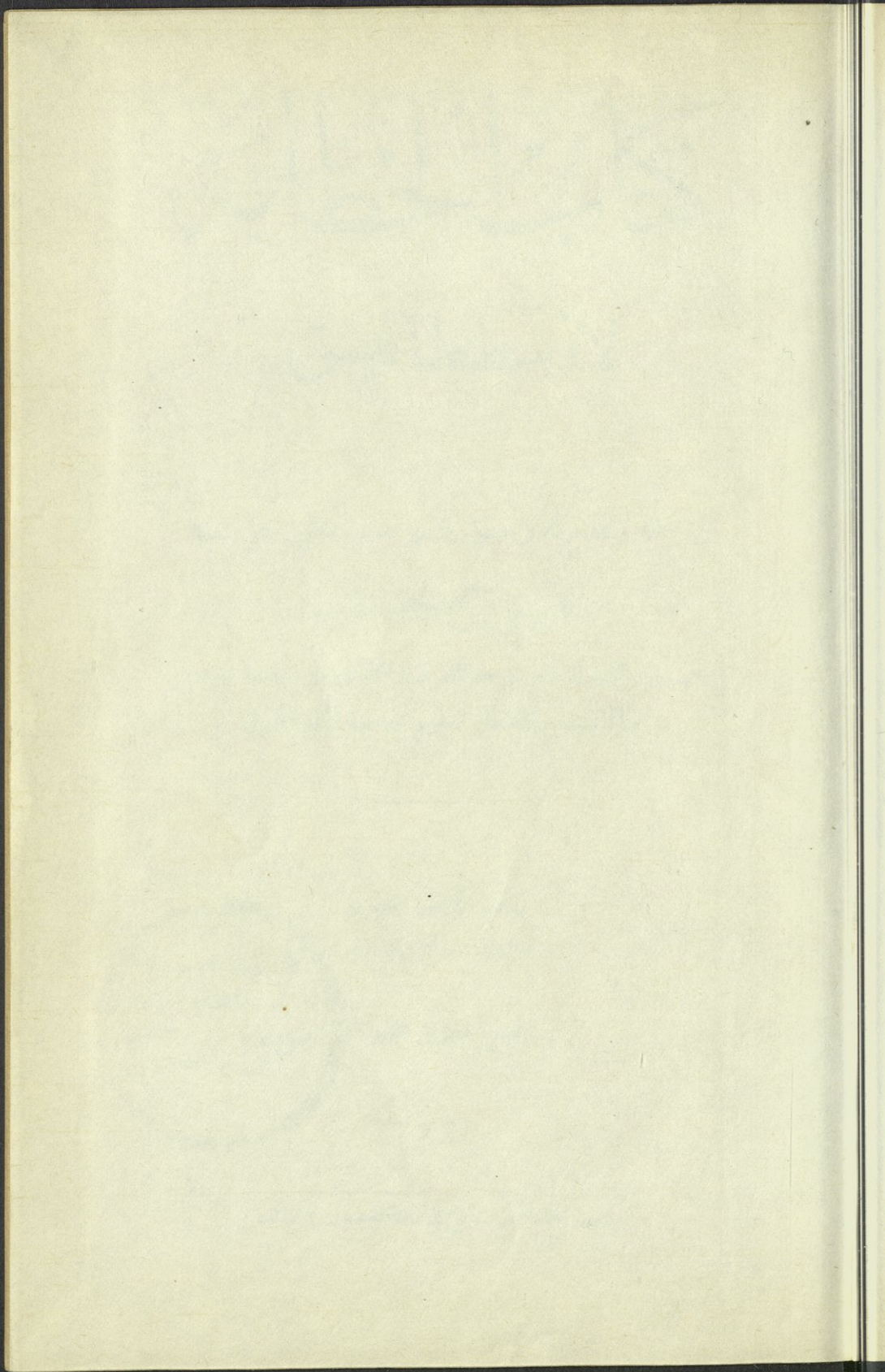
A. U. B. LIBRARY

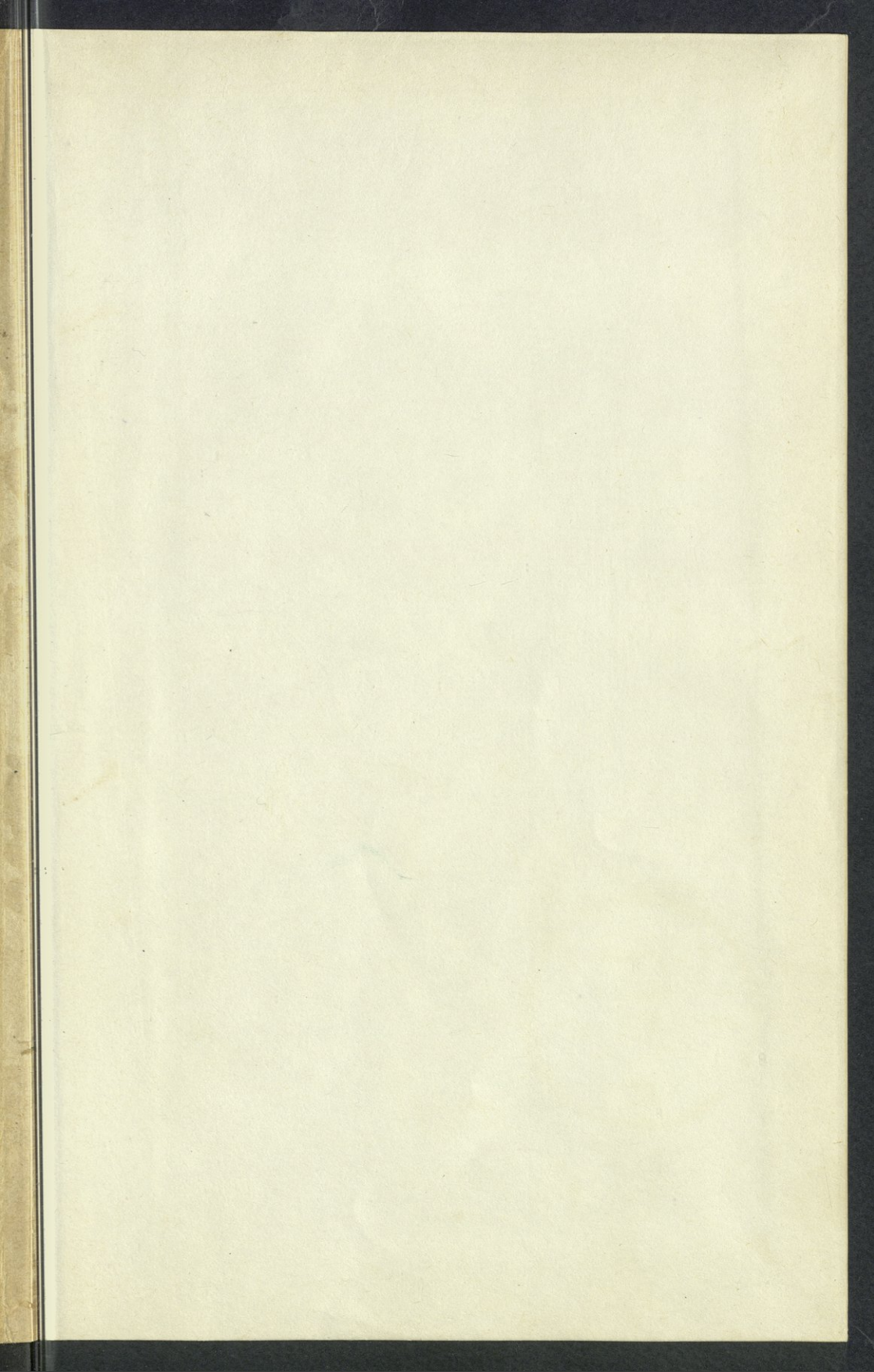
AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.U.B. LIBRARY







كتاب الخطابة

لأرسططاليس

ترجمه وقدم له وحقق نصوصه وعلق حواشيه

الدكتور إبراهيم سلامة

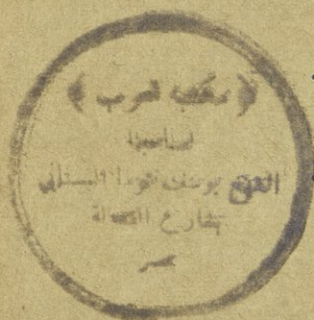
دكتوراه الدولة مع درجة الشرف الأولى من جامعة باريس
والأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

Cat. Oct. 1951

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد



جميع الحقوق محفوظة

٧٧٧٢١

مطبعة أحمد مجمر بشارع فاروق تليفون ٤٧١٩٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م

بحث تمهيدى

أرسطو :

ولد أرسطو ، Aristote ، فى بلدة ستاجير Stagire من أعمال مقدونيا فى سنة ٣٨٤ ق م . وكان أبوه ، نيقوماك ، Nicomaque طبيباً لملك مقدونية ، أمينتاس ، Amyntas الثالث فذهب أرسطو فى بيت الملك مذهب العادات ، دقيق الفكرة ، دقيق الحساسية ، واستفاد من هذه البيئة التى تختلف إليها العلماء والبلغاء . وأفاده هذا الاختلاط كثيراً فى سعة أفقه فى مختلف الميادين السياسية والعلمية . مات والداه وهو فى السابعة عشرة فرحل إلى الريف وتعرف على أخلاق أهله ، وعاش فى جوهر الطليق تحت سمائه الصافية ، وفوق أرضه الخصبة الغنية ، ودقت ملاحظته ، وطال تأمله فيما حوله ، مما كان له أثره فى إرهاب حسه ، وفى دفع تطلعه إلى كل ما كان يحيط به من الآفاق العلمية ، فى السياسة ، والاقتصاد ، والاجتماع .

أقام أرسطو فى أثينا بعد سنة ٣٦٧ واستمع إلى البلقاء والخطباء ، وأخذ بهم وبقدرتهم على صنع الكلام . واندفاعهم به اندفاعاً يكاد يكون طبيعياً ، ولاحظ مواقفهم فى الخطابة ، وعرف طرقهم فى الأعداد معرفة كان لها تأثيرها فى نفسه حينما تصدى للخطباء ، وللسوفسطائيين منهم بصفة خاصة ، ينتقدهم ، ويزيف أفكارهم ، ويرسم لهم الطريق فى الفكر وفى المنطق .
أعجب أرسطو بأفلاطون وأدركه فى شيخوخته يرسل الآراء إرسالاً غتلقفها أثينا ، ويتلقفها الطلبة بالبحث والدرس ، فكان من أحسن تلاميذه ،

بل كان أحسنهم إطلافاً ، وليس فيهم من له شهرته واستقلاله في آرائه . ولقد أسس أرسطو كأستاذة أفلاطون مدرسة Le Lycée في أثينا كان لها آراؤها ، وكان لها تلاميذها الذين أشاعوا آراءه وحفظوها عدة أجيال ، وبعد موت أستاذه بقليل ألف كتابه «السياسة» La politique حينما خرج الإسكندر تلميذه لغزو آسيا سنة ٣٣٥ أكتب على العلم والتعليم ، وكان على اتصال دائم بتلميذه ومليكه الذي كان يرسل له من الآفاق الآسيوية بمجموعات من النباتات وعظام الحيوانات كانت فيما بعد المصادر العلمية لدراسته في التاريخ الطبيعي . وأرسطو أول من فكر في إنشاء المكتبة ، وأول من فكر في كتابة التاريخ في شكل معجم مرتب ترتيب الحروف الأبجدية .

وبعد موت الإسكندر في سنة ٣٢٣ عانى أرسطو كثيراً من أعدائه وجر عليه اتصاله بالإسكندر شر المصائب فانصبت عداوة الاثنين للإسكندر ولأبيه على رأس هذا الفيلسوف ، واتهم في آرائه وفي معتقداته بما كان سبباً في تشريده وموته .

وكان لهذا الاتهام أثره في كتابة المؤرخين والعلماء الذين كتبوا عنه فيما بعد وعدوه من شهداء الفكرة والعقيدة (١) .

ومن غريب الاتفاق أن يموت أرسطو في السنة عينها التي مات فيها ديموستين الخطيب ، وأن يولد معه في يوم واحد . دخلاً معاً في الحياة ، وخرجاً معاً من الحياة ، ولم تمر هذه المصادفة دون تعليق من المؤرخين ، فقد شغل ديموستين بحرية الشعب اليوناني ، وشغل أرسطو بحرية الفكر ،

(١) المجلة السنوية لاتحاد الدراسات اليونانية :

Annuaire de L'association greque, année 1882 ,
Constantin, Sathas .

وعمل ديموستين لوطنه ، وفي حدود وطنه ، أما أرسطو فقد عمل في محيط
 لاحد له ، وفي وطن لا يدعيه أحد ، لأن الإنسانية تدعيه وتنسب إليه ، ذلك
 هو محيط الفكر ، وذلك هو الوطن الفكري ، فلم يعمل أرسطو لزمته ، بل عمل
 للزمن مطلقاً ، ولم يعمل للحضارة اليونانية فحسب ، وإنما عمل للحضارة
 الإنسانية ، ولإشاعة الفكر اليوناني في الحضارات الإنسانية المتعاقبة ^(١) .
كتابة أرسطو وكتبه :

عبقريّة أرسطو تعد من العبقريات العلمية الفذة ذات المعرفة الشاملة :
 فهو يقسم العلم إلى أربعة أقسام : المنطق أو كيفية التفكير ، والنظر ويدرس
 باسمه كائنات لها قيمتها في ذاتها وفي حد نفسها . والعمل ومجاله الأحداث
 والسلوك من الناحية الخلقية . والشعر ومجاله درس الإنتاج العملي من ناحية
 أنه موصل للإنتاج الفني . وكل علم من هذه العلوم له مظاهره ومصادقاته ،
 ووظيفة العلم بعد ذلك ، تنحصر في البحث عن العلاقات بين هذه
 الوقائع والمصادقات .

والبحث في هذه العلاقات يؤدي بطبعه إلى البحث في السبب والسببية ، وهذه
 السببية أو العناصر التي تحدد الكائنات ، لا تخرج عن المادة التي يتكون منها
 الكائن La matiere وعن الشكل الذي تتشكل فيه المادة La forme
 وعن المحرك الذي يدفع المادة إلى الحركة Moteur حتى تكون قابلة للتحويل ،
 وعن الغاية أو السبب النهائي لهذا التحويل . وينتهي أرسطو من هذا التفصيل
 إلى أن هناك قوة وحيدة تحرك العالم أو المادة ، وتحركه نحو الخير

(١) تاريخ الأدب اليوناني لماكس إجر (ترجمة أرسطو) .

Histoire de la littérature greque, Max Egger .

هي قوة الله المتفرد بالكمال ، والذي لا يصدر عنه إلا الكمال .

وأرسطو إذا كتب في كل أولئك كان أسلوبه دقيقاً عميقاً ، يعرض الفكرة ويقلبها ، ولا يزال يقلبها حتى يصل إلى مصدرها الأول ، وهو يضرب على هذه الفكرة بشدة من العصبية الفكرية عنيفة ، فيكون لها حرارة ويكون لها ضوء ، ثم هو بعد ذلك يزيجها في عبارات عصبية غاية في الفصاحة والبيان ، وإن كانت بعيدة عن القواعد التي قررها البلاغيون قبله .

وقد ترك أرسطو نحو خمسة وعشرين كتاباً تنظم كل المعلومات العقلية التي يعرفها العقل البشري في القرن الرابع قبل الميلاد ، والتي يقرها العقل البشري ويعترف بكثير منها اعترافاً زمنياً كان له تأثيره في زمنها ، واعترافاً مطلقاً لا يتقيد بالزمن ولا يعرفه ، لهذا عاشت هذه الأفكار طوال هذه الحقب ، وستعيش .

جمع هذه الكتب تلميذه تيوفراست Théophraste وكان أرسطو قد أوصى أن يتولى شأن مدرسته من بعده ، فعلق عليها ، ثم وقعت في يد تلميذ آخر من تلاميذ أرسطو هو نيلي Nélee سنة ٢٧٢ ق م واحتفظت بها أسرته حتى سنة ٩٠ . ثم بيعت إلى الفيلسوف النحوي أبيلكون Apellicon ، وبعد موته استولى عليها القائد سيلا Sylla وحملها إلى روما ، وهناك اطلع عليها شيشرون Cicéron الخطيب الروماني فأكب عليها نسخاً وتعقيماً ، وكانت المرجع الوحيد لعلماء اليونان الذين اتخذوا روما وطناً ثانياً ، ولعلماء الرومان الذين عرفوا قيمتها وضرورتها لتطور مدنياتهم الحديثة . ولم تأت سنة ٣٩ ق م حتى كانت هذه الكتب في صدر المكتبة الرومانية التي أنشأها القنصل أزينيوس بوليو Asinius Pollio

ولقد كُتِبَ لها ثبت للتعريف بمحتوياتها ، على أن هذا الثبت لم يخل من بعض مخطوطات أدخلت عليه ونسبت إلى أرسطو ^(١) وإنا ذاكرون بعض أمهات هذه الكتب التي لا تبعد بعنواناتها وموضوعاتها عن أحدث ما يمكن أن يفكر فيه العقل البشري :

(١) كتاب الأرجانون Organon وهو موسوعة للكتب الآتية :

- | | |
|-----------------------------|---|
| Les Catégories | ١ - المقولات |
| Elocution | ٢ - الفصاحة (العبارة) |
| | ٣ - التحليلات الابتدائية والثانوية |
| Les premières analytiques . | |
| Les secondes analytiques . | |
| Topiques | ٤ - الجدليات أو الطوبىقا ، كما سماها العرب . |
| Réfutation des sophismes . | ٥ - نقد السوفسطائيات |
| Rhétorique | ٦ - الخطابة أو الروطوريقا ، كما سماها العرب . |
| Poétique | ٧ - الشعر أو البوطيقا ، في تسمية العرب . |
- (ب) الطبيعة ووظائف الأعضاء :

- | | |
|---------------------|----------------------------------|
| Leçons de physique | ١ - دروس في الطبيعة |
| Traité du ciel | ٢ - الموسوعة العلوية |
| Les météorologiques | ٣ - الأجواء والأنواء |
| Traité du monde | ٤ - موسوعة العالم ^(٢) |
| De l'âme | ٥ - في الروح |

(١) ترجمة رويل لكتابي الخطابة والشعر ص ٧ مقدمة

Aristote , Poétique et Rhétorique , Ch. Emile Ruelle
P. VII Paris 1883.

(٢) مدسوس عليه .

Des songes	٦ - في التصورات
De la mémoire	٧ - في الذاكرة
Du sommeil	٨ - في النوم
De la jeunesse et de la vieillesse	٩ - في الشباب والشيخوخة
De la vie et de la mort	١٠ - في الحياة والموت
De la respiration	١١ - في التنفس
De la longévité	١٢ - في طول العمر
Histoire Naturelle	(ح) <u>التاريخ الطبيعي :</u>
Histoire des animaux	١ - تاريخ الحيوان
Parties des animaux	٢ - أجزاء الحيوان
Du souffle	٣ - النفس
Les couleurs	٤ - الألوان
Métaphysique	(د) <u>ما وراء الطبيعة :</u>
Les métaphysiques	١ - الميتافيزيقات
Sciences morales et politiques	٢ - علوم الأخلاق والسياسة
Traité des vertus	٣ - الفضائل
Des vertus et des vices	٤ - الفضائل والذائل
La politique	٥ - السياسة .

Les Economiques

٦ - الاقتصاديات

Les Mathématiques

(هـ) الرياضيات :

Problèmes

١ - المسائل

Questions mécaniques

٢ - مسائل الحيل^(١)

هذا شيء من الكتب التي نقلها العالم عن المكتبة الرومانية ، والتي أثارت الفكر الإنساني إثارة متواصلة على رغم تقلب السياسات والأحداث ، وإذا دفنت في ناحية وجدت من يندش عنها في ناحية أخرى . قامت على هذه الكتب المدنية الرومانية ، وأثرت تأثيراً له خطره في العصور الوسطى ، وبخاصة في الأوساط العربية ، ولا تزال إلى الآن تتحكم في العلوم والسياسات والأخلاق كما تتحكم في الفنون وتجدها في آثار كل تفكير . أو تجد كل تفكير على آثارها ، مهما اتصف بالجدة والحدثة .

وقد أكب عليها العلماء في القرن التاسع عشر فخللوا فيها ما حللوا وترجموا وبسطوا ومهدوا لنشرها وللانتفاع بها^(٢)
أصالة كتاب الخطابة :

نتكلم هنا على الأصالة من ناحيتين : الأولى أن كتاب الخطابة هو لأرسطو لا لغيره ممن تقدمه من الخطباء أو ممن تأخر عنه من تلاميذه ، والثانية أن فكرة الخطابة أصيلة في نفس مؤلف الكتاب لم يقترضها من

(١) نقلنا أهمات كتب أرسطو عن ترجمة رويل وترجمناها بمصطلحات حديثة .

(٢) ادوارد زيلر في الفلسفة اليونانية وتطورها التاريخي (مقدمة) .

La Philosophie des Grecs Considérée dans son
développement historique , Edouard Zeller .

أحد من تقدمه، وسنعرض لهاتين الناحيتين بشيء من التفصيل :

عرضت كتب أرسطو أو بعضها في الأقل في معرض الشك، وتعرض النقاد لها من حيث أصالتها ونسبتها إلى المعلم الأول أو إلصاقها به، وقد رأيت أن بعض الكتب استبعدتها النقد وأسقطها من ثبت كتب أرسطو، أما الكتابان الفينيان : الخطابة و الشعر فقد اتفقت الرواية والمخطوطات على نسبتها لصاحبهما : فالخطوط المحفوظة في مكاتب باريس، وروما، والبندقية، وفلورنس، ومدريد، وليدن، تشتمل كلها على كتابي الخطابة والشعر. على أن كتاب الشعر قد تناوله بعض النقاد وشكوا في نسبته إلى أرسطو، وحتى من شك فيه لم ينكر أن أرسطو تناول فن الشعر كما تناول فن النثر الخطابي .

فالناقد ينكر أن له كتابا بذاته يسمى « كتاب الشعر » ولكنه لا ينكر أن المؤلف تكلم في الشعر وتكلم في الشعراء وله فيهم كتاب كامل يسمى « الشعراء »^(١) Sur Les poètes ويقرر أن ما بقي من هذا الكتاب جزء يسير هو الذي سمي فيما بعد باسم « كتاب الشعر » ، إذن هم ينكرون اسم الكتاب ولا ينكرون موضوعه الذي تناوله أرسطو في إسهاب وتفصيل، إما في كتاب خاص بالشعر، وإما في كتاب خاص بالشعراء، وما بقي الآن باسم « كتاب الشعر » هو أثر من آثاره، ونبضات مما كان يضطرب به حسه الفني وذوقه الأدبي .

ويرجع الفضل في إظهار كتاب الشعر إلى الفيلسوف الإسلامي « ابن رشد » الذي نقله إلى العربية واشتغل به العلماء بعد ذلك فنقلت

(١) كتاب الخطابة والشعر ترجمة « رويل » ص ٩ مقدمة .

الترجمة العربية إلى اللاتينية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر نقلها « هرمان أليمانوس » Hermann Alemannus ١٤٨١ في فنيسيا وبعدها ظهرت ترجمة « جورج فاللا » George Valla إلى اللاتينية أيضاً . وفي أوائل القرن السادس عشر ظهرت « مجموعة خطباء اليونان » Rhetores graeci لمؤلفها « آلد مانوس » Alde Manuce سنة ١٥٠٨ وشغل كتاب الشعر من هذه المجموعة الصفحات من ٢٦٩ إلى ٢٨٦ . وكيف كان الأمر فإن الجزء الثاني من « كتاب الشعر » الذي ضاع أكثره وبقى أقله أو الجزء الباقي من كتاب « الشعراء » يدل باعتراف النقاد على قوة أرسطو العجيبة في البحث والملاحظة ، وما وصل إلينا من الكتابة عن الفن الشعري لم يكن إلا « الطبيعة صورها أرسطو في صورة عملية تجريدية » ولم يكن إلا الحس الصادق أفرغ في مبادئ وأفكار ، على حد تعبير رابان Rapin ^(١) الذي يحدثنا أيضاً عن ذوقه الشعري فيقول : « إنه يعلو على ذوق كل الشعراء ، فقد غنى فيه بالعظيم والتافه ولكنه عبر عن الجميع تعبيراً شعرياً رائعاً . »

أما كتاب الخطابة فمما لا شك فيه أنه لأرسطو في معظم أجزائه ، والتراجم اللاتينية التي ظهرت فيما بعد صورة صحيحة لما كتبه أرسطو في الخطابة ، كما أن التراجم المتأخرة التي ظهرت في مختلف اللغات الأوروبية صورة

(١) أفكار في الفصاحة والشعر والتاريخ والفلسفة .

Reflections sur l'éloquence, l'apocritique, l'histoire, et la philosophie 1693 .

انظر القاموس النقدي لبابل ، مادة (أرسطو)

Bayel , dictionnaire critique , art . Aristote .

صادقة للنصوص اليونانية لا اختلاف بينها وبين الكتاب . وطريقة الكتاب
علمية لا تزال حية ، وأفكار الكتاب لا تزال باقية في الأسلوب
الخطابي على رغم تطور الخطابة وتقلبها في الأمم والأجيال ؛ والمنهج الذي
اختطه أرسطو هو المنهج العلمي السائر إلى اليوم ، وتقسيم الخطابة صحيح فلسفي
مبنى على الزمن ، ومبنى على موضوع الخطبة ، وكان التقسيم سائراً رائجاً حتى
القرن التاسع عشر ، فزاد فيه النقاد أقساماً في الخطابة التي حصرها أرسطو
في الحدود الزمنية (١)

ولإليك بعض آراء الكتاب والنقاد الذين تحدثوا عن كتاب الخطابة .

يقول أرنست هافي Arnest Havet

« إن الطريقة والمنهج في كتاب الخطابة مما تفرد به أرسطو ، ولم يعرض
أحد من سابقيه من خطباء وغير خطباء عرضه ولا نهج نهجه ، ولا تزال
جدته باقية على الزمن ، ولا تزال طريقته خصبة منتجة . وإنى لا أتردد في أن
أقول إنه العمل الجدير بأن يسمى فلسفة ، كما لا أتردد في أن أقول إنه العمل
الحقيقي الذي انتفع به المحدثون انتفاعاً صحيحاً ؛ لقد ضغط أرسطو على
الخطابة الصناعية التي كانت ضاغطة على النفوس ، وطالب في كتابه الخطيب
أن يكون قوياً دقيقاً مؤثراً في نفوس السامعين لا بالأفكار وحدها ، ولسكن
بالجمل والعبارات . ومن هنا كان كتابه الكتاب الكلاسيكي ، لمن يريد أن

(١) قسم أرسطو الخطابة باعتبار الزمن إلى أقسام ثلاثة : الخطابة القضائية وتقع في الزمن
الماضي ، بمعنى أن الجريمة وقعت في الماضي والمدافع عنها أو المقرر لها محدود بالتكلم في ظروفها
وملابساتها في الزمن الماضي . والخطابة الخلية أو الاستشارية وزمنها المستقبل فالخطيب الذي
يريد حقن الناس إلى شيء بعينه محدود بأن يتكلم مستقبلاً . والخطابة التي يقصد بها المدح
والذم زمنها الحاضر . وبحسب ما على الخطيب الذي يتكلم في نوع معين من الخطابة أن يتعدى
زمنه . راجع دائرة المعارف الفرنسية مادة خطابة .

يتعلم الاستمالة والقسر على الاستماع . وإنى لا أنصح بترجمته حرفياً ، ولا أطلب متعلمينا أن يحفظوه عن ظهر قلب ، وإنما أطلبهم أن يتعرفوا روح الكتاب ؛ فالجدير بالدراسة فيه هو فلسفته وملاحظته النفسية الدقيقة ،^(١) .
وَأرنست نفسه يقول مرة ثانية :

« إن عبارات أرسطو ملفوفة في لفائف صغيرة ، ومطوية في طيات قديمة جافة ، ولكن هذه اللفائف الجافة تخفي تحتها أحاسيس لاتزال حية جديدة . إن هذه الصفحات المكتوبة بحروف ممتة لاتزال تحتفظ بحرارة الحياة إذا أمكن أن نصل إلى ممكن السر فيها ، وإن كل عبارة من عباراته تحرك أوتاراً حساسة مصدرها قلب إنسانى كبير ، وإذا لمست وترا من هذه الأوتار رن بمجرد لمسه واستجاب للحساسية التى تحس بها ،^(٢) . وهو نفسه فى موضع ثالث يقول :

« إن الفكرة فى كتاب الخطابة واضحة وحقيقية ، والجدير بالنظر والتدقيق فيه هو الحوار فى الاحتماليات والظنيات ، لأنه حوار سياسى أساسه التفكير المستند إلى الذكاء ، وبخاصة ذلك الآراء ، وتجد فى الكتاب كثيراً مما تدعو إليه المنفعة ، وما تميل إليه النفس من عواطف إنسانية . وليس فى كتب أرسطو ما يمكن أن يدرك الغور البعيد لهذه النواحي إلا كتاب الخطابة ،^(٣) .
أما النقاد الذين شكوا فى نسبة كتاب الخطابة إلى أرسطو فقليلون

(١) دراسات فى خطابة أرسطو ص ١ الطبعة الثانية ١٨٤٦ .

Etudes Aur la Rhétorique d'Arislote 2^e . édition par A. Havt 1846 . p1 . . .

(٢) دراسات فى خطابة أرسطو . ص ٤١ :

Etudes sur la Rhétorique d' Aristote, p. 47 ,

(٣) الكتاب المتقدم ص ١١٩ .

ولقد جاءهم الشك من العثور على كتابين في الخطابة أحدهما « كتاب الخطابة » الذي يقال إن المؤلف أهداه إلى تلميذه ومليكه الاسكندر .

Rhétorique à Alexandre .

وثانيهما « الفن الخطابي » L'art rhétorique الذي نحن بصدد ترجمته وقد قرر « كاز » في دائرة المعارف البريطانية أن الكتاب الأول موضع شك إذا نسب لأرسطو ، ولكنه ينفي الشك عن الكتاب الثاني ^(١) ويقرر « نافار » أيضا في كتابه « في الخطابة اليونانية قبل أرسطو » أن « الخطابة للاسكندر » ليس لأرسطو وهو مؤلف قبله بكثير ، ولا يشك أيضا في نسبة كتاب « الفن الخطابي » إليه ^(٢) .

أما دوفور الذي يعد من أحدث المترجمين لكتاب الخطابة والذي نقله إلى الفرنسية وطبع مع الترجمة النص اليوناني في صفحات متقابلة فقد عقد مقارنة بين كتابي « الخطابة إلى الاسكندر » و « الفن الخطابي » وفي هذه المقارنة أثبت أن الأول ممدسوس على أرسطو لأن أسلوب أرسطو وخصائصه في تأليفه لا تسمح بنسبة هذا الكتاب إليه .

ولابد لنا بعد ذلك أن نقرر أن القسم الثالث من كتاب الخطابة قد تناوله الشك ، ولكن النقاد الذين أنكروا هذا الجزء لا يمنعون أنفسهم ، ولا يستطيعون منعها من تقرير أن هذا الجزء متمم منطقي للجزءين قبله لا ينفك عنهما لافي موضوعه ولا في أسلوبه ، فالوحدة ملحوظة في الأجزاء الثلاثة ، لأن الجزأين الأولين يعرضان لنظرية الاستدلال واختراع الأدلة

(١) دائرة المعارف البريطانية :

Ensyel . Brit . 515 , Anaximéne .

(٢) في الخطابة اليونانية قبل أرسطو لنافار :

Essai sur la Rhétorique greque avant Aristote , Navarre .

العامة الضرورية للأنواع الخطابية الثلاثة التي قررناها ، أى أنهما يعرضان لموضوع الخطابة في ذاته ، أما الجزء الثالث فيعرض للخطابة من الناحية الشكلية أى من ناحية العبارة ومكان البرهان ، فالأجزاء الثلاثة متضامنة ومتضامنة في عرض الخطابة موضوعا وشكلا تضامنا وتضامنا يكفلان للخطابة التأثير النفسى والعمل الذى يهدف إليه الفيلسوف .

هذه هى أصالة الكتاب من حيث نسبته إلى مؤلفه ، أما أصالته من حيث موضوعه بمعنى أن أرسطو كان أصيلا أو كان مسبقا بهذا الموضوع ، فالأصالة ثابتة له أيضاً من هذه الناحية ، لأن أصالة الكتاب أو أصالة موضوعه لا تفهم ، ولا ينبغي أن تفهم على أنها اختراع محض ، بمعنى أن الكتاب أصيل في تأليفه ، وأن المؤلف أصيل في تفكيره ، إذا كان قد اخترع كتابة جملة ، شكلا وموضوعا ، وأن تأليفه من الطرافة والجسدة بحيث لم يفكر أحد قبله فيما فكر فيه ! وإنما للأصالة العلمية معنى آخر غير معنى الاختراع ، ولا يقدر فيها أن يسبق المؤلف إلى موضوعه إذا كان المؤلف المتأخر قد عرض لآراء من تقدموه وألح عليها بالنقد والنقض ، وإذن يعتبر أصيلا أيضاً لأنه نسقّض ، ولأنه لمح في غبار النقض والهدم ما يمكن أن يكون به جديداً ، ولو كانت مواد هذا الجديد من القديم المنقوض . والمتأخر يعتبر أصيلا أيضاً إذا جافى في الفكرة والطريقة من تقدمه في مثل تأليفه ، وهكذا كان أرسطو ، فقد سبقه أفلاطون في الكلام على الخطابة ، وسبقه السوفسطائيون إلى موضوعها علمياً وعملياً ، وسبقه خطباء من غير السوفسطائيين دونوا ملاحظتهم على خطبهم ، واتخذوا من هذه الملاحظ المتجمعة قواعد ومقاييس ساروا عليها .

ونرجع فنقول إن كتاب الخطابة لأرسطو كتاب فنيّ، معروض للبرّة الأولى عرضاً فنياً، وتطفر فنيته بالقراءة العابرة للفصل الأول من الكتاب الأول، فقد عرض فيه الخطابة عرضاً نظرياً، كما عرض لهذه الأصداة الجدلية التي يختنق في ضوضائها صوت الخطابة، وهو يعرض ما يعرض في صراحة الواثق المجدد الذي يزهو بجدة تفكيره، وإن عمله ليمتاز عن عمل سابقه الذين لا يعدون في نظره أن يكونوا نقلة سرقة أخذوا أفكار الماضين ورددوها، فلا رأى لهم في موضوعهم، وليست لهم أفكار تتجمع في ناحية معينة يمكن أن يتألف منها نظر، أو تتكوّن منها نظرية يقررون على هديها فناً أو علماً له بميزاته ومداه وخصائصه.

يستمر أرسطو في كتاب الخطابة ناقداً هؤلاء الخطباء الذين لم يفهموا من موضوعها إلا نوعاً واحداً هو الخطابة القضائية، استمرّوها واستمرّوا الكلام فيها، لأن العمدة فيها على النجاح وكسبه، وهو سهل ميسور، وهو يهاجمهم في ناحية اختصاصهم، وفي عقور دارهم، فينعى عليهم أنهم لم يحذقوا من الخطابة القضائية إلا ما يستطيعون به استمالة القضاة، وجذبهم جذباً إلى ناحيتهم، أما المبادئ العامة التي تأخذ بهم إلى تعرف مواطن الاستدلال، فهم يجهلونها كل الجهل، وإذن لم يفروا للفن بشيء مما كتبوا، ولم نقف في عملهم على ما كان ينتظر منهم، ولم يقدموا للعلم إلا ما يستغنى عنه العلم، ولا غناء فيه للعلم. كان إذن حقل الخطابة في عهد أرسطو بكرة يحتاج إلى العمل والمجهود ويدعو إليهما، ولا ينتظر عملاً ومجهوداً إلا من المنطقي الذي يبتكر المنهج، ثم يرسمه، ثم يفهم كيف ينمى الأدلة، وكيف يزجها، وكيف يؤديها ويزكيها، وكيف يفرق فيها بين الموضوعي والذاتي، أي كيف يفرق بين الأدلة

التي تساق مدفوعة بموضوعها وبأحقيتها ، وبين الأدلة الأخرى التي تذكر لأنها من البديهيات المسلّات ، وكيف يميز بين الأنواع الخطابية ، وكيف يتعرف فيها على المواطن الخاصة والعامة ، ويستخرج منها ما يقرره في موضع التقرير ، وما ينقضه في موضع النقض ، يجعل أرسطو من هذا كله فنية خاصة لها معالم علمية مجاها مناطق المحتمل والمظنون .

كان أرسطو هذا المنطقي المنتظر الذي يجيب على كل هذه الأسئلة ويبقى للفرن بكل ما ينتظر من عبقرية تجعل فنا ما ليس بفرن وما يظن سائر الناس أنه لا يقع تحت فن .

لم يعارض أرسطو أفكار من تقدمه من الفلاسفة والخطباء فحسب ، بل عارضهم في العرض والطريقة والمنهج ، فلم يعرض البلاغة الخطابية كما عرضها أفلاطون بمزوجة بالفلسفة ، مخلوطة بمسائلها ، وإنما كان للخطابة في نظره ففكرة واضحة المعالم ، قائمة بذاتها ، تستحق وحدها عناية الدرس الجديد .

من كل أولئك نرى أن كتاب الخطابة من أصح الكتب التي وصلت إلينا عن أرسطو والتي لا يتطالع إليها الشك إذا نسبت إليه ؛ وكما يتصف «الكتاب» بالأصالة في الوجود ، يتصف صاحبه بالأصالة في الفكرة التي أدت به إلى تأليف الكتاب ، فإنه وإن كتبه متأثراً بأفكار أشياخه «سقراط» و«أفلاطون» وبأفكار السوفسطائيين الذين تصدى لهم ولافكارهم ، إلا أن شخصيته بارزة واضحة فيما كتب ، فقد قرأ أفكارهم وزيف كثيراً منها ، وأقام على القليل الذي بقي هيكل كتابه ، وقد كسا هذا الهيكل العظمى باللحم ، ونفخ فيه كثيراً من حيويته ، حتى أبرزه في مظهر الجديد المخترع وظهر كأنه المؤلف الأول لتلك المادة البلاغية .

ويقتضينا هذا أن نتكلم عن الخطابة في نظر أعدائه العليين
السوفسطائيين وفي نظر شيوخه سقراط وأفلاطون .

الخطابة قبل أرسطو :

ظهر السوفسطائيون في اليونان مع ظهور « النثر الفني » الذي تنسم
الحياة في القرن السادس قبل الميلاد . وظهور النثر الفني في اليونان مقترن
بظهور مدرستين إحداهما المدرسة اليونية L'ecole d'Ionie التي أسسها
« تاليس » Thalys في نحو سنة ٦٠٠ ق م . انكب فلاسفة هذه المدرسة
على دراسة الطبيعة وبخاصة دراسة العناصر كالماء والهواء والنار ، وإلى
جانب هذه الدراسة ظهر بيتاجور Pythagore بفلسفة أخرى يمكن أن
تسمى فلسفة رياضية عديدة إلى جانب دراسات دينية أخرى أساسها
ما يسمى « تناسخ الأرواح » فقد شغل أصحابه بدراسة مقر الروح بعد
مفارقة الجسم ، وقرروا أنها تنتقل من جسم شرير إلى جسم خير ، ومن هذا
الجسم إلى جسم آخر أكثر طواعية وأشد حساسية حتى تستكمل صفاءها ،
وترجع إلى روحانيتها الأصلية ، مما كان نواة لتأسيس مدرسة أخرى هي
المدرسة الأيلية L'ecole d'Elée التي أسسها اكسينوفان Xénophane
في نحو ٤٤٠ ق م . وكان الاتجاه في المدرسة الثانية على النقيض من اتجاه
المدرسة الأولى : كان اتجاها مثالياً لامادياً ولاعدياً ، وكان اكسينوفان نفسه
شاعراً وفيلسوفاً ينزع في فلسفته إلى الناحية الدينية ويعتقد في إله واحد
قادر خالد إلى غير هذا من المبادئ التي أقرتها الديانة المسيحية فيما بعد .
أمام هذين الاتجاهين المادى والروحي للمدرستين ظهرت جماعتان إحداهما
مقرّبة موفقة تحاول أن تضيق المسافة وتقرب الشقة بين المدرستين ، ومن

هذه الجماعة الشاعر امبيدوكت Empédocte والفيلسوف أناكساغور
Anaxagore فلقد عملا معا على التوفيق بين الذوق العلى والذوق الدينى
الذى أخذ يعرض لمسائل ماوراء الطبيعة وما بعد الموت وترك الأخير
لنا فى ذلك بقية كتاب سماه « فى الطبيعة » Sur la nature .

أما الجماعة الثانية فلم تعبأ بأراء المدرستين ، ولم تحاول التوفيق بينهما ،
ووقفت منهما ومن مبادئهما موقفا محايدا ، بل موقفا سلبيا ، كله إنكار ،
وكله تسفيه لأفكارهما ، ولعقول من يدين بهذه الأفكار .

ولم تكن هذه الجماعة الثانية إلا جماعة السوفسطائيين الذين ظهروا دفعة
واحدة ، وحاولوا أن يفرضوا آرائهم على جمهور الآثينيين . تسموا بالمعلمين
وحاولوا تعليم الحكمة ^(١) وما يعلمون إلا الحكمة الإنكارية ، ما دام العلم
الحقيقى ، أو ما دام إدراك الحقيقة العلمية مستحيلا فى نظرهم . فعندهم أن كل
ما يسمى علما ، وكل ما يسميه العلماء ظاهرة علمية ، ما هو إلا مظاهر لاحقيقة
وراءها . وما العلماء فى نظرهم إلا أناس رقت نفوسهم ، لأنهم تمتعون بحساسية
مطلقة ، وهذه الحساسية من الهبات الخطيرة مادام صاحبها يستطيع أن يقرر
ماليس بمقرر فى الواقع ، ومادام يستطيع أن يقرر قواعد وأصولا لا أساس
لها . إن العلماء هم صناع كلام ، ومهندسو جمل وعبارات ، والجديرون بهذا

الاسم منهم هم الخطباء والبلغاء وحدهم Rhéteurs . والسوفسطائيون لهم مع
هذا الموقف السلبى مبادئهم ، فهم يقابلون بين مبدأين علميين لكل منهما أثره
فى الحركة الفكرية مبدأ المنفعة أو الشئ النافع L'utile ومبدأ الحقيقة أو
الحق Le vrai وعندهم أن المنفعة مقدمة على الحق ، وأن الناس مطبوعون

(١) كلمة صوفيا Sophia معناها الحكمة وبها سميت هذه الجماعة بالسوفسطائيين .

على السعى وراء المنفعة ، يعملون لإدراكها بمختلف الوسائل . فواجب
الإنسان إذن ، بل واجب العلم نفسه ، أن يعمل ويجهد ما وسعه العمل والجهد
في سبيل المنفعة . وما الحقيقة إلا المنفعة المدركة ، وأية حقيقة بعد ذلك أبلغ
من أنني سمعت وأدركت ما سمعت إليه ! تلك هي غاية الناس ، وتلك هي
الغاية التي يجرى وراءها الناس ، وما الجدوى من البحث في حقائق الأشياء
مادامت حقائق الأشياء خفية مستترة ؟ وما الجدوى من العلم مادامت
مسائل العلم غير محققة ؟

مع هذه الحرية الفكرية سعد النثر الفني وتحرر من قيود العلم وقيود
القاعدة ، وأصبح للكلام المحل الأول ، وحل الخطيب محل العالم
والفيلسوف ، ووقف الخطيب أمام العلماء يجادلهم جدلاً حراً يرجع فيه إلى
صدق حسه ، وإلى ما يجده في نفسه ، غير عابئ بما يفرضه العلماء من رعاية
مبادئ قد تفوت عليه مبدأ المنفعة التي يعمل لها .

أثارت هذه الوقفات السلبية من نفوس الفلاسفة فرصد للسوفسطائيين
سقراط وأفلاطون وأرسطو من بعدهما يزيفون آراءهم ، ويقومون منها ،
ولهم كتب أرسطو كتاب « المنطق » ، يصحح الفكرة ، وكتاب « الخطابة »
ليخضع يفهم التطبيق لقواعد عامة .

فالنثر الفني اليوناني مدين بربيته للسوفسطائيين ، فهم الذين أكتبوا
الكلام هذه الطوعية التي تحملت أدق الأفكار ، وهم الذين كسوه هذا الجمال
الذي عرفت به الخطابة في اليونان والرومان في الأعصر القديمة .

وقد تعدى أثر السوفسطائيين الخطابة إلى الفلسفة نفسها فإذا اتصفت آراء
سقراط بعدهم بالغازاة وقوة الحركة ، فالفضل للسوفسطائيين لأن الفلاسفة
كانوا قد أهملوا الإنسان وكانت فلسفتهم تحوم في أجواء بعيدة عنه ،

فأصبحت الفلسفة تعنى بالإنسان ، وتعنى بالوقائع ، وتعنى بالاشياء التى تقع تحت حسه ، وتخضع لحكمه ، كان الفلاسفة يرون الاشياء من زاوية خاصة ويراهما الإنسان بعيدة عن آفاقه لاتعيش معه ولاتسايره ، ولاتساعده ، فى جلب نفع أو دفع أذى ، ومن هنا قرر السوفسطائيون مبدأ آخر هو الإنسان والإنسان على حد تعبير شيخهم بروتاجوراس Protagoras «المقياس الوحيد للأشياء» .

والسوفسطائيون يقررون مبدأ ثالثاً هو «الشك» ، دعوا إليه وحملوا الفلاسفة على القول بأنه من غير الممكن أن يصل الفكر إلى العالم ومصدره ، وأن يعرف هذا الذى يسمونه «الحقيقة» المتصفة بالثبات والديمومة . ليست هناك حقيقة إذن وإنما هناك مظهر لها . والحقيقة — إن كانت — لاتدرك إلا فى اللحظة التى يحكم عليها ، وبعبارة أدق فى اللحظة التى يحكم عليها الإنسان الذى يفكر فيها . والأجدد بالباحثين أن يهجروا هذه البحوث العقلية ، وهذه المضاربات على العقل فى المستقبل ، وأن يلجأوا بالبحث على ما هو بين أيديهم من الأشياء المادية العملية ، وبعبارة أخرى : الأجدد بالإنسان أن يكتفى بالفلسفة التى تتصف بالنفع والفائدة .

شاع هذا النظر الفلسفى الجديد ، وملا الأرجاء اليونانية ، وأصبح مرد كل شئ فى البلاد إلى القول ، وإلى القدرة على إirاده والتصرف فيه ، وطوّف السوفسطائيون فى البلاد يعقدون المجمع للخطابة ، والمجالس للدرس ، يعلمون «فن القول» وفن النقاش والحوار .

ولم تسكن الأخلاق قبل السوفسطائيين تسير على فلسفة معينة وإنما كانت هناك قوانين مكتوبة ، وإلى جانبها تقاليد غير مكتوبة يسير عليها

المواطنون ، وتقرر قواعد السلوك بين الإنسان والإنسان ، لذلك وجد
السوفسطائيون الحمل فسيحاً أمامهم لجذب الشباب إلى حرية القول وحرية
العمل معاً ، فكل إنسان يرسم لنفسه قانون السلوك مجارياً في ذلك ذوقه
وحاسته وأطباعه وأحقاده حسب مقتضيات الحياة الخاصة والعامة ، والغاية
فردية دائماً ونفعية دائماً . وهذه الفردية هي التي جعلت اسمهم مقروناً
بالخداع والختل والوهم والإيهام ؛ ولكن يظلمهم من لا يرى وجهات نظرهم
إلا من هذه الناحية ، ففي الحق أن اليونان قبلهم كانت مندفعة نحو اتجاهات
شعرية في السلوك ، ونحو اتجاهات غريبة في التفكير حول أصول الأشياء ،
وأصل العالم ، وأصل الطبيعة ، ومصار هذه العوالم ، فحمل السوفسطائيون
الفلاسفة والناس معهم على الانتحاء ناحية عملية في جدل مملوء بالفصاحة
والفنية في تأليف الكلام .

لم تكن آراء السوفسطائيين مجرد كلام ، بل كانت فاسفة في الأخلاق
والسلوك تقف أمام فلسفة سقراط وأفلاطون ، فمرة يقفون منها
موقفاً جدلياً ، ومرة يقفون موقفاً استهزائياً مجارين في ذلك خطة سقراط
في محاوراته الاستهزائية .

كان سقراط رجل تقاليد يحب بلاده ويحب قوانينها ، يخضع لها ،
ويدعو الناس إلى الخضوع لها ، وكان يرى كالسوفسطائيين أن الإنسان
هو كل شيء وهو صاحب الكلمة المأثورة « اعرف نفسك بنفسك »
Connais toi—toi même ولكنه كان يرى أن الإنسان الجدير بهذه
الكلمة هو الخلق العالم ، كما كان يقرر أن بعض العلوم تسمى على الشك ،
ولا يمكنه أن يرقى إليها ، كعلوم الطبيعة ، وكما كان يرى أن الإنسان الكامل إذا

خلى بينه وبين طبيعته يجد نفسه مدفوعا نحو النافع ونحو الخير بدافع من نفسه ،
لا من منفعته . فالفضيلة في نظره محكومة بالعقل ، بل لا فرق عنده بين الفضيلة
والعقل ، والخير والشر أمران موجودان بالطبيعة ، وليس من عمل الإنسان
ولا من وضعه ، فإذا اندفع إليهما الإنسان فلائنه لا يمكنه أن يتخلى عن
طبيعته ، وحتى المنفعة الخاصة والسعادة الخاصة اللتان ينادى بهما
السوفسطائيون هي في نظر سقراط من المعاني العالية التي تختلط بطبيعتها مع
النزاهة والجمال .

فأنت ترى أن السوفسطائيين كانوا يتصدون لسقراط ، وسقراط
يتصدى لهم ، يتبادلون الأفكار بالإقرار والإنكار ، والتقدير والتزيف .
وسقراط هو الذى علم الجدل Dialectique أو فن الحوار قبل
السوفسطائيين وقبل أرسطو ، وكان طريقته في التعليم أسئلة يلقيها وينتظر
جوابها ويناقشها ، وهى الطريقة التى سماها « توليد الأفكار » ، وهذه الطريقة
ضغط على كثير من أفكار السوفسطائيين ، وجعلهم يلزمون أنفسهم الحاجة
حينما يشعرون بما فى أدلتهم من خروج ، وبما فى تعريفاتهم من نقص فى التحديد .
وقد وصف أفلاطون فى كتابه « بروتاجوراس » ، علاقة سقراط
بالسوفسطائيين وتحدث عن زيارته لصديقه جالياس Gallias الذى كان
يكرم السوفسطائيين ، ويعقد لهم المجتمعات فى داره نلخصها فيما يلى :

يقول سقراط : « وصلت أنا وصاحي إلى باب جالياس ، ولما وصلنا إلى
الباب وقفنا لنكمل موضوعا كان يشغلنا فى أثناء الطريق ، وحين فرغنا منه
طرقنا الباب ففتح الخادم الذى كان يتسمع لحوارنا ، ولما وقع نظره علينا صاح
قائلا : سوفسطائيون أيضا ! إن سيدى فى شغل ولا يستطيع مقابلتكم ! ورد

الباب دوننا . فعاودنا الطريق ، فرد علينا من خلف الباب بما رده أولا ، فقلنا : لا نريد سيدك ولسكننا نريد « بروتاجوراس » ، ولسنا سوفسطائيين ، ففتح ودخلنا ، فرأينا السوفسطائي الكبير يمشى في الردهة ذهبيا وجيئة وحوله صاحب الدار وأناس كثيرون تبينا منهم أبناء بركليس (الخطيب اليوناني) وكثيرين من شباب أثينا جاءوا يتعلمون « الصنعة » ، وفي وسطهم بروتاجوراس يشنف أسماعهم بصوته ونبراته وهم يرددون ما يقول . وكان منظر هذه « الفرقة » من المناظر التي أمتعتني حقا متعة لم أعرفها في حياتي . وكان إذا تقدمهم هرعوا يميننا وشمالا ليدرکوه وليجتمعوا حوله ، وإذا قرب منهم ابتعدوا عنه احتراما وإجلالا .^(١)

وشغل أفلاطون بعد سقراط بالرد على السوفسطائيين في محاوره من محاوراته أودعها كتابه جورجياس Gorgias (أحد شيوخ السوفسطائيين) الذي كان يقرر في دروسه أن الحقيقة لا تكفي وحدها في أن تكون محور الخطابة ، فالفصاحة تجعل من الخطيب عبقریا قادرا على الاستمالة التي تجذب الجماهير إليه . وكل فكرة خلقية تحتفي ، أو يجب أن تحتفي ، أمام ما يدركه الخطيب من النجاح . تصدى أفلاطون لمهاجمة هذه الأفكار وقرر أن الخطابة لا تكون مواطنًا ، وليست كافية في إدارة شئون السياسة ، والسياسي الذي يعتمد على الخطابة وحدها محكوم عليه بالإخفاق .

وكتابه الثاني بروتاجوراس Protagoras ملهأه مرحه في الرد على السوفسطائيين وفيه محاوره أساسها « هل تتعلم الفضيلة ؟ » كما يدعى

(١) بروتاجوراس . — Protogoras , Ch . VI , VII , tradnction — nouvelle .

السوفسطائيون ، وحتى إذا كان من الممكن الحصول عليها بالتعلم فإن السوفسطائيين عاجزون عن إدراك كنهها ! لأنهم يعتمدون على معارف نسبية ، والفضيلة من الحقائق الثابتة لذاتها ، وهم ينكرون هذه الحقائق . فأفلاطون كان يرى أن « النفس » تأتي بعد الآلهة في القسداة وواجب الإنسان تكريمها وتعليمها ، وهذا التكريم لا يكون بالمعارف ولا بالثروة ولا بالسلطان ، وأحرى ألا يكون بالخطابة ، ولكن بالعمل على تنمية الفضيلة في ذاتها ولذاتها .

هذه مهاجمة أفلاطون للخطباء ، وهو لم يحرم الشعراء من غمرة من غمراته ففي كتابه القوانين Les Lois بعد أن مجد هوميير ، ورفع إلى درجة القداسة ، وبلل ترابه بندى الزهور والرياحين ، رجع فقرّر أن هؤلاء الفنانين (شعراء وخطباء) لا يصح أن يكونوا أمثلة لشباب أثينا ، وكثيراً ما أغرى بهم الحكام لينعوا دخولهم إلى نفسية الشباب إلا إذا كتبوا عن فضيلة خلقية ، وإلا إذا صانوا أخيلتهم عن الأوهام الفاسدة التي لا تجد لها ظلالاً في الحقيقة (١) .

هذه خلاصة آراء السوفسطائيين في الفلسفة ، ولاثرهم في الخطابة ، وهذا موقف الفلاسفة منهم ، ومهما كان الرأي فيهم فما لا شك فيه أن أثرهم كان كبيراً في ترقية الخطابة ، وأن تحللهم من القيود الخلقية والعلمية جعل من

(١) الفرد كروازيه تاريخ الأدب اليوناني ص ٣٠١ ، ٣٠٧

Alfred Croiset, Histoire de la littérature grecque . Tvv .
2^e édition P . 301 , 307 .

راجع أيضاً إجر في كتابه عن الأدب اليوناني .

Egger, Essai sur la littérature Grecque P 148.149 ,311,312

الخطابة فناً قائماً بذاته، كان من أكبر مظاهره الدفاع عن الفسكرة، والدفاع عن مقابليها، فكان السوفسطائي إذا تناول الطرف الراجح من موضوعه قواه وأبرزه في صور فنية من الخيال والجمال، وإذا أخذ الطرف المرجوح وصل به إلى درجة اليقين، وكان الإعجاب بقلب الحقائق في الموضوع لا يقل عن الإعجاب بالتصوير الذي يدور مع الجمل والعبارات فيبرزها بعد أن يلونها، ويسكبها الحركة والحياة زيادة على ما فيها من الدقة والوضوح. وسنرى أن أرسطو قد انتفع بهم حين تعقبهم، وأنه لم يستطع أن يسير سيراً منطقياً بحتاً في خطته الخطابية، بل سلم بالمظنون والمحتتملات ليكون منها أدلة لها قوة الأدلة المنطقية المؤسسة على البديهيات والقواعد العلمية المقررة.

سقراط والخطابة:

ليست الخطابة في نظر سقراط، علماً ولكنها عادة ومرانة لأن فكرة الخطابة وقواعدها لا تجد سببها في الطبيعة (أى في العلم الذي تقره الطبيعة وتصدقه) فنتيجة الخطابة هي الوصول إلى الغرض الفردى الذي يلزم به الخطيب الجماعة، ولا يمكن في كل الأحوال أن ترجع هذا الغرض إلى سببه وأصله، فالخطابة خارجة عن الحقيقة، ولا يمكن تصديقها دائماً عن طريق الحقيقة، وإذن يضع سقراط للخطابة خطتين: خطبة جدلية وخطبة نفسية.

الخطبة الجدلية:

إن الخطابة لا بد لها من أمرين: التركيب والتحليل، فالتركيب من شأنه أن يجمع النواحي المتفرقة في فكرة واحدة حتى يمكن تحديد الكلام

أما التحليل فعلى العكس يرد الفكرة الجمالية إلى الآراء الجزئية التى تتألف منها مع مراعاة عدم التضارب بينها ، وهناك أناس حبتهم الطبيعة هذه الهبة (القدرة على التركيب والتحليل) التى يرون بها الأشياء جملة فى كثرتها ، ويرونها متفرقة فى وحدتها ، وهؤلاء المحابون من الطبيعة بهذه الهبة يسميهم سقراط « جدلين » وسقراط أول من وضع للخطبة خطة فى ترتيب أجزائها ، وفى مراعاة موضع كل جزء من هذه الأجزاء . فالخطابة عنده نوع من الجدل ، أو هى الجدل بعينه ، وما دام الجدل عنده مبنياً على التركيب والتحليل النفسيين فالخطابة تجد أصلها فى هذه الناحية النفسية أيضاً .

الخطة النفسية :

يضع سقراط لشرح هذه الخطة الاسئلة الآتية جرياً على طريقته : هل النفس كل ؟ أو هل هى متعددة ولها أجزاء كأجزاء الجسم ؟ وكيف تعمل النفس ؟ وبماذا تتأثر ؟ وكم عدد النفوس ؟ وما أنواع الخطب ؟ وما هى الخطبة التى يجب أن تتوجه إلى كل نفس ؟ أليست هناك مشاكلة بين عدد الرجال وعدد النفوس ؟ ثم أليست هناك مشاكلة بين طبقات الرجال وبين الخطب التى تلائم كل طبقة ؟ كل هذه فروق يجب أن يتعرفها الخطيب ويقف عليها ، وأجوبتها فى دراسة النفس وعلم النفس ؛ ولا يقتصر الأمر على الدراسة النفسية المتعلقة بالسامعين بل يستدعى الأمر دراسة الخطيب نفسه متى يحسن أن يتكلم ؟ ومتى يحسن أن يسكت ؟ ومتى يكون دقيقاً مركزاً ؟ ومتى يكون ثابتاً كاتباً لا انفعاله ؟ ومتى يندفع إذا اندفع به الانفعال ؟ (١)

(١) مقدمة ترجمة دوفور لكتابات الخطابة ص ١٠ ، ١١

أفلاطون والخطابة :

رأينا أن أفلاطون ناصب السوفسطائيين العداء ، وسنرى أن أرسطو تأثر آراء شيوخه في كثير من الأحيان ، وخرج عليها في قليلها خروجا أحقّه بالسوفسطائية الذين أنكر عليهم منهمجهم وتفكيرهم . سار أرسطو مع أفكار أفلاطون حتى كشف عن «القياس» «والشكل» في المنطق فترك الطريقة الجدلية الحوارية التي تعلمها من الشيخين قبله ، وألف في الخطابة وخلصها من سلطة الفلسفة ومن سلطة الأخلاق أيضاً ، وقد عانى في هذه الناحية الأخيرة معاناة كبيرة فمن الصعب على مؤلف كتاب الأخلاق Ethiques أن ينكر الأخلاق وأثرها ، وأن يجعل من الخطابة علما بعيداً عن الأخلاق ، وهو الذي يقرر في كتاب الأخلاق « أن الفرد فيما بينه وبين ضميره ، وأن المواطن فيما له من الحقوق وفيما عليه من الواجبات للوطن وللجماعة ، يجب أن يستهدى الأخلاق في سلوكه ، وأن يقف عند محظوراتها ، ولكنه مع ذلك يرى أن الخطيب إذا درس مسالك الخطابة وعرف طرقها كانت له الحرية كلها في أن يستخدم كل الوسائل ، وأن يفتفع في خطابته بكل ما يدور في نفسه ، وبكل ما يقع أمامه مما يمكن أن يكون شاهداً أو دليلاً ينتفع به في الحياة ؛ فأرسطو في غير تحقير للأخلاق يريد أن يفرق بين وجهتين من النظر الوجهة الخلقية ، والوجهة الخطابية ، في حين أن أفلاطون يرى أن الغاية الأولى للخطيب القضائي هي أن يكفر عن الذنب الذي ارتكب ضد العدالة ، أي أن مهمة الخطابة عنده خلقية قبل كل شيء ، وإذا كانت الخطابة تعتمد على العارضة

وقوة اللد واللسن، فانها تعتمد أيضاً ، أوينبغى أن تعتمد على قوة النفس ،
وهذه لا ينبغى أن تتجه إلا إلى السعادة ، ولا سبيل لهذه السعادة إلا الفضيلة
المطلقة . هذا هو تفكير أفلاطون وهذا ماقرره فى الجزء الأول من كتاب
« جورجياس » . Gorgias .

أما أرسطو فإنه اعتمد على ملاحظة الواقع وعلى الانتفاع بهذه الخاصة
التي انفرد بها الإنسان فى جميع تصرفاته عن سائر الحيوان ، خاصة (الكلام
والتعبير) فالإنسان لأنه متكلم معبر يبحث بطبعه عن الإقناع ، ويحاوله ،
ويحاول أن يصل بكلامه إلى إقناع أكبر عدد ممكن من الناس بوسائل
مستمدة من التفكير الذى حوى به من الطبيعة ، ومن ثم تكون الخطابة
قابلة لأوضاع خاصة ، ولمصطلحات خاصة ، لانهم الأخلاق ولا تخدشها
فى شئ ، وقد نجح إلى حد كبير فى قطع العلاقة بين الخطابة (وهى من العلوم
النسبية) وبين الأخلاق (وهى من العلوم الضرورية الملزمة) .

وأرسطو قد انتفع فى هذه التفرقة بين العلوم النسبية والعلوم الضرورية
بما قرره أفلاطون من قبل ، فى كتابه جورجياس . وفى معرض الرد على
السوفسطائيين يقرر أفلاطون أن غاية العلوم الوصول إلى السكالك الجسمى
أولاً ثم الوصول إلى السكالك النفسى ، وطريق السكالك الجسمى الرياضة
والطب كما أن طريق السكالك النفسى السياسة ، وهى قسمان: التشريع والقضاء
وبمجموع هذه الأشياء الأربعة يكون السكالك الحقيقى ، فالسكالك الحقيقى نتاج
كاملين : السكالك الجسمى والسكالك النفسى ، ووسيلة السكالك الجسمى الرياضة
والطب ، ووسيلة السكالك النفسى القدرة على التشريع والمقدرة السياسية
والعدالة الخلقية فى الحكم بين الناس . غير أن هناك كمالاً ظاهرياً يحاول

الإنسان أن يصل إليه وأن يحاكي به نفسه وأن يستميل إليه الناس إذا أعوزه هذا الكمال الحقيقي : فإذا أعوزته الرياضة قابلاً بالتجمل ورعاية المظهر، وإذا أعوزه الطب (أى أعوزته الصحة) جبر هذا النقص بالعناية بالطبخ وجودته وتقدير كميات الأغذية ، وإذا أعوزه التشريع قابله بالسفسطة ، وإذا أعوزه القضاء قابله بالبلاغة أو الخطابة .

فهناك تناسب ومقابلة بين العلوم الضرورية وبين العلوم النسبية ، فنسبة الرياضة والطب إلى الصحة الجسمية كنسبة التشريع والقضاء إلى الصحة النفسية ، ويمكن وضع التناسب على الشكل الآتى :

الرياضة والطب	مثل	التشريع والقضاء
الصحة الجسمية		الصحة النفسية

كما أن نسبة الرياضة والطب والتشريع والقضاء إلى الكمال الحقيقي كنسبة العناية بالمظهر وبالأكل والسفسطة والخطابة إلى الكمال الظاهرى ويمكن وضع التناسب على الشكل الآتى :

رياضة-طب-تشريع-قضاء	مثل	عناية بالمظهر-جودة الطبخ-السفسطة-الخطابة
الكمال الحقيقي		الكمال الظاهرى

انتفع أرسطو بهذا التقسيم لأفلاطون ، وبهذه التفرقة بين العلوم الضرورية والعلوم النسبية لجعل من الخطابة (وهى من الكمال الظاهرى) فنا قائماً بنفسه ينزل منزلة بقيمة العلوم (وهى من الكمال الحقيقى) ويمكن بذلك من أن يباعد ما بين منطقة نفوذ الخطابة ، ومنطقة نفوذ الأخلاق ، باعتبار أن الأولى تكتفى بما يشبه الدليل فى حين أن الثانية

لها حقيقة لها دلالتها المستمدة من الحقيقة (١).

هذه المناقشة بين الأدب والأخلاق — الذى لا يزال يتردد صداها إلى اليوم فى رسالة الأدب هل تبقى خلقية أو تتجافى عن الأخلاق رعاية للفن ، تجد جذورها إذن فى تفكير أفلاطون وأرسطو ، فإنه على رغم محاولة أرسطو رعاية الأخلاق فى الأدب فإن محاولته الأخرى لفصل منطقة نفوذ الأدب ليكون مستقلاً بنفسه بعيداً عن نفوذ الأخلاق جعلته يرضى — وربما كان ذلك على الرغم منه — بأن تذهب الفنية بالأدب إلى الناحية التى تقدرها الفنية وحدها ، وهذه الفنية جموح لا تتردد — متى اندفع بها انفعال الفنان — فى أن تهمل كل اعتبار خلقى ؛ ذلك لأن الأدب لا يستند دائماً إلى فكرة من الحقيقة أو من العلم ، ولا تنزل الفكرة الأدبية منزلة الفكرة العلمية فى ضرورة لزومها والبرهنة عليها. ومن هنا كان مجال الأدب غير مجال العلم ، وكانت أدلته غير الأدلة العلمية ، وكان المهم فى إيراد أدلته اقتناع الأديب خطيباً أو شاعراً بما يرى وبما يظن وبما يقع تحت حسه ، وما يتحرك به حدسه ، والإحساس الأدبى نسبى ، والإحساس العلمى حقيقى ، ومن هنا علمية الأخلاق وفنية الأدب ، فالأدب ليس بعلم ، وإن استمد العلم ، والأدب ليس بحقيقة ، وإن استوحى الحقائق ، والأدب ليس بمنطق وإن اعتمد على مثل أدلة المنطق وبراهينه سيافاً وإيراداً. وإذن يظل هذا الجفاء — ولو ظاهراً فى الأقل — بين الخلق والأدب .

(١) المجموعة الأدبية ترجمة كروازيه .

Collection des (Belles - Lettres) ;

Gorgias , Menon , Texte traduit par A. Croiset et L.

Bodin T III Platon .

على أن هذه النظرة الحقيقية للأخلاق وإحاقها بالعلم نظرة قديمة ،
لا يقرها علم الأخلاق الحديث الذي يعتبر الآن الظاهرة الخلقية ظاهرة نسبية ،
وظاهرة موضوعية ، بمعنى أن الفكرة الخلقية التي هي قاعدة السلوك للإنسان
تتطور بتطوره وتكون صلبة في نشأته ، ولكنها ترق وتتساهل مع الإنسان
كلما تقدم درجة أو درجات على سلم المدنية : فالقتل مثلاً ممنوع في كل الأمم
وفي كل الشرائع ، هذه حقيقة خلقية ما في ذلك من شك ، ولكنها ليست حقيقة
مطلقة بل نسبية ، فأحياناً يكون القتل مباحاً إذا كان دفاعاً عن النفس أمام
عدو مهاجم ، وأحياناً يكون واجباً فتقتل من لا تعرف ومن لا يقدم إليك
سواء في الجيش المهاجم للوطن ، أو الذي تتوهم فيه الخطر على الوطن .

والسلوك الخلقى يختلف باختلاف العادات والتقاليد والبيئة فما هو
ممنوع في أمة بحكم تقاليدها قد تجده في أمة أخرى مباحاً ، فاعتبار الحقيقة
الخلقية حقيقة علمية ، أو أنها تنزل منزلة هذه الحقيقة ، اعتبار لا يقره التطور
الحديث في الاجتماع الخلقى ، لأن الأخلاق لا تعتمد على المبادئ فقط بل
تعتمد أيضاً على الطبائع والميول والعادات أكثر مما تعتمد على التحليل ، وهذه
الميول والعادات حائلة متغيرة . وإذا كانت الأخلاق علماً يتقدم قليلاً قليلاً نحو
النسبية ، وإذا كان الفن ومنه الأدب علماً نسبياً في نظر أفلاطون وأرسطو ،
فلا مجافاة إذن بين الخلق والأدب ، فكلاهما نسبي ، لا يعتمد على الحقائق
المطلقة ، بل يستعين بالاحتماليات والظنيات ، وإذن يتمشى الأدب مع الأخلاق
في تطوره وفي تطورها ، وغاية الأمر أن الأدب لا ينبغي أن يفجع السلوك
العام ، ولا أن يهاجمه وبخاصة إذا كان خطابة العمدة فيها على السامعين وهم عنصر
من أهم عناصرها ، فهما كان الفنان ذاتياً فردياً فلا بد له من مراعاة الشعور

العام وإلا حرمت الخطابة أعز عناصرها عليها وهي الجماعة . هذا وإنه من المؤلم حقا أن أناسا موهوبين كالخطباء والشعراء لا يقدرّون نعمة هذه الهبة ويستعملونها فيما من شأنه أن يحل عرى الفضيلة في الفرد أو في الجماعة .

وأرسطو إذا فصل الخطابة عن الخلق فلأنه يريد أن يجعل من الخطابة وساطة حرة لإصلاح الوطن والمواطنين، وإلا فلواعدّ الخطيب بالقوانين المكتوبة ، أو بالقوانين التقليدية دائما ، يثبّتها ويحرص عليها ، ما استطاع أن ينقد ، وما استطاع أن يحمل على جديد ، وما استطاع أن يتكلم في علاقة بين الحاكمين والمحكومين ، وإذن تتعطل في الخطيب هذه المواهب التي تستطيع وحدها أن تقود الجماهير والمواطنين إلى خيرهم وخير الوطن .

إن ما يريد أرسطو من الفصل هو في الحقيقة فصل بين مناطق النفوذ لكل من الخلق والأدب بحيث لا تؤثر حقيقة الأخلاق على الفنية المؤسس عليها الشعر والخطابة ، فيضيق الشاعر أمام معالم الأخلاق ، وأمام ما فيها من الحقائق ، ويمتنع ذلك من أن يساير إلهامه وأن يجري مع طبيعته . لذلك يقرر أن الخطابة لا بد أن تعرف الرذيلة ، وأن الخطيب لا بد أن يعرفها ، وإلا عجزت الخطابة وعجز الخطيب عن محاربتها ، فاذا تعرض الأدب للرذيلة فلسي يحاربها وكل ما ينبغي أن يُمنع أن يتوجه الأدب مباشرة إلى الرذيلة ليقررها . *Choses morales* الأخلاق *Choses immorales* بنية واضحة ، ومعالم الرذائل بنية واضحة ؛ وإنه وإن كان مجال الخطابة مزدوجا يجري في طريقتين متضادين ومتباعدين (الاتهام والبراءة والظالم والمظلوم والحق والباطل) يشرق بأحد المتخاصمين ويغرب بالآخر ، ويمضي بأحدهما صعدا وينحدر بالآخر نزلا ، فإن الخطابة مع

طبيعتها هذه لا تهدف إلى اللاخلقية وإنما تهدف إلى مسائل قد لا تتصف برفيلة أو فضيلة ، أى إلى مسائل لا يمكن أن يحكم عليها أنها مع الخلق ، أو أنها ضد الخلق « Amoralisme » . وهى بعد ذلك تهدف إلى مسائل عادية يستطيع الخطيب وحده أن يدل على قبولها ، ويستطيع أيضاً أن يدل على رفضها بما أوتى من موهبة وقدرة ، أى أن مسائل الخطابة محايدة وحيدتها مؤقتة حتى يقرر الخطيب فيها أمراً .^(١) وبعد ما قارب أرسطو بعد هذا التحليل أن يلحق بأفكار السوفسطائية عاد يحاول من طريق آخر أن يثبت خطأ اتصال الخطابة بالحقيقة . وأن تكون الخطابة أسيرة لها . فما دامت الخطابة نافعة للمجتمع ، ومادام الدور الذى تقوم به نافعاً للوطنين فلا ينبغي أن تقتصر على الحقيقة ، وبخاصة هذه الحقيقة العلمية الثابتة ، فإن مجال هذه العلم والمعرفة . على أننا كثيراً ما نجا فيها فى العلوم ونلجأ إلى الحقيقة النفسية والاعتبارية التى لا تستمد الفكرة والحق ، ولكن تستمد المظنونات والم احتملات . فمن هذه المحتملات والمظنونات تتألف الأقيسة الخطابية ، وكثيراً ما تقودنا هذه الأقيسة إلى الحق Le vrai فى ذاته ، وكثيراً ما نجد فيها الوسائل لإشاعة الحق فى الأقل ، وبخاصة فى الأوساط التى لم تسعد بها الثقافة العقلية الخاصة . وهذه الاحتماليات التى رفضها أفلاطون للخطابة فى كتابه الحوارى الذى عالج فيه الجمال والخطابة Le Phédre هى التى اعتمد عليها أرسطو فى تركيز الخطابة على أدلتها الخاصة بها ، حينما كشف أرسطو

(١) لاحظ دوفور Dufour بعد هذا الكلام أن أرسطو خالف فى هذه الحجة آراء أفلاطون بعد أن أضعاف فى إنيانها شطراً كبيراً من حياته ، كما لاحظ أن أرسطو بتقريره هذا قرب جداً من فكرة السوفسطائيين الذين تصدى لرفض أفكارهم .
(أنظر مقدمة ترجمته الفرنسية لكتاب الخطابة .)

عن الأشكال المنطقية Syllogisme لحظ أن هناك نوعين من القياس أحدهما مقدماته علمية، ونتيجته حتمية لازمة، وثانيهما قياس يمكن أن يسمى جدلياً أو خطائياً، وهو أكثر طواعية من الأول، وأشد التصاقاً بالجدل والخطابة، لأن مقدماته ونتيجته احتمالية ظنية لاحتمية، ولا لازمة، وهو الذي سماه « بالقياس المضمر » Enthymème وأساسه الخاصة والعلامة أو المثل.

ولما كانت فكرة الخطابة متغيرة ومتضادة، فسيسمح هذا القياس المضمر بالتفكير في الشيء وضده، أي فيما يكون للشخص، وفيما يكون على الشخص، بقطع النظر عن الخلق وسببه ونتائجه. وهذا التحليل الأخير يرجع أرسطو للجلوس أمام شيخه مرة أخرى ويترك السوفسائطين.

هذه الآراء التي عرضناها والتي ظهرت فيما كتبه سقراط وأفلاطون كان لها تأثيرها في فهم أرسطو للخطابة، وفي أن يجعل منها فنا قائماً بنفسه فقد رأيناها يجارى رأيهما أو رأى أحدهما أحياناً، وأحياناً يجري على ضوئه ما تقدما به مع تحويل وتغيير يضمن له أصالة التفكير. وسنرى بعد عرض حصول كتابه إلى أي مدى تأثر خطوات من سبقه، وإلى أي حد خالفها، واستمع إليه حين يحاول مخالفة من سبقه من الفلاسفة فهو يعاني من أجل هذا مللاً خلقياً، ولكنه يبرر هذا الملل بأن الحقيقة لا تعرف الصداقة.

« إن العلاقات المتوثقة بين الفلاسفة وبخاصة بين الأصدقاء منهم، لا ينبغي أن تؤثر على الحقيقة التي يجب أن تعلو على هذه العلاقات وإن من أقدم واجباتنا ترك الحقيقة تعلو على كل اعتبار،^(١).

(١) كتاب الأخلاق

نظرية أرسطو في الفن الأدبي :

كان الخطباء والبلغاء قبل أرسطو يعرفون كثيرا من العناصر الفنية التي تكلم عنها ، ولكنهم جميعا لم يضعوا هذه العناصر في قواعد عامة يسهل تعلمها . وكانوا في عرضهم فكرة الخطابة على حد تعبير «توروت» Thurot «ك هؤلاء الذين أرادوا أن يعلموا غيرهم صناعة الأحذية ، فبدلا من أن يفصلوا أجزاءها ، كانوا يكتبون بعرض الأحذية أمام المتعلمين .»
وأول من أوقفنا على نظرية أرسطو في الفن هو «ليون هارد سبنجل» Leon Hard Spengel في رسالته «دراسات في أرسطو» التي قدمها إلى جامعة باريس سنة ١٨٢٨ فقد عقب على دراساته بكثير من النصوص الخاصة «بنظرية الفن» Théorie de l'art كما عني «توروت» بتحديد الفروق بين نظرة الفلاسفة ونظرة أرسطو للخطابة .

«إن الخطباء خاطبوا بين الخطابة والفلسفة ، وقلبوا موضوع كل منهما» أما أرسطو فقد عني بتحديد الفروق لكل من موضوعهما ، إن الفلسفة علم ، أما الخطابة فخطبة ومنهج يتبعان صاحبهما . وهدف الخطابة الإقناع ، وقد يكون بالمحتملات المظنونة ، وبالأراء الخاصة ، في حين أن مهمة العلم البرهنة ، أي أن موضوعاته تدور مع الحقائق الواضحة في ذاتها ، ومع مستلزماتها الضرورية . وأرسطو حينما يعدد كل المفترضات الخاصة بكل مفيد عادل مثلا ، يقرر أنه ليس من الضروري أن تعالج هذه المفترضات في الخطابة معالجة علمية دقيقة حسب الطريقة العلمية . وهو نفسه قد حلل العواطف والأخلاق من غير أن يلجأ للعلم أي من غير تحديد لطبيعة النفس ومن غير التجاء إلى الميتافيزيقا التي التجأ إليها أفلاطون .

واذن يكون التدليل الخطابي مشروع كالتدليل العلمي ، (١) .

إن السوفسطائيين وغيرهم من الخطباء يعتبرون الخطابة فناً ، ويعدون الفن الكلامي أرقى أنواع الفنون ، ولكنهم لا يحددون معالم هذا الفن ، بل يحجرون فيه على المزاوله والوتيرة الواحدة ، وهذا «الروتين» غير جدير بأن يطلق عليه اسم الفن . إن الفنية الأدبية ليست تجربة ، لأن التجربة لا تعرف إلا وقائعها الخاصة بها فإذا قيل إن هناك فناً للعارة فليس معنى ذلك أن من قام بتجربة واحدة ، وأقام عمارة واحدة ، أو أن من قام بعدة تجارب ، وأقام عدة عمارات ، يعد فناً ، لأن هذه التجربة أو هذه التجارب المسكورة تعرف ظروفها الخاصة وتدور حولها ، وإنما الفنان المعارى هو صاحب الاستعداد العقلي الموصل إلى الابتكار فالبحث فى الفنية هو بحث فى الابتكار وفى الاستعداد الموصل إليه ، وفى الوسائل التى تتخذ للوصول إلى شىء مبتكر قد يكون موجوداً ، وقد يكون غير موجود ، لأن الفنية موجودة فى نفس مبتكرها ، لا فى طبيعة الأشياء المتحدث عنها . والفنان يستطيع أن يبتكر جمالاً من شىء لاجمال فيه ، وأن يضيف جمالاً على شىء ليس جميلاً فى ذاته ، وليس موضعاً للجمال . فإذا وصفنا شيئاً أو أشياء وصفاً مادياً كما هو ، أو كما هى ، فى الواقع وفى الطبيعة كأن نقول السماء زرقاء ، والشمس حارة أو مضيئة ، فليس هناك فن ، وليس هناك استعداد فى ، لأنه لا ابتكار ، ومن ثم لا فنية . وليست هناك فنية فى الأشياء الموجودة بالضرورة ، ولا فى الأشياء اللازمة لزوماً عقلياً ، لأن مثل هذه الأشياء لها عناصرها فى الطبيعة ، وما زدنا على

(١) دراسات فى أرسطو ص ١٧٦ ، ١٧٩ .

Etudes sur Aristote 176, 179 .

الطبيعة شيئاً . فليس هناك فنية في المسائل الرياضية،^(١) ولا في المسائل العلمية . كمسائل الكيمياء والطبيعة إذا عرضت بطبيعتها مجردة عن الإضافات التي نزيد عليها ، فمثل هذه الأشياء لها من طبيعتها ما يثبت وجودها من غير حاجة إلى الفنية ، وإذا جردت عن الإضافات التي نزيد عليها كان عرضها مجرد المعرفة التي لا ابتكار فيها^(٢) (إذن الفنية وبخاصة الأدبية « استعداد عقلي ، وإضافات على الأشياء الطبيعية تؤدي إلى الابتكار) ومن خصائصها : أولاً : أنها لا تعني بالتعميم في الأشياء . وإنما تعني بالخصائص التي تتعلق بها : ثانياً : أنها لا تعني بالكمثرة التي يوصل إليها الاستيعاب والاستقراء وإنما تعني بالمسائل الفردية والنادرة ، وإذا بحثت أحياناً عن الاستقراء والتعميم فلولو وصول إلى الإنتاج المبتكر .

ولنوضح هذا بمثل من الأدب العربي لتتضح لنا هذه الفنية التي يقررها أرسطو ولنعرض لهذين البيتين من كلام أبي العلاء .

(١) لعل من هذا ما فهمه عبد القاهر الجرجاني من أن الأعداد الرياضية وحدها ليست من الأدب في انشئ ولا تمثل أدباً ما لم تضاف عليها الفنية دلالات أخرى غير دلالتها العددية كما أضفت آيات الخليل الثلاثة على الأعداد فيها صفات القبض والبخل :

كفأك لم تخلقا للندى ولم يك يخلهما بدعة
فكف عن الخير مقبوضة كما تقصت مائة سبعة
وكف ثلاثة آلافها وتسع مئتيها لها منعه

فالأعداد هنا فقدت دلالتها الرياضية واستعملت استعمالاً خاصاً لتدل على البخل وقبض اليد جرياً على عادة العرب في العد على الأصابع ، واعتبار أصابع اليد اليمنى للأحاد والعشرات ، وأصابع اليد اليسرى للمئين والآلاف .

(أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ص ١٣٣ ، هامش (٢) تعليقات رشيد رضا)
(2) L . Etfique à nicomraque V1 4,

هفت الحنيقة ، والنصارى ما اهدت ،

ويهود حارت ، والمجوس مضلله

انسان أهل الأرض ، ذو عقل بلا

دين ، وآخر دين لا عقل له

فهنا استيعاب للبلل والنحل (الإسلام والنصرانية والمجوسية واليهودية) ولكنه غير مقصود لذاته ، بل ليتوصل به إلى الحكم الذي أصدره الشاعر في البيت الثاني ، وهو حكم فيه ابتكار ، لأن فيه إضافة جديدة ليست في طبيعة الأشياء ، وليست بما يقره الناس ويعرفونه ، فليس بلازم لافى الطبيعة ولا فى اللزوم العقلى ، أن يكون ذو العقل مجرداً من الدين ، وليس بلازم أيضاً لا طبيعة ولا عقلا ، أن يكون المتدين مجرداً من العقل ، ولسكنها الفنية التى تصيف إلى الأشياء ما ليس فيها ، والتى لا تستقرى استقراء رياضياً أو علمياً ، وإذا عمدت إلى الاستقراء فلا إصدار حكم مبتكر ورأى مبتكر . ولكن الابتكار الفنى ، له قواعد صحيحة ، ومبادئ أصيلة ، فهو لا يعنى ابتداء بالعرضيات وإن كان يدخلها فى حسابه ويقدرها . والمثل الذى عرض له أرسطو فى كتاب الأخلاق يدل على ذلك ، ارتكاب الظلم رذيلة ، وتحمل الظلم رذيلة ، ولكن الرذيلة الثانية أخف من الرذيلة الأولى ، ومع ذلك فليس هناك ما يمنع من أن يكون تحمل الظلم ، أقسى وأمر من ارتكاب الظلم ، لسبب من الأسباب العارضة . والفن (١) يقرر أن ذات الرئة أو السل مرض أقسى من التواء عرق فى

(١) أرسطو يستعمل كثيرا كلمة الفن Art بمعنى العلم Science فمنده أن الطب فن وكثيرا ما يعبر عنه بهذا التعبير .

القدم ، ولكن قد يجوز أن يكون هذا الالتواء أقسى من السل ، إذا وقع الجندي بسببه في المعركة فنال منه عدوه. ^(١) وما يريد أرسطو في هذا المثال والذي قبله أن العلم وإن كان لا يعنى بالمسائل العرضية فالفن (ومنه الأدب) يعنى كثيرا بهذه العرضيات .

فالمسائل العرضية والدوافع العاطفية لها تقديرها في الأدب وفي فنيته ، فالموت أقسى من الكلمة الجارحة ماديا ، ولكننا تحت تأثير عارض من الأعراض العاطفية ، يمكن أن نعتبر أن الكلمة الجارحة أشد وقعا في نفس الحر من نزول الموت ، وللأديب أن يقول إذن « الموت عندي أهون من هذه الكلمة ، كما قال الأول :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند
إن أرسطو لم يتعرض لهذا الاعتبار النفسى كثيرا عند كلامه على العوارض والظروف الطارئة (كالتواء القدم الذى يؤدى إلى الموت لأنه كان سببا في نيل العدو من الملتوية قدمه) إنما عرض للعوارض المادية المقررة في الطب مثل السل والتواء العرق فهو يعارض أن يؤثر العارض المادى الخارجى في الحكم العلى : فتقول إن التواء العرق أشد أثرا من السل ! أما العوارض العاطفية التى تقلب الأمور ، وتغير من الحكم عليها ، فما نظنها تجافى الفنية ، وما نحسب أرسطو يقرر هذه المجافاة . وهو إذا ألح على أن العوارض لا يلتفت إليها في تغيير الأحكام المقررة في العلوم فذلك ليمنع الخطباء في المسائل القضائية من أن يكون دفاعهم منصبا على العوارض تاركين

(1) Ethique à Nocomaque v, 15 .

الذاتيات أو مؤثرين عليها العوارض ، ذلك مظنة تضليل ، نصب أرسطو نفسه لإنكاره على السوفسطائيين .

ولنرجع بعد ذلك إلى الابتكار وصلته بالفنية الأدبية :

يقرر أرسطو أن هذا الابتكار إضافي ، لمح المحاديب في ذاتية من الذاتيات ، أو في عرضية من العرضيات ، فألح عليه وأبرزه ، فهو من عمل الشعاعرية ، إن لم يكن هو الشعاعرية نفسها ، ولا يقدر في شعاعرية الابتكار أن يكون مصدر الابتكار نفسه فكريا أو عقليا ، فالذي يقرب الفكرة فيجعل البخيل كريما إذا مدح ، والسكران بخيلا إذا هجأ ، مبتكر أضاف جديدا إلى الفكرة ، أو فهم في الفكرة غير ما يفهمه الناس . والذي يقرب الحكم العقلي إلى حكم عاطفي ، هو مبتكر ، لأنه أضاف على الحكم المقرر شيئا جديدا لم يتنبه له سائر الناس . وإذا كان الإنتاج الفني شاعريا أو متصفا بالشاعرية فلا يمكن إذن أن يكون هذا الإنتاج متصفا بأنه عملي أو تجريبي pratique لأنه عمل فني مستقل ، لعلقة له بسلوك الناس ولا بمواضعاتهم ، ولا يمكن أن يحكم عليه أيضا بأنه عمل خلقي Acte morale أو عمل مضاد للأخلاق Acte immorale لأنه عمل شاعري مبتكر . فليست الفنية الأدبية (الخطائية) من الحكمة العملية التي تجربها الحياة ، لأن تجربتها من الأدب نفسه لا من الواقع (١) . وليست الفنية بعد ذلك علما ، لأن مهمة العلم الأصلية البحث عن الأصل والمنشأ ، ولأن المعرفة العلمية غاية في حد ذاتها ، وإذا احتاجت الفنية إلى العلمية فلا تحتاج إليها لذاتها ، بل لأنها توصل إلى الابتكار ، ومن هنا تحتاج

(١) ويتبع ذلك أن الحرص والاهتمام في السلوك العملي في الحياة اعتبار نسي قدره الرجال بالقسبة للأشياء التي حكموا بصلاحياتها لهم .

الفنية الأدبية إلى مواهب واستعدادات فوق احتياجها إلى العلوم .
فالفنية هي القدرة على الخلق والابتكار ، أو هي المبادئ التي تقود
مواهبنا حسب منهاج خاص نحو الخلق والابتكار ، ومن هنا أيضا كان
للفن قواعد كما أن للعلم قواعد . ويظل الفرق بين القاعدتين ثابتا ، وهو أن
القاعدة العلمية تقود وتلتزم حتى توصل إلى المعرفة ، أما القاعدة الفنية فإنها
ترشد ولا تلتزم ، وتقود إلى الابتكار الذي هو غاية الفن ، لا إلى المعرفة التي
هي غاية العلم .

وإذا كانت المقدرة الفنية هي القدرة على الخلق والابتكار ، فلا ينبغي
أن نخلطها بالطبيعة ، لأن مصدر الطبيعة منها وفيها ، ولن تستطيع أن تفرق
بين الطبيعة وبين مصدرها ، في حين أن الموهبة الفنية خارجة عن الطبيعة ،
لأنها من ناحية تستطيع أن تحاكي الطبيعة وتعمل عملها ، ولأنها من ناحية
أخرى تستطيع أن تكمل من الطبيعة ما نقصها ، أو أن تضيف إليها ما يصل
بها إلا الإحسان الفني الذي وقفت دونه . فمن الناحية المادية الفيزيائية
يستطيع المهندس الفنان أن يحمل الطبيعة فيغرس الأشجار على سفح الجبل
ويدرج مطالعه تدريجا يزيد في عظمته وروائه ، ومن الناحية الأدبية
يستطيع الأديب أن يبرز ما ليس بجميل في الطبيعة في مظهر رائع أخاذ
إذا مدح وإذا هجا ، وأن يكمل ما أنقصته الطبيعة من صفات الممدوح ،
وأن يزيد على ما وقفت عنده الطبيعة من الصفات ، وأن يبدل من طبيعة
الممدوح فيرى حسنا ما ليس بالحسن ، ويرى هجاء في غير موضع هجاء ،
ما دام الابتكار من عناصر الفنية ، أو هو عنصرها الوحيد . (١)

(١) هذه الناحية حلها أرسطو بسعة في كتاب الشعر، الفصل الأول ، من الفقرة الأولى
إلى الرابعة عشرة .

بهذا كله ترتفع الفنية الأدبية إلى درجة العلمية ، ففيها كما في العلمية جزء .
يدرس لا بالمنفعة ولا للفائدة العملية . إن في العلم مسائل يفرضها التقسيم
المنطقي ولا وجود لها في الواقع ، وفيه مسائل من المضاربات العقلية التي
تتصور اليوم ، ويستحيل غدا تصورهما ، وتدرك مرة بشكل خاص ، ثم تدرك
بشكل آخر ، وربما أنكرت جملة ، كذلك الفن لا يهتم بالمنفعة ولا بالموضوع
فذايته تجعله فرديا ، وإبتكاراته مقدرة دائما ، ولا يهم أن تصدقها وقائع
الحياة أو تكذبها ، والفن الأدبي يتصل بالطبيعة كبقية الفنون ، مرة
يصنفها كما هي ، ومرة يكملها ، وأخرى ينزل بها في ميدان سياق واحد ،
ومع ذلك فالفن والطبيعة متساندان دائما في إبراز المجهود الإنساني ،
والانتحاء به نحو اتجاهات جديدة مبتكرة (١) .

كتاب الخطابة في الزمن :

متى كتب أرسطو كتاب الخطابة ؟ سؤال كان يتردد في الزمن القديم ،
وما زال يتردد حتى الآن : دوفور Dufour يرجح أن الكتاب كتب
ما بين ٣٢٩ و ٣٢٣ ق م ، وفي ثلاثة القرون التي تلت موت أرسطو كان
كتاب الخطابة يطوف أمهات المدن اليونانية والرومانية ، وينتقل بين أيدي
العلماء ، ومن قرأه شيسرون Cicéron الخطيب الروماني ، وقد عني بذكر
قراءته في كتابه (الخطيب) Oratore ، ولكن أثره قليل في كتاب شيسرون
مما دعا ثوروت Thurot إلى أن يقول « ليس بغريب أن رجلا تشغله
الأعمال السياسية العامة والخاصة ، مثل شيسرون لا يجد لديه من الفراغ

(١) دوفور مقدمة ترجمة أرسطو ص ٣١ .

ما يمكنه من قراءة كتاب يستعصى على الفلاسفة ، ولكنه وجد أن من المخجل أن يقول إنه لم يقرأه ، (١) .

وكان كونتيليان Quintilien أوفر نصيبا من سابقه في الانسحاب على كتاب (الخطابة) ، فظهرت آثار أرسطو في كتابه ، النظام الخطابي ، L'Institution oratoire ثم ترك الكتاب فلم يعرف في أوروبا إلا في أول القرن الحادى عشر الموافق للقرن الخامس الهجرى فى المخطوط المحفوظ إلى الآن فى المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٧٤١ . وأهم المخطوطات اليونانية لكتاب الخطابة هى : مخطوط اكسفورد ومخطوط نابلى المحفوظ فى مكتبة سان جان دى كربونارا Saint jean de Carbonara ومخطوط فلورنس عند آباء القديسة سانت ماريا Sainte Marie وأهم النسخ اللاتينية النسخة التى تحتويها المجموعة المعروفة بمجموعة آلدمانوس Rhetores Gracci d' Alde mannuce (٢) .

وفى القرن السادس عشر ظهرت طبعة فرنكفورت ، وظهرت طبعة بوهل Buhle ، وعن هذه الطبعة أخذ هذا التقسيم إلى فقرات صغيرة لضمان الفكرة وصحتها . وآخر طبعة باللغة اللاتينية كانت طبعة كمبريدج ١٨٧٧ وكان برتلى سانت هيلير Barthélemy - Saint Hilaire من تكفل بكتيب أرسطو كلها تقريرا ترجمها إلى اللغة الفرنسية وترجم كتاب (الخطابة ، ١٨٧٠ وترجمته تنماز عن التراجم التى ظهرت قبلها بالسهولة والوضوح وإن

(١) تيول ، دراسات فى أرسطو .

Thurol , Etudes sur Aristote , appendice p. 18 .

(2) T , I 1508 fol . 161 - 234

انتقده الكثيرون في سهولته التي لم يصل بها إلى ما يريد إلا على حساب المعنى ، لكثرة التصرف في الترجمة .

ومن التراجع إلى الفرنسية التي ظهرت قبل سانت هليير ، ترجمة ادوين التي ظهرت في أوائل القرن السابع عشر ١٦٠٨ (١) في ثلاثة أجزاء ، ومن أهمها أيضا ترجمة كاساندر Cassandre في سنة ١٦٧٥ ، فقد عني بعمل فهرست للكلمات والعبارات الاصطلاحية ، وأبرز الأفكار الجديدة في الكتاب ، وهذب من عباراته إما بالزيادة وإما بالنقص مما عوق فهمه قليلا ، ولسكن القرن الثامن عشر اعتمد على هذه الترجمة .

وفي القرن التاسع عشر ظهرت قبل ترجمة سانت هليير عدة تراجم ، أشهرها ترجمة جروس Gros الذي كان يقابل فيها الصفحة اليونانية بما يقابلها من الفرنسية مع تعليقات ونصوص مما كتبه سيشرتون وكونتليان تتفق ونصوص أرسطو . ثم ترجمة روسينول Rossignol في جريدة العلماء Journal des savants في أعداد أكتوبر ١٨٤٠ ، وسبتمبر ١٨٤٢ .

وفي فبراير سنة ١٨٤٣ ، وفي سنة ١٨٥٦ ترجم بونا فوس Morbert Bonafous كتاب الخطابة مع تعليقات كثيرة إلى اللغة الفرنسية ، وكانت ترجمة دقيقة ، ردت كل ما أمامها من الترجمات إلى الوراء . وفي سنة ١٨٨٣ ظهرت ترجمة رويل Ruelle ، بعد أن استعرض كل الترجمات المختلفة من لاتينية وغيرها ، وساعده على الإلمام بها أنه كان وراقا وكان يعمل في المكتبات الفرنسية فأتاح له عمله فرصة ثمينة لترجمة كتاب الخطابة إلى اللغة الفرنسية ، وهي الترجمة التي اعتمدنا عليها ابتداء .

(1) J. Edwin Sandays .

مع كل هذه التراجم المختلفة وقفنا أمام ترجمتين :

إحداهما ترجمة « أميل رويل » Ch. Emile Ruelle أمين مكتبة سان جينيفيف Saint - Genevieve طبعة باريس ١٨٨٣ الذي ترجم كتاب الخطابة وكتاب الشعر ضمن المجموعة المسماة « عيون الأدب اليوناني » .
Chef - d' œuvre de la littérature greque

فقد حافظ فيها على تقسيم الكتاب إلى فقرات ، كما حافظ على تقسيم فصوله وأبوابه ، ونقل إلينا في هذه الترجمة أفكار أرسطو كما هي دون تصرف ، ودون تعليق كبير ، وساعده على التزام الدقة التي عرف بها أرسطو أمران الأول وظيفته وعمله في المسالك المختلفة ، وإطلاعه على الأصول اليونانية والتراجم الأولى اللاتينية التي لم تباعد بينها وبين الأصل . والامر الثاني — وهو عام في كل التراجم الفرنسية — عبقرية اللغة الفرنسية المنقول إليها الكتاب ، فهي عبقرية تتسع لأدق الأفكار في أوجز العبارات وأنقها .

وثانيتها ترجمة حديثة ظهرت سنة ١٩٣٢ وتعرضت لكتاب الخطابة

دون كتاب الشعر قام بها الأستاذ مدريك دوفور Médéric Dufour الأستاذ بكلية الآداب بجامعة ليل نقل الكتاب الأول من الكتب الثلاثة للخطابة واعتمد في النقل على النص اليوناني ، فجعل الترجمة في صفحة بالفرنسية تقابلها صفحة أخرى باليونانية ، وتمتاز هذه الترجمة بأمرين الأول الدقة التي التزمها في المقابلة بين النصين الفرنسي واليوناني ، والثاني اللغة المطاوعة الحديثة التي نقل إليها كتاب الخطابة ، فقد حرص على أن تكون مفهومة مستساعة . ويمكن إذا سمينا ترجمة رويل ترجمة حرفية أو شبيهة بالحرفية أن

تسمى ترجمة دوفور ترجمة أدبية ، أو شبيهة بالأدبية ، لطراوة عبارتها وسهولتها ، غير أننا لم نعتمد على هذه الترجمة ، كما اعتمدنا على الأولى : فقد حرصنا على المعنى أكثر من حرصنا على العبارة والأسلوب ، فما ننقل أدباً ، ولا رواية أدبية نقصد فيها إلى تسلية القارئ وإغرائه ، وإنما ننقل أفكاراً ، وأفكاراً صعبة ، جمالها في صعوبتها ، وقوتها في دوران الجمل والعبارات بالطريقة التي أرادها المؤلف الأول . كانت الترجمات أمامنا ونقرأهما معاً ونقابل بين عبارتيهما وأسلوبهما فإذا اختلفت إحداهما عن الأخرى نبهنا على هذا الاختلاف .

وكنا بين هاتين الترجمتين أمام عاطفتين الأولى عاطفة احترام يكاد يكون دينياً لعبارات المعلم الأول ، وللأسلوب الذي لُفّت فيه هذه العبارات ، وعاطفة ثانية تخضعنا خضوعاً مطلقاً لما يتطلبه القارئ العربي هذه الترجمة ، وما يتطلب إلا الفهم وإلا الوضوح .

سيقول كثير من الناس إن الكتاب قد شرح قديماً ، وتدخّل في الفكر العربي على يد ابن سينا ، وابن رشد ، فما الداعي إلى الترجمة الآن ؟! وردنا على مثل هذا الاعتراض أنه لا يضير الفكر العربي ، ولا اللغة العربية المنقول إليها مثل فسر ولغة أرسطو أن يكون لها عدة تراجم — بفرض أن ما قام به الفيلسوفان العربيان يسمى ترجمة — فقد رأينا كيف شغل العلماء بكتاب الخطابة منذ القرن الثاني عشر إلى اليوم في لغاتهم المختلفة . هذا إلى أن ما نقل إلينا عن طريق ابن سينا من كتاب الخطابة يكاد يكون غير مفهوم في كثير من نواحيه ، وغير مفهوم حقاً في كثير من موضوعاته ، لأنه لم يقصد إلى الكتاب في ذاته ينقل أفكاره من حيث هي أفكار خطابية أو جدلية

أو منطقية ، ولكن يخيّل إلينا أن ابن سينا انتهر فرصة أن المؤلف حاول أن يفرق بين الخطابة والجدل من ناحية ، وبين الخطابة والمنطق من ناحية أخرى ، ووجد أن التفرقة من الدقة والخفاء بحيث لا يمكن التفريق بين العلوم الثلاثة تفريقاً عملياً ، فعمد إلى إدماجها ، بل وإلى خلطها ، فإذا قصدت إلى الأفكار التي أرادها أرسطو وأودعها كتاب الخطابة لم تجدّها . هذا إلى الروح التي فهمها العرب من الجدل ومن الخطابة بمعناها الجدلي ، هذه الروح أغرتهم بأن يطبقوها على الجدل الديني والمذهبي مما جعلهم يهملون الأمثلة الأدبية التي أودعها أرسطو في كتابه ليضعوا مكانها أمثلة دينية لاتصل إلا بسببهم ، وبوجهة نظرهم في الموضوع ، دعا إلى هذا رغبتهم في التوفيق بين العلم والفلسفة ، ودعاهم إلى مجاوزة الأدب اليوناني إلى غيره جهلهم بأساليبه ومواطنه . وتظهر هذه النزعة جلية في ابن رشد وإن كان مختصره أسهل فهماً من شرح ابن سينا .

واعتبار آخر يدفعنا إلى الترجمة ، وإلى ترجمة حديثة بلغة سهلة التناول ، قريبة الإدراك ، ذلك أن كتاب أرسطو في الخطابة لا يزال حياً في أفكاره ، وحيّاً في تطبيق هذه الأفكار ، بشرط أن يعرض في معرض حديث ، وبعبارة حديثة ، فأنت إذا قرأت كتاب ابن سينا في الجزء المخصص للخطابة أو إذا قرأت مختصر ابن رشد باعدت عباراته بينك وبين الفهم ، وباعدت بينك وبين تطبيق ما فيه من الأفكار النفسية والقانونية والأخلاقية ، وهي كما قدمنا أفكار لا تزال تجد أماكها في الحياة العلمية الحديثة ، وفي الحياة العملية . ولا شك في أن لغتنا الآن بما أثرت به من العبارات العلمية والاجتماعية ، أكثر طواعية من اللغة الفلسفية القديمة التي يعرفها ابن سينا وابن رشد

ويخيل للقارئ في التراجم القديمة أنها تراجم حرفية لم تتغلب على الصعوبة الطبيعية الآتية من الفرق الواسع بين مزاج اللغة اليونانية ومزاج اللغة العربية ، وكل ما تمكنت منه التراجم القديمة ، أنها نقلت الصعوبة من موضعها إلى موضع آخر ، ونقلتها من زمنها إلى زمن آخر شأنها شأن تراجم اليونان الذين عاشوا في كنف الدولة الرومانية ، فهم لقلة حذقهم اللغة اللاتينية المنقول إليها العلوم اليونانية ، زادوا في صعوبتها بالنقل ، وحتى كتبهم التي كتبوها باللغة اليونانية لغتهم الأصلية كانت أصعب مما كتب باليونانية قبل الغزو اللاتيني ، لتبليبل الأساليب بين اليونانية المستحدثة واليونانية القديمة وبينهما وبين اللاتينية . إن الصعوبة التي عاناها العرب من الفروق الطبيعية بين العربية المنقول إليها وبين اليونانية - إن نقلوا عنها - وبين اللغة السريانية الوسيطة بين اللغتين ، هي التي منعتهم من العرض السهل والإيراد الواضح للأفكار ، وسترت الحقائق الفلسفية في عبارات اصطلاحية غامضة لهذا كله آثرنا أن ننقل الكتاب من جديد إلى لغتنا العربية الحديثة لينتفع به دارسو البلاغة العربية ، وبخاصة هذا النفر منهم الذي لم يتصل بالفكر الأوروبي اتصالاً مباشراً ، وفي هذا انفر كل الخير ، فهو عميق الفهم ، بعيد غور الإدراك ، فإذا وقف على المعين الأول للفكر العربي الذي يعرفه كل المعرفه ، عرف مسالك ثقافته وعرف مجهود العرب ، لافي تفكيرهم الأصل بل في كيف حاولوا أن يردوا إلى تفكيرهم تفكير غيرهم ، وأن ينتفعوا به انتفاعاً لا يسعنا معه إلا الإعجاب بهم وبمجهودهم .

أرسطو في البلاغة العربية :

أول من نبه في العصر الحديث إلى العلاقة بين البيان العربي « والبيان

اليوناني، هو الأديب العالم الدكتور « طه حسين » في بحث له ممتع قدمه
للمؤتمر الثاني عشر لجامعة المستشرقين الذي عقد في سبتمبر سنة ١٩٣١ في
مدينة « لندن » بعنوان « البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر » (١)

قدم الدكتور هذا البحث إلى هذا المؤتمر باللغة الفرنسية . وقدمه إلينا
زميلنا المؤرخ المحقق الأستاذ « عبد الحميد العبادي بك » باللغة العربية في
ترجمة رصينة امتزج فيها سمو أفكار المؤلف بروعة عبارات المترجم ، فجاء
البحث قيماً في أوله وآخره . ولأهمية هذا البحث نجمله في النقاط الآتية :

١ - الإنكار على الجاحظ الذي ينكر أن يكون لليونان بلاغة ،
والتوكيد بأنه لا يعرف شيئاً عن كتاب « الخطابة » لأرسطو . ثم العجب
من تناقض الجاحظ حينما يثبت للعرب وحدهم كل الشأن في البلاغة ، وحينما
يشرك معهم غيرهم من الفرس والهند والروم . وقد قرر صاحب البحث
أن القارئ لسكتاب « البيان والتبيين » يرجع بنتائج ثلاث هي الآتية :

١ - إن العرب كان عندهم نقد دونوه في نهاية العصر الجاهلي ، وأن
هذا النقد كان سليماً مبنياً على الذوق أولاً ثم انتهى بهم إلى كشف بعض
العيوب ، وإلى استخلاص بعض نصائح قدموها للسكتاب وللشعراء .

ب - تكوين الجماعات العلمية في الحاضر تين « البصرة » و « السكوفة » ،
وقد اجتمع في مدارسهما أخلاط من الناس منهم العربي والفارسي ، وكلهم
ذوو ثقافة أو طلابها ، وقد لوحظ في هذه المجتمعات قوة المعارضة الخطابية
وضعفها ، وسلامة النطق وعيبه ، واجتمعت للعرب من كل هذه الملاحظات
قواعد دونها « الجاحظ » ، في فضائل وعيوب الخطباء .

(1) La Rhétorique Arabe de Djahiz à Abd el kāher .

ح - ظهرت من القرن الثاني للهجرة طبقة من الكتّاب يعملون للخلفاء ويعملون في الدواوين ، ومعظمهم من الفرس والسرّيان والقبط ، أو من تأدّبوا بأدبهم ، وهؤلاء وضعوا معالم يسير عليها الكتّاب ويسير عليها الشادون في الكتابة .

فالبيان العربي نسيج جمّعت خيوطه من البلاغة العربية في المادة واللغة ، ومن البلاغة الفارسية في الصورة والهيئة ، ومن البلاغة اليونانية في وجوب الملازمة بين أجزاء العبارة .

ويستنتج من هذا أيضا أن البيان العربي إلى منتصف القرن الثالث لا يمكن أن يكون عربيا صرفا ، أو أعجميا محضا ، فهو « بيان غير تام التكوين » وهي جهود صادقة مفيدة ترمي إلى احتذاء هذا البيان ووضع قواعده وتلقيها الطلاب المبتدئين . وأبوابه لا تعدو الكلام على « صحة الحروف ومخارجها ، والكلام على « الخطيب وموقفه وإشاراته ، والكلام على « سلامة اللفظ والعلاقة بين الألفاظ ، والكلام على « العلاقة بين اللفظ والمعنى » .

٢ - ظهر الجدل وظهرت المعتزلة ، وهم أهل لدن وخصومة فاتصلوا بالمنطق وبالجدل ومن ثم اتصلوا بالخطابة . غير أنا لا نستطيع أن نحكم على مقدار اتصالهم « بالأدب اليوناني » . وكل ما نعتقد أنه « تصوروا صناعة الكلام كما كان يتصورها اليونان من بعض الوجوه . غير أن تأثير « الهيلينية » (اليونانية) كان واضحا في نتاج الشعراء ونتاج الكتّاب الذين ينتمون إلى أصل أجنبي كأبي تمام وعبد الحميد وأحمد بن يوسف وغيرهم من كتّاب المأمون .

هذا ورد الفعل الذى ظهر فى آيات البحرى :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغنى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق ما نوعه وما سببه
والشعر لمح تكفى إشارته وليس بالهذر طوّلت خطبه
يدل على تدخل المنطق ، أو تدخل طريقته فى الأدب إنتاجاً وأداء .
إن كتاب « الخطابة » كان معروفاً فى القرن الثالث الهجرى ، ترجمه
« حنين بن اسحق » ، وسواء أكانت ترجمته بعد وفاة الجاحظ أم قبلها ،
فما لا شك فيه أن الاستفادة من طريقة عرض أرسطو للخطابة وللشعر
كانت واضحة ؛ وكتاب « البديع » لابن المعتز ، وما كتبه « قدامة » ، وهو
من معاصريه ، يدلان على تأثرهما لأول الكتاب الثالث من كتاب « الخطابة »
الذى يبحث فى « العبارة » . وهذه العبارة الشائعة فى كتب البيانين « كرزيد
أسدا ، تكاد تكون بنصها عبارة أرسطو متحدثاً عن « أخيل » حينما
يقول « كرز أسدا ، أو « كرز كالأسد » للفرقة بين المجاز والتشبيه (١) .

(١) نؤثر هنا أن ننقل الفقرة برمتها من كتاب أرسطو حسب ترجمة « روبل » لأهمية
هذه الفقرة التى التفت إليها للمرة الأولى العالم الكبير الدكتور طه حسين :

L' image est aussi une métaphore , car , il ya peu de
différence entre elles .

أقضي ، لورسque (Homère) dit en parlant d' Achille :

il s' élance comme un lion , il ya image ;

lorsqu' il a dit : « Celion s' élance » il ya métaphore .

L'homme et l' animale étaut tous deux pleins de courage,
il nomme par métaphore, Achille un lion » .

Ruelle , Poétique et Rhétorique , livre III chapitre IV,
parag . I =

ولم يكن في طوق البيان العربي المحافظ أن يثبت لهجوم العقل اليوناني
غير أن العرب ومن لقف ثقافتهم من غير العرب هضموه وقرروه تقريراً
ينطبق على آدابهم حتى نسيت الصلة في القرن السادس بين بيانهم وبين
البيان اليوناني .

٣ - فلاسفة المسلمين لم يهتموا بكتاب «الخطابة» ولم يحاولوا تطبيقه
لاختلاف نظام القضاء عند المسلمين عنه عند اليونان . كذلك ترجم كتاب
«الشعر» في القرن الرابع الهجري فلم يفهمه أحد على الإطلاق ، ولكنهم
حاولوا تطبيق بعض القواعد التي فهموها «في العبارة» ولم يفرقوا بين
القواعد الخاصة بالشعر وبين القواعد الخاصة بالنثر .
كُتب بعد ذلك كتاب «نقد الشعر» المنسوب لقدامة وقد تأثر
أرسطو فيه تأثراً ظاهراً في كتابيه «الشعر» و«تحليل القياس» .

يتعرض بعد ذلك صاحب البحث لتحليل «ابن سينا» لكتابه «الخطابة»
و«الشعر» ويقرر أن ابن سينا فهم كتاب «الخطابة» فهما لا بأس به
ولكنه لم يجد فهم كتاب «الشعر» وإن كان قد فهم نظرية «المحاكاة» كما
يتعرض كاتبنا الكبير لابن رشد ويرى أن الفيلسوف المشرق (ابن سينا)
كان أدق وأدب في فهم بعض نواحي الأدب اليوناني من فيلسوف قرطبة
(ابن رشد) ويخلص البحث بتقرير أن مجهود «ابن سينا» لم يضع سدى إذ
تلقاه «عبد القاهر الجرجاني» في كتابيه «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز»

== وهذه ترجمة الفقرة «الصورة هي أيضا نوع من المجاز فالفرق بينهما قليل . فإذا
قال هوميروس متجذناً عن أخيل «كر أو هجم كالأسد» كنا بصدد صورة (تصوير
أو تشبيه) وإذا قال «هذا الأسد بكر» كنا بصدد «مجاز» وما دام الإنسان والحيوان
متمتعان بالشجاعة جاز بالمجاز أن يسمى أخيل أسداً» .

فقد ألف عبد القاهر في الكتاب الثاني بين قواعد النحو وبين أفكار
أرسطو في الجملة والأسلوب . يختتم هذا البحث القيم بأن أرسطو كان المعلم
الأول للمسلمين في الفلسفة وهو معلمهم الأول في علم البيان .

هذا هو ملخص البحث الذي لا يسعنا أمامه إلا أن نكرر كلمة
« القيم » عدة مرات ، أثرنا تلخيص آرائه ، وإن كان مكتوباً لأهميته أولاً ،
ولأثارته ثانياً لكثير من النواحي التي كان يجب أن يتوفر عليها الباحثون
منذ ظهوره ، بعد أن تعرض لكثير من الآفاق العلمية الجديدة بالدرس .

وأذكر هنا أنني قرأته للمرة الأولى في « باريس » وأخبرت به صديقنا
المرحوم « كراوس » الذي كان أستاذاً بكلية الآداب بجامعة فؤاد وكان
ناشئاً في الاستشراق ، فرغب إلى أن أقرأه عليه ، فانفردنا به في ناحية هادئة
من نواحي حديقة « لكسمبورغ » ، وقرأناه . وكان يستعيد مراراً في بعض
جملة وعباراته ، إمّا تجديداً للاستمتاع ، وإمّا توثيقاً للفهم . وأخيراً صاح
قائلاً : « هذا بحث جيد ، وهذا بحث جديد » .

ترددت منذ ذلك الحين فكرة ترجمة كتاب أرسطو البلاغي في نفسي
ليكون أمامنا ، وليكون في متناول يد كل باحث في البلاغة العربية ، نقابله
بترائنا ، ونعلم مجهود أوائلنا في تدوين هذه الفنون الكلامية ، وبقيت الفكرة
في حيز الخاطر المخايل حتى أسندت إلى دراسة البلاغة والنقد الأدبي بكلية
« دار العلوم » فسكنت أترجم بعض فصول من كتاب الخطابة ، وبعض
 فقرات من كتاب الشعر استجابة لمقتضيات الدرس والمحاضرة . وأخيراً
 رأيت أن يكون كتاب أرسطو في الخطابة موضوع المحاضرة في الدراسات

العليا في قسم « الماجستير » فرأيت من طلاب هذا القسم إقبالا وتطلعا
عليا ، ومعظمهم يجهلون ما قال أرسطو في بلاغتهم ، ولا يعرفون منه
إلا بعض الفقرات التي يجود بها بعض الباحثين للاستشهاد والمقارنة .
صح العزم إذن على ترجمة الكتاب الذي أقدم منه الجزء الأول الآن
وأتبعه قريبا بالجزءين التاليين .

ولنرجع الآن إلى هذا المقال الباحث الفاحص الذي قدمه لنا « المعلم
الثاني » ، للعصر الحديث مقدما فيه « المعلم الأول » ، أستاذا للعرب في المنطق
والبلاغة . وإنا لنسلم بكل ما جاء به من عرض واستنتاج وتقرير وتعليق ،
ونستأذنه في التعقيب عليه ، وإذا عقبنا فلن نعقب بأكثر من الزيادة فيه ،
إذ لا يزال البحث مثيرا لدراسات متصلة ومحفزاً للدارسين . ومن سمات البحث
العلمي أنه لا يوقفك على جديد فحسب بل يشير في نفسك التطلع إلى جديد ،
ومن سمات العلماء أنهم يثيرون بدراساتهم دراسات ، ويثيرون بكلمة تحتها كلمات .
وإنا بعد ذلك متعرضون للموضوع نفسه بشيء من السعة .

الجاحظ م ٢٥٥ هـ :

الجاحظ هو الذي ابتدأ بالبيان العربي حقاً . وله هذه التسمية . وبها
سمى كتابه « البيان والتبيين » (١) والبيان في رأيه أصيل في العرب أخذوه
من دينهم الذي علمهم القرآن وعلمهم البيان . ومن قرآنهم الذي أنزل
« تبياناً لكل شيء » . وجاءهم هذا البيان أيضاً من طبيعتهم : فهي طبيعة لدد
وخصومة ، « أآلهتنا خير أم هو ؟ ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم

(١) يقرأها هيوارت Huart (التبين) بدل (التبيين) ويرى أن الكلمة الأولى تشير
إلى النقد والتحقيق أكثر من الكلمة الثانية .

خصمون ، إذا غضبوا سلقوا ، بالسنة حداد ، . وإذا رضوا قالوا ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، وإذا تحدثوا أعجبوا ، ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ، وجاءهم هذا البيان أيضاً طبيعة وسليقة ، حينما يمتاحون على رأس بشر . أويحدون بيعير ، والكلام عندهم سهل يسير ، لا يحتاجون مع طبائعهم إلى حفظ أو مداومة ، وليسوا كمن حفظ علم غيره ، واحتذى كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ماعلق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب . (١)

وقد لحظ الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين ، في مقدمة كتاب ، نقد النثر ، أن الجاحظ يبالغ ويحازف ، وأنه إذ ثبت أصالة البلاغة العربية للعرب مدفوع بالعصية العربية للفض من الشعوية . وفي الحق أن الجاحظ مضطرب في هذه الناحية يجري هنا وهناك ، لا يفرغ من التدليل على أصالة البلاغة عند العرب ، حتى يقرر أن العرب أنفسهم عرفوا بلاغة الهند ، وأنهم قرءوا الصحيفة الهندية التي عرفهم بها « بهلة » (٢) ، ثم هو يعترف بعد ذلك للفرس بالخطابة ، « وجملة القول إنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس » (٣) . وبعد هذا الاعتراف الصريح ينتقد الفرس بأن « كل كلامهم ، بل كل كلام لغيرهم من كافة الأعاجم عن طول فكرة ، وعن اجتهد وخلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكير ، ودراسة الكتب ، وحكاية الثاني عن الأول ، وزيادة الثالث في علم الثاني ، حتى

(١) البيان والتبين ص ١٣ ج ٣ .

(٢) البيان ص ٥١ — ج ١ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٢ — ج ٣ .

اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم . وكل شيء للعرب بديهية وارتجال ،
وكأنه إلهام . . . إلى آخر ما قال (١) .

فالجاحظ — كما ترى — يثبت أصالة البلاغة للعرب مرة ، ثم يشبها
لغيرهم أخرى ، ثم يقارن بين العرب وبين غيرهم في الارتجال والتحضير ،
ويرى أن العرب مرتجلون ، أو أكثر ارتجالا من غيرهم ، وأن غيرهم
محضرون للخطب أو أكثر تحضيراً ، وهو — إذ يثبت الارتجال —
يستشهد بشعر يدل على الأعداد والتحضير ! منه هذا الرجز :

لله در عامر إذا نطق في حفل إملأك وفي تلك الحلق
ليس يقوم يعرفون بالشدق من خطب الناس وما في الورق
يلفقون القول تلفيق الخلق من كل نضاح الذفاري بالعرق
إذا رمته الخطباء بالحدق

وهو يستشهد بأبيات يثبت بها قدرة واصل بن عطاء على الارتجال
ولكن الأبيات نفسها تشهد بالتحضير والارتجال !

تكلفوا القول والأقوام قد حفلوا وحبروا خطبا ناهيك من خطب
فقام مرتجلا تغلى بداهته كم رجل القين لما حُف باللهب
وجانب الرأ لم يشعر به أحد قبل التصفح والأغراق في الطلب
فالجاحظ المدفوع بالرد على الشعوية ، يجهد نفسه في محاولات كثيرة ،
ليثبت الأصالة للبلاغة العربية ، وقد رأيناه مضطرباً : مرة يثبت البلاغة
للعرب وحدهم ، ومرة يشبها لهم وللفرس ، وثالثة ينفيها عن غير العرب !!
وهو مع هذا يتحدث عن الارتجال وأثره ، ويثبت أنه للعرب ، ثم

(١) البيان والتبيين ص ١٣ — ج ٣ .

يستشهد بأمثلة تنفي هذا الارتجال عن العرب ! أيكون الجاحظ مضطربا في موضوعه ؟! أيكون الجاحظ متناقضا مع نفسه ؟! ليس الجاحظ بالمضطرب ولا بالمتناقض ، وإنما هو متردد ، وربما كان تردده عن قصد ! ومرد هذا التردد ، عاطفة تندفع به نحو العرب ، لدرجة العصبية بل التعصب ، وهذه العاطفة بعينها جعلته يضغط على غير العرب ، لدرجة الغضب من بلاغتهم ، والتهوين من شأنها . وتجري بهذا التردد هنا وهناك ، معلومات الجاحظ الوسيعة ، التي تطاوعه ، وتساير هواه .

ونرجع بعد ذلك فنسأل : أكان الجاحظ مطالعا على بلاغة اليونان ؟ وهل مسألة الارتجال الخطابي ، التي أثارها كانت عن معرفة بالسوفسطائيين ^(١) ، مضرب المثل في الارتجال الخطابي ؟ سؤالان يعوزهما التحقيق ، ولا يزال الجواب عنهما في حاجة إليه . إنا نعلم أن الذي ترجم كتاب « الخطابة » هر « اسحق بن حنين » في رواية « ابن النديم » التي يقول فيها ما يأتي : « الكلام على « ريطوريقا » ومعناه « الخطابة » يصاب بنقل قديم ، وقيل إن اسحق نقله إلى العربي ، ونقله « ابراهيم بن عبد الله » . فسرره « الفارابي » (أبو نصر) . رأيت بخط « أحمد بن الطيب » هذا الكتاب نحو مائة ورقة بنقل قديم ^(٢) ، وابن النديم بعد أن أورد هذه العبارة ، يشككنا فيها بكلمة « وقيل » ، فهل نقله اسحق حقيقة ؟ إن صح هذا النقل كان بعد الجاحظ ، فإن اسحق مات في نهاية المائة الثالثة ، ٢٩٨ هـ ، في

(١) تحدثنا قبلنا عن هذه الجماعة وعن آرائهم وأثرهم في الخطابة بما فيه الكفاية .

(٢) الفهرست لابن النديم ، ص ٢٥٠ طبعة فلوجل .

رواية « ابن القفطى » ، (١) أو ٢٩٨ - ٢٩٩ ، فى رواية « ابن خلكان » ، (٢) ،
والجاحظ مات فى أول النصف الثانى من المائة الثالثة ٢٥٥ هـ .

وإذا كان المترجم هو « حنين » ، (الآب) لا « اسحق » ، (الابن) ،
رجحنا أيضاً عدم اطلاع الجاحظ على الكتاب لأن « حنيناً » مات فى
٢٦٠ هـ فى رواية « ابن خلكان » ، (٣) ، « وابن القفطى » ، (٤) ، أى بعد وفاة
الجاحظ بخمس سنوات . وأغلب الظن أن الترجمة حصلت بعد وفاة الجاحظ ،
ولكن إذا منعنا ذلك من القول ، بأن الجاحظ أطلع على « كتاب الخطابة » ،
فهل يمنعنا من القول بأن الجاحظ ، علم بالكتاب ، وعلم بأنه وقع فى حديث
الناس ، والجاحظ كان يتلقف الفكرة ، فى أى أفق ظهرت فيه ، وكان
يعرف المترجمين ويهزأ بهم (٥) ، كل ذلك ممكن ، وإلا فكيف اتفق للجاحظ
أن يعرف حياة أرسطو ، وأن يعرف أنه كان فى مجال الخطابة بالذات ،
« بكىء اللسان » ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ،
ومعانيه وخصائصه (٦) .

لقد وقعت هذه العبارة منا موقع الدهشة ، عندما علمنا أن العلماء
المعنيين بكتاب أرسطو فى الخطابة : متى كتبه ؟ وهل كتبه بيده أو أملاه ؟
ينقسمون إلى فريقين فى أمر صاحب الكتاب وقدرته الكلامية ، فريق

(١) ابن القفطى ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٥٧ .

(٢) ابن خلكان ، وفیات الأعيان ص ١١٦ ، ١١٧ من الجزء الأول .

(٣) وفیات ص ٢٩٨ من الجزء الأول . ماكس مايرهوف . بؤرخ وفاته فى ٢٦٤ هـ .

(٤) ابن القفطى ص ١١٧ وما بعدها .

(٥) انظر ملاحظته على المترجمين فى كتاب الحيوان ص ٣٨ - ح ١ طبعة ١٣٢٣ هـ .

(٦) البيان ص ١٢ - ج ٣ طبعة ١٣٣٢ هـ .

يرى أن المعلم الأول كان يدوّن مذكراته ، ويحضر محاضراته قبل إلقائها على تلاميذه . وفريق يرى أنه كان يدرس ما يدرس أولا ثم يدوّن ما درس . ومن الفريق الأول الذى قال بتدوينه ، الدرس قبل الدرس « موالندرف » Moellen Tdoriff ، الذى يرى أن أرسطو ، كان يكتب قبل الدرس كل شيء ، حتى الانتقالات من نقطة إلى أخرى ، وحتى النتائج المستخلصة من المحاضرات (١) . وأن مأسكته فى الخطابة كانت ضعيفة ، وقد أبرز «دوفور» مترجم أرسطو عبارة « موالندرف » فى النص الآتى :

Jl suppose chey Aristote médiocre aptitude oratoire
ومعناها ما قدمناه من أن عارضته الخطابية كانت ضعيفة ، أو هو على حد تعبير الجاحظ ، كان « بكى اللسان ، غير موصوف بالبيان » . والفريق الثانى يستبعد أن يكون أستاذ الجدل والخطابة بهذا العي ، وهو الذى أقام على التدريس والتقرير مدة لا تقل عن تسع عشرة سنة ! ويرجح هذا الفريق أنه كان من عادة أرسطو أن يكتب مذكرات فيما يدرس بعد الدرس ، وأن يودع هذه المذكرات المكتبة ليرجع إليها الطلاب ، ومن هنا يفسر هذا الفريق ما فى عبارات أرسطو ، أو ما فى العبارات التى نقلت إلينا عنه ، من التكرار والثقل فى الأسلوب والجري على وتيرة واحدة (٢) .

فمن أين جاءت للجاحظ هذه الدقائق عن حياة «أرسطو» ، ومن أين جاءه ، أن المعلم الأول كان يعيا بالتعبير ، ولا يعيا بالتفكير ،

(1) Aristoteles und A then 2 Vol.
Berlin weindmann 1893 .

(٢) كتاب الخطابة ترجمة دوفور ص ١٨ ، ١٩ .
Aristote, Rhétorique, Dufour, introduction p.p 18,19.

حتى يسجل عليه العى والبسكاه ١٩

كان أرسطو من غير شك معروفا لدى الجاحظ عن غير طريق الخطابة ، وكان أرسطو معروفا من غير شك لدى الجاحظ ، عن طريق كتاب الخطابة ما دام الكتاب ، قد ترجم بعد موته بقليل ، وإذن يكون قد سمع عنه ، وإذن يكون قد نُقل إليه شيء من اتجاهات هذا الكتاب الجديد ، الذى تتحفظ الجهود لترجمته .

أما مسألة الارتجال التى أثارها « الجاحظ » ، فلا ينبغي أن تمر أيضا فى صمت ، فقد رأيناه يقارن بين العرب وبين غيرهم فى الارتجال ، وقد أثبت لهم ، أو أثبت غلبته على عوارضهم الخطابية ، فهو إذن لابد أن يكون قد سمع عن السوفسطائيين إلا يكن عن طريق الخطابة ، قعن طريق المنطق ، وهو من أوائل « علوم الأوائل » ، التى اشتغل بها العرب ، منذ امتدت أبصارهم إلى التراث القديم . وإنا نعلم أن السوفسطائيين كانوا مرتجلين ، وكانوا أقوياء فى سوق وفى تكوين الأدلة الظنية والاحتمالية ، التى تعتمد عليها الخطابة كما قدمنا ، والآداب اليونانية تقرر أن السوفسطائي المحضر للخطابة ، أو صانع الخطبة Logographe كما كانوا يسمونه لم يكن يجارى إذا حدث أو خطب ، وكانت معرفته الواسعة بالقانون لا يوازىها ، إلا معرفته الواسعة ، بفنون الكلام وأساليبه ، فخطباء القضاء اليوناني كانوا مرتجلين ، وكان المتقاضون أنفسهم مرتجلين فى مجالس القضاء ، ومن أعوزته البديهة والعارضه ، كتب له السوفسطائي خطبته وألزمه حفظها عن ظهر قلب ، حتى يفرغها أمام القضاء (١) .

(١) لاجر تاريخ الأدب اليونانى ص ٣٠٩ .

Histoire de la littérature grecque p. 309.

ويظهر أن الجاحظ الذي عرف المنطق والجدل ، بعد ترجمتهما ، وقبل ترجمة كتاب الخطابة ، خشي أن يغلب ارتجال السوفسطائيين ، على ارتجال العرب ، فدافع عن العرب ، وضغط على غيرهم .

أما غير السوفسطائيين من مشاهير الخطباء السياسيين في القديم فقد كان التحضير الطريقة الغالبة في خطبهم : فكان ديموستين Dimosténe مع قدرته على الارتجال يحضّر معظم خطبه ، وكان شيشرون الروماني Cicéron يحضر الخطبة ويستمع لنفسه قبل إلقائها ^(١) .

والظاهر أن الجاحظ قد عرف كتاب « الخطابة » بعض المعرفة قبل أن تتناوله الترجمة الكاملة ، واستمع إلى من يعرفونه حق المعرفة ، وعرف أيضاً أنه ضمن الكتب التي ستقع عليها العين للترجمة ، فاستمد هذه الأفكار السائرة من « الكتاب » ، أو من يعرفون « الكتاب » ، ولكن قوته في الجدل وسعة معلوماته أضعفتا في ثنايا كتابه « البيان والتبيين » ، ما يمكن أن يؤخذ عليه مما يكون قد عرفه عن الخطابة في القديم .

الجاحظ والمصطلحات البلاغية :

كان الجاحظ فيما يظهر أول من دون كلمة « البديع » . وهذه التسمية ليست له ، بل هي تسمية الرواة ، رواة الأدب ، ويظهر أنها كانت قاصرة في الأصل على الكلام المتضمن « المثل » ، كهذه الآيات التي قالها « الأشهب ابن رميلة » :

وإن الآلى حانت بفالج دماؤهم هم القوم كل القوم يأأم خالد

(١) إجر ، تاريخ الأدب اليوناني ص ٣٢١ ، ٣٢٢

همُ ساعدو الدهر الذى يتقى به وما خير كف لا ينوء بساعد
فالجاحظ يعقب على هذه الآيات ويقول : « قوله همُ ساعدو الدهر
إنما هو مثل ، وهذا الذى تسميه الرواة البديع ^(١) »

ويروى الجاحظ للراعى هذا البيت :

همُ كاهل الدهر الذى يتقى به ومنكبه ، إن كان للدهر منكب
ويقول بعد ذلك « والراعى » كثير البديع فى شعره ، « وبشار ، حسن
البديع ، و « العتاني » يذهب شعره فى البديع ^(٢) »

يرجع الجاحظ بعد ذلك بهذه العبارة إلى ما كان فيه من أصالة البيان
العربى ويقول : « والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل
لغة ، وأربت على كل لسان ^(٣) . »

فالجاحظ يرى أن مصدر « البديع » هو الأدب والأدباء ، وأول من
التفت إليه هم الرواة أصدقاء الأدباء ورواة الأدب ، وأن الذى ساعد على
هذا التصرف فى الأدب وأغرى به ، هو مطاوعة اللغة ، وقبولها للتصوير
وللصور المختلفة ، التى تتداول عليها ، فأن كثيراً من كلماتها متقاربة فى
معناها وحتى المتباعدة فى المعنى لاتعدهم أن تجد الصلة بينها وبين أختها حتى
يسهل التلميح والرمز والإشارة والإيماء ، تلك المحسنات التى تعتمد عليها
اللغة الأدبية .

وإذا كان الجاحظ قد طالع الرواة فى أن ما يسمى بديعاً هو ما تضمن

(١) البيان ص ٢١٢ - ج ٣ طبعة ١٣٣٢ هـ

(٢) البيان ص ٢١٢ - ج ٣

(٣) البيان ص ٢١٢ - ج ٣

المثل أو ما جرى مجراه فإن الآيات التي يوردها استدلالاً واستشهاداً للبديع والتي يستجدها لمكانتها من الأدب تشتمل على نسكت بلاغية أخرى كالتجنيس و الطباق و السجع و الازدواج و التشبيه و الاطناب . فالجاحظ وإن لم يعرض هذه النكت في معارضها الاصطلاحية التي عرضها فيها علماء البلاغة فيما بعد ، إلا أنه عرضها في دلالتها اللغوية ، وهي دلالة قديمة كثيراً ما ذكرها النقد الأدبي ووقف أمامها في نشأته قبل الاشتغال بالبديع ^(١) . وقد التفت الجاحظ إلى مصطلح من هذه المصطلحات أعجب به ، وأكثر من الشواهد عليه ، وأورد الرواة والشعراء الذين كانوا يغمون به ، ويجعلونه مقياساً للكلام المتلاحم الأجزاء ، المتصل المعنى ، المتآلف في المعنى واللفظ . هذا المصطلح هو «القران» ^(٢) الذي لم يُعْن به المتأخرون وأما توهمه . أخذه الجاحظ من النقاد القدامى الذين كانوا يستحسنون « البيت وأخاه » ويعيبون على الشاعر أن يأتي « بالبيت وابن عمه » أو بالبيت « مقروناً بغير جاره » و « مضموماً إلى غير لفقة » ^(٣) وأخذه من الرجاز « رؤية » فقد قال له « نوفل بن سالم » يوماً « يا أبا الحجاف مت متى شئت . ! » قال وكيف ذلك ؟ قال : « رأيت عقبة بن رؤية ينشدر جزأ أعجبتني ! » فقال رؤية : « إنه يقول لو كان لقوله قران ! » فالقران في نظر الجاحظ هو « الكلام الذي لا تتنافر أجزاؤه ولا تتباين ألفاظه » ^(٤) وتلك عبارة تنتظم كثيراً من صنوف البديع .

(١) الجاحظ يتكلم في البيان على المصطلحات الآتية :

- « الإيجاز » ص ١٥٢ - ج ١ . « الحذف » ص ١٤٦ - ج ٢ . « السجع » ص ١٥٦ - ج ١ .
« الازدواج » ص ٥٨ - ج ٢ . « التشبيه » ص ١٧٤ - ج ٢ . « الاطناب » ص ٢٢٩ - ج ٣ .
(٢) جمع قرن بكسر القاف أو جمع قرن بفتحها وكلامه دال على التآلف والازدواج والملاءمة .
(٣) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ص ٣٦ ، طبعة الحلبي . (٤) البيان ص ٣٨ - ج ١ .

وهذا المصطلح وجد في قول « ابن الأعرابي » ، أيضاً يريد به الانسجام والملاءمة ومطابقة اللفظ للمعنى .

وبات يدرس شعر لا قران له قد كان ثقفه حولاً فمازاداً (١)
وتمثيل الجاحظ للقران بهذه الأبيات واستحسنها .

رمتني وستر الله بيني وبينها عشيّة آرام السكتاس رميم
رميم التي قالت لجارات بيتها ضمنت لكم ألا يزال يميم
ألا رب يوم لو رمتني رميها ولكن عهدي بالنضال قديم
يدل على ما يريد بهذا « القران » . ففي الأبيات جناس ومطابقة
ظاهراً . وما نظن أن هذا المصطلح الذي عرفه العرب قبل الجاحظ ،
والذي أعجب به الجاحظ ، واستعمله ، واستشهد له بكثير من الشعر العربي
مأخوذ من باب « العبارة » لأرسطو أو من الملاءمة بين اللفظ في المعنى .
ونختم هذه الكلمة بأن الجاحظ تتبع البديع من الأدباء ومن النقاد ،
وانه وإن كان قد عرف شيئاً عن بلاغة « أرسطو » ، فقد وقف أمامه موقف
المتفرج ، لا موقف المبهور الذي وقفه « قدامة بن جعفر » بعده ، والجاحظ
لقوته في اللغة والأدب ، ولحسن إرادته ، وسلسلة أفكاره ومعانيه ، وكثرة
محفوظه ، من هؤلاء العلماء الذين ينتفعون بغيرهم في عملهم ، ويظهر عملهم
مع هذا في مظهر الجديد المبتدع ، فهو واضح أساس البلاغة العربية
وواضح بعض مصطلحاتها ما في ذلك ريب .

ابن المعتز م ٢٩٦ هـ

بعد نحو عشرين سنة من موت الجاحظ ألف ابن المعتز كتابه

(١) البيان ص ٣٩ - ١٠

« البديع »^(١) وقد قدمنا أن هذه التسمية ليست له وإنما ظهرت أول ما ظهرت على السنة الرواقية وعلى السنة الشعراء كالراعي والعنابي وبشار وغيرهم . وما كان يقصد بالبديع الكلام الذي يشتمل على المثل فحسب ، وإنما كان يقصد به الكلام المشتمل على التشبيه والتجنيس والطباق . وهذه — فيما نرى — الصنوف الأولى التي اتخذها ابن المعتز نقطة ابتداء لتأليفه . ويفهم من مقدمة ابن المعتز أن فكرة الكتاب أصيلة منه وإليه ، وأن دواعيها كانت مهياة : فالشعراء أو المحدثون منهم أحدثوا حدثاً في الأدب ، فزادوا في معانيه لم يطررها الشعراء قبلهم ، واستعملوا ألفاظاً جديدة ، وهوروا في هذه الألفاظ حتى خرجت عن حدودها التي رسمها علماء اللغة فكانت اللغة الأدبية ، وأولى خاصة للغة الأدبية هي الخروج على أوضاع اللغة ، أو عدم التقيد بها في الأقل .

عرف الأدباء في مستهل القرن الثاني للهجرة وبعده نعيماً ورفاهية ، لم يعرفهما من تقدمهم من الشعراء ، وعاشوا في هذه الرفاهية حيناً ، فمن حقها أن تنحكم في تعبيرهم مادامت متحركة في حياتهم . والقارئ لمقدمة ابن المعتز يقف على الدافعين الأساسيين اللذين دفعاه إلى هذا النوع من التأليف : فحب السبق وكشف آفاق جديدة أغرى ابن المعتز بهذا التأليف الفني : « وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد ، فهو قد أراد أن يعمل عملاً يكون به منفرداً ، ومنفرداً فيه ، ويظل به مذكوراً ، لأنه أعمل قلبه في حقل لم يخطئه أحد من قبل ، هذا التخطيط المتوازي المنظم في الأقل .

(١) ومعناه « الطريف » أو الجديد ، وكان يعرف أيضاً « باللاطيف » مقدمة كتاب البديع .

ونحن نعلم من ناحية أخرى رقة «ابن المعتز» في شعره ، ونعرف النعمة والرفاهية اللتين كان يتقلب في أثناءهما وفي عطفيهما ، والبديع من غير شك رفاهية في الأدب ، ودوران في الألفاظ ، ولعب بها ، واستخدام لها على غير وجه واحد ، مما تنفرد به الطبائع الرقيقة ، والحساسية الدقيقة ؛ هذه أشياء عرف بها ابن المعتز ، وكان معاصروه إذا وقفوا منه على لفظ متمدين أو عبارة خالية ، أو أسلوب توحّد فيه ، لا يعدون ذلك غريباً على رجل «يصف ماعون بيته» ، كما كان يتحدثون عنه .

وأمر ثالث ربما كان من الدوافع التي دفعت شاعرنا المتذوق إلى هذا النوع من التأليف في فن الأدب ، فوق ما كان له من عزّة المكانة الفنية ، وفوق رفاهيته التي كانت تدفعه إلى كل معجب رافه من القول ، هو ما شاهده من العراك بين المتقدمين والمتأخرين ، هذا العراك الذي كان البديع من أثره ، أو الذي جاء على أثر البديع ؛ فالأدب العربي يعرف هذا العراك التقليدي الذي عرفته الآداب الأخرى بين المتقدمين والمتأخرين ، وكل أدب حي يقف في مرحلة من مراحل تطوره هذا الموقف المتردد بين الماضي والحاضر ، وكما تقف الأمة الحية في مرحلة من مراحل تطورها السياسي بين المحافظين الذين يلتزمون بالتقاليد ولا يحدون عنها ، وبين المجددين الذين يسايرون الزمن ولا يعبأون بالتقاليد ، تقف الآداب هذا الموقف ؛ والآدب العربي لا يشذ عن هذا التطور لأنه كائن حي ، أو هو نتاج لمجهودات عقلية حية تعيش مع الظروف ، وتلابسها ، وتسايرها ، وتتخلف عنها ، وتوافقها . فمنذ القرن الثاني ابتدأت حركة التجديد في الإنتاج الأدبي ولم يسكت النقاد — وهم المشرعون للأدب والآداب — عن ذلك ، فقد

استحسنوا ما استحسنوا ، ولو كان ابن ساعته ووليد ليلته (أى من عمل
 المتأخرين) وقد أعرضوا عما أعرضوا ، ولو كان أوائل الدعاة إليه هم أوائل
 الشعراء . كان بشار وأبو نواس ومن لف لفهما من دعاة هذه الحركة
 التقدمية ، وموقف أبي نواس من الأدب القديم معروف مشهور لدارسى
 الأدب العربى : فهو الذى لم يعبأ لا بدعد ، ولا بهند ، وهو الذى تغزل
 بالشراب وابتدأ به قصائده وأشاع ذلك بعد أن كان قليلا ، وهو الذى
 كان يجمع فى البيت أو فى الأبيات السكبكية المعقدة من الألفاظ الضخمة ،
 إما نظرفا ، وإما مخرفة بغيره ممن يقيمون على القديم ويعنون به .

فإن المعتز يؤلف فى البديع ليقول لهؤلاء المحدثين : « ليس جديدكم
 بجديد ، و « ليس بديعكم بمخترع ، وإنما نجده عند الأوائل من الشعراء
 وغيرهم ، ونجده أيضاً فى « الكتاب ، وفى « الحديث ، .

وهو يريد بذلك ، زيادة على ما أراد من الرد عليهم ، أن يدل على أصالة
 البلاغة العربية التابعة لأصالة الأدب العربى ، فىما لم يستمد الأدب العربى
 أية أمة أخرى لا فى المسادة ولا فى الموضوع ، كذلك بلاغته لم تستمد
 من بلاغة أمة أخرى — ولو كانت الأمة اليونانية — فى الشكل والأداء
 والتصوير !!

لعل شيئاً من ذلك قد خطر ببال ابن المعتز . أما رده عن المحدثين
 فظاهر كل الظهور من كلامه ، وأما إدلاله بأصالة الأدب العربى واستمداده
 صنوف بلاغته من مادة أدبه ، فما نظن أن هذه الفكرة خطرت بباله ،
 وإلا كانت دليل اتهامه بالثقل من أمة أخرى . وليس فى كتابه ما يدل على
 هذه الفكرة . ولكن مما لا شك فيه أن استدلاله بالشعر القديم

و«بالكتاب» الحديث، وبما اشتملت عليه هذه الأصول الثلاثة من الصنوف
البلاغية، دليل على رده المحدثين، ودحض لحدائهم، وغض من إدلالهم
هذه الحداثة.

وربما كان هناك دافع رابع في نفس «ابن المعتز» كان أيضاً من
المحفزات والدوافع التي أوقفته أمام بديع المحدثين، وجعلته يقف جهداً
ليس بالقليل على لمّ صنوفه، وجمع أنواعه، هو ما هاله من هؤلاء الشعراء
المجدين، وهال النقد بعده لما رأوا اندفاعهم وراء هذه «البدائع»،
أو هذه المحسنات. فقد لاحظ ابن المعتز كما لاحظ عبد القاهر بعده أو بعبارة أدق
لاحظ ابن المعتز ما انتفع به عبد القاهر بعده هذا الابلغال الذي اندفع بالمحدثين،
أو ببعضهم في الأقل إلى حد الأغرار؛ وهذا الأغرار كان على حساب المعنى
وضيمه في سبيل بهرجة اللفظ والتلاعب به: فأبو تمام كان يتصيد الجناس
لأدنى ملابسه، وكان يعيث بالالفاظ عبثاً لا علاقة له بالمعنى إن لم يكن
على حسابه: فإذا مر بالمكان المسمى «قران»، وقف أمامه «لتقر» عين
ال خليفة بالانتصار فيه. وإذا مر «بالأشترين»، لا بد أن «تشتتر» عين
الشرك وتضطلم، كل هذا ليسر الخليفة، وليفهم الخليفة ما يقال له، ومن
أجل هذا أيضاً يكون «سيف الخليفة»، «خليفة الموت»:

سيف الأنام الذي سَمَّته هيئته	لما تخرم أهل الأرض محترماً
إن الخليفة لما صال كنت له	خليفة الموت فيمن جار أو ظلياً
قرت «بقران» عين الدين واشتقرت	«بالأشترين» عيون الشرك فاصطلياً

ويموت العظيم فيقف أبو تمام يتدبه أو يرثيه، وقد كان العظيم سمحاً
كريماً، أحيا مذهب السباحة والسكرم، فلما مات، مات بموته السكرم،

ومات السماحة ، ويتردد أبو تمام أمام كلمة مذهب ويحار بل يتظاهر
بالخيرة ! هل الميت هو « مذهب السماحة » ، أو الميت هو « مذهب السماحة »
بعينه ، ثم يقول :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون أم مذهب

وأنت ترى أن الظنون لم تلتو ، والملتوية هي عبارة أبي تمام ، وهذا
الالتواء لم يزد المعنى شيئاً ، فقد مات السمع الكريم وكفى ، ولكن
أبا تمام الملتوى المغالى بشعره ، يريد أن يتعالى على أضرابه ، ويفهمهم
أنه عرف ما لم يعرفوا ، ووقف على ما لم يستطيعوا أن يقفوا أمامه !!
كل هذا أو بعضه ، كان يدور برأس « ابن المعتز » حينما كتب « البديع »
وهذا الدافع الأخير يجعل منه ناقدًا ذواقًا إلى أنه شاعر ومؤلف .

ومهما يكن من أمر فإن « ابن المعتز » قد أحدث حدثًا جديدًا ، وقد
أتى بجديد في البلاغة العربية ، فألف فيها ، وللمرة الأولى تأليفًا إن كان
موضوعه الأصلي الضم والجمع ، فله من غير شك منهجه ، وخطته العلمية
التي رسمها وأكثر منها ، فهو يورد النكتة البلاغية ويستشهد لها مرة من الشعر
القديم ومرة من « السكتاب » ، وثالثة من « الحديث » ، وفي كل مرة يقول
أو يكاد يقول للمحدثين في تحد ظاهر « ليس جديدكم بجديد ، ولا بديعكم ببديع » .

ثم هو في إيراد الشواهد لا يكفى بالرد والإيراد بل يقف أمام بعض
الشواهد ويستحسنها ، ويحافى بعض الشواهد وينكرها ، فهو إذن ناقد للمرة
الثانية ، كما كان ناقدًا في المرة الأولى عند وقوفه أمام شواهد أبي تمام .

وابن المعتز بعد ذلك يعتمد في كتابه إلى أمرين : أما أحدهما فدفاعي
عن أصالة البلاغة العربية ، حينما قال للمحدثين ليس البديع من عملكم ،

ولا من نتاج تصوركم ، وإنما هو قديم للعرب ، تعرفه في جاهليتها وإسلامها ،
إلا تسكن معرفة اصطلاحية ، فهي معرفة فنية ، أساسها الذوق ، والاندفاع
الفني ، لا المعرفة ولا التروى الصناعى ، والتأنق المفتعل .

وأما ثانيهما فنقدى وهو ما أشرنا إليه ، فليس كل تشبيه مقبولا وإن
نبا به الذوق ، وليست كل استعارة مستساغة ولو لم يكن بينها وبين أصلها
صلة أو نسب .

حركاتان تشبهان إلى حد كبير عمل « نقولا بوالو »^(١) شيخ المدرسة
« الكلاسيكية » أو السلفية في الأدب الفرنسى ، وفي الآداب الأوربية
عامة . فكل من عقب على كتابه « الفن الشعري L'art poétique » قال
إنه عمد أولا إلى إحياء « الكلاسيكية » ونعى وشرع ثانيا على المحدثين
وللمحدثين ، حتى يرجعوا إلى طبيعة الأدب ، ولا يعرف طبيعته
إلا الأقدمون الذين هم « أنبياء الأدب » بحق على حد تعبيره .

ومقدمة ابن المعتز صريحة في تقرير هاتين الناحيتين ، وفي غير حاجة
إلى معاناة الاستنتاج :

« قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعد ما وجدنا في القرآن واللغة ،
وأحاديث الرسول عليه السلام ، وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم ، وأشعار
المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون « البديع » ليعلموا أن بشارا ومسلما
وأبا نواس ، ومن تقيسهم ، وسلك مميلهم ، لم يسبقوا إلى هذا الفن ،

(١) دراسات وصور أدبية لأميل فاجيه .

Dix-Septième Siecle, études et portrait littéraires,
Emile Faguet p. 342

ولسكنه كثر في أشعارهم ، فعرف في زمانهم ، حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه .

وهو في النقد يقول « إن حبيب بن أوس (أباتام) من بعدهم شغف به ، حتى غلب عليه ، وتفرغ فيه ، وأكثر منه ، فأحسن في بعض ذلك ، وأساء في بعض ، وتلك عقي الإفراط ، وثمره الإسراف ، وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت أو البيتين في القصيدة . وربما قرأت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ، ويزداد خطوة بين الكلام المرسل . »

إلى هنا تحدثنا عن « ابن المعتز » كما لو كان الواضع للبلاغة العربية تحت اسم « البديع » كما تحدثنا عن الدوافع النفسية التي دفعته إلى التأليف ، وعن الدوافع التطورية للأدب ، وهي دوافع ملجئة بطبيعتها ومحفزة لهذه الحركة التقدمية في تدوين العلوم والتقنين لها .

نتساءل بعد هذه الأصالة التي عرضناها وافترضناها . أكان ابن المعتز بعيداً عن كتاب « الخطابة » لأرسطو ؟ قدمنا أن الكتاب يمكن أن يكون ترجم في أوائل النصف الثاني من القرن الثالث أو في آخر هذا النصف وهو الغالب ، وابن المعتز مات في نهاية القرن الثالث فهل أدرك الكتاب مترجماً ؟ وهل نقل منه بعد أن نقل إلى اللغة العربية ؟

إن كراتشكوفسكن ناشر كتاب ابن المعتز يرجح فيه الأصالة ويرجح أن ابن المعتز لم يستعده من غيره ، ويرى أن أمثاله من صميم الأدب العربي^(١) ،

(١) كتاب البديع لابن المعتز لكراتشكوفسكي نقله عن مخطوطي الاسكوريال وعلق عليه وقدم له بمقدمة طويلة بالانجليزية طبع ١٩٣٥ .

Abd Allah Ebn al mu'tazz, ettited from the unique Ms. in the Escorial, with iutroduetion, notes and indices . py L. koratchkovsky 1935

ونرى أيضاً أن ابن المعتز أنكر على بعض معاصريه بديعهم وأثبت أن أنواعه عند الأقدمين ، وجمع لهم من صنوفه ما يعرفون وما لا يعرفون ، فهل لو كان ناقلاً وهو ناقد وعائب عليهم ما هم فيه أفا كان من الطبيعي أن يعيبوه أيضاً ولا يهتموا لابتقده ولا بزياداته في الأنواع البديعية الكثيرة التي أوردناها ؟ كان ذلك يكون طبيعياً لناقد عائب ! وكان طبيعياً أن يقولوا له أيضاً وأنت أيضاً لم تأت بجديد فقد نقلت عن المترجمين ! ولكن شيئاً من رد الفعل هذا لم يصل إلينا ولا نعرفه .

ونرجع فنقول إن الافتراض هنا أو التقرير ابتداء لأصالة عمل ابن المعتز أو لنقله ليس من الطريقة العلمية في شيء ، وأحمد ما يليق بالطريقة العلمية ، وأوضحه أن نستعرض الأنواع التي ذكرها ابن المعتز ، وما يمكن أن يقابلها من الأبواب التي عرض لها « أوسطو » ، في كتاب « الخطابة » أو « الشعر » ، فما كان موافقاً لها فهو من غير شك للعلم الأول ، وما لم يوافقها يكون من عمل العرب ، ويظل ثابتاً دائماً أن الأول هو الذي أثار الفكرة وأغرى بالبحث وراءها . عمل كهذا يطول عرضه وهو في حد ذاته يحتاج إلى دراسة خاصة ليست المقدمة موضعها ، ولكننا نكتفي هنا ببعض المقارنات مادام غرضنا الأول من البحث هو « أفكار أرسطو في البلاغة العربية » .

أطلق ابن المعتز البديع على خمسة الأنواع الآتية .

الاستعارة والمطابقة والتجنيس و رد أعجاز الكلام على الصدور والمذهب الكلامي . وقد أغفل التشبيه لأنه أصل الاستعارة ، والعرب تعرف التشبيه من قبل ابن المعتز على أنه مما يمتاز به الكلام ومما يدخل في باب

البلاغة ، فالمبرد قد عقد له في الكامل فصلاً برمته ، والجاحظ قد عرف الاستعارة ، وعرف لها بأنها « تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه ،

وأرسطو قد عرف من قبلها التشبيه والاستعارة وهو يتكلم على الصورة ^(١) Sur P'image فقد رأينا أن الصورة عند أرسطو « تشبيه » وأنها هي أيضاً نقل ومجاز Métaphore ^(٢) وليس بينهما كبير فرق في نظره فالتشبيه والمجاز (أو الاستعارة) من الصورة أو من التصوير ومثله في « أخيل » مشهور وأوردناه فيما سبق . وعلى الرغم من أن هذا المثل في رأى النقاد مشكوك في نسبته إلى « هوميروس » بهذا النص الذى أورده المترجمون والمعقبون على أرسطو ^(٣) ولكن مما لا شك فيه أن مثلاً قريباً منه أو بمعناه موجود في الياذة هوميروس عرفه أرسطو وقرره . وإذن يكون النقل أو المجاز من تفكير أرسطو وتكون كلمة « الاستعارة » من تسمية العرب إذ نحن أمام أرسطو أمام كلمتين image ومعناها صورة وميتافور Métaphore ومعناها النقل أو المجاز وهما غير الاستعارة في نظر المتأخرين بعد عبد القاهر الجرجاني .

أما المطابقة فقد أراد بها « ابن المعتز » التكافؤ ، وقد رأينا أن الجاحظ يريد من الطبايق رعاية القصران ، وحبك أجزاء الجملة ، وحبك أجزاء البيت

(١) الكتاب الثالث - الفصل الرابع - الفقرة الأولى من ترجمة رول Ruelle

(٢) كلمة ميتافور Métaphore وهى باليونانية Métaphora ومعناها النقل أو المجاز ولا يجوز طبعاً نقل كلمة من معناها الأصيل إلى معنى آخر إلا إذا كان بين المعنيين مشابهة مثل ضوء الفكرة وزهرة العمر .

(٣) رول مترجم أرسطو يقول إن مثل « أخيل » غير موجود في الياذة بالنص الذى ذكره أرسطو ولكنه موجود في كتاب « النظام الخطائى » لـ *Quintilien* وإذن يشككنا في هذا المثل وفي وجوده بهذا النص في الياذة .

من الشعر بجيث « تراها مختلفة متباينة ، ومتنافرة مستكرهة ، تشق على اللسان وتسكده » وتراها سهلة لينة ، ورطبة مواتية ، سلسلة النظام خفيفة على اللسان ، حتى كان البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد .^(١) فالجاحظ يعرض للطباق ويفهم منه عدم الاختلال بالفصاحة التي فهمها المتأخرون في تنافر الحروف والسمكات فقط ، ويظهر لنا أن هذا الصنف من البلاغة عربي ومن العرب ، : فقد نقل الجاحظ عن « الأصمعي » أن البليغ من « طبق المفصل وأغناك عن المفسر »^(٢) والعرب تصف الكلام الموجز الذي أصاب المعنى بأنه « يقل الحز ويصيب المفصل ، والطباق هو السقران كما قدمنا فهو من العرب ومن تسمية العرب .

والفصل الذي يمكن الوقوف أمامه لأن فيه مشابهة من عبارات العرب وعبارات أرسطو هو الفصل السابع من السكتاب الثالث لخطابة أرسطو وعنوانه ملائمة الأسلوب Sur La Couvenance du style ولسكن هذا الفصل يبدو لنا بعد قراءته أنه ألصق بما يسميه علماء البلاغة « مطابقة الكلام لمقتضى الحال » منه بالطباق أو المطابقة أو التكافؤ .

ولسكن ألسنت ترى معنى بعد ذلك أننا — ونحن نريد لإثبات الطباق للعرب — نسجل عليهم في الوقت نفسه أنهم أخذوا « مطابقة الكلام لمقتضى الحال » من المعلم الأول ؟ ذلك — فيما يبدو لنا — ما لا يمكن التخلص منه على رغم إعجابنا بالعرب وبدقتهم في وضع هذه المصطلحات

(١) البيان ص ٣٨ — ج ١

(٢) البيان ص ٥٨ ، ٥٩ — ج ١

العلمية الجديدة ، بعد أن ترجمت لهم معانيها ، وهذه الدقة لاتوازيها إلا دقة أخرى هي اختيار شواهدهم من كلامهم ، ومطابقة كلامهم لهذه البلاغة اليونانية بحيث تنطبق هذه البلاغة على كلام « النابغة » و « بشار » و « أبي نواس » كما طبق أرسطو البلاغة القديمة على شعر « هوميروس » وشعر « كليفون » ^(١) Cléophon وخطب « بركليس » Pricles .

وأما التجنيس فقد ظهر في كلام الجاحظ وعده ابن المعتز من صنوف البديع الأولى . وشواهد كثيرة في اللغة العربية بلاغة وأدبا ، وقديماً وحديثاً ، ونحسبه أيضاً مما سلم للعرب ، وما جاء عفواً سهلاً على ألسنتهم ولغتهم تساعدهم على استعمال هذا الجنس ، فأساسه ألفاظ مشتركة تتفق معانيها ، وتختلف معانيها اختلافاً تاماً أو ناقصاً ، واللغة العربية تحفظ كثيراً من هذه السكالات متفقة الجرس ، مختلفة الحس ، وهذه السكالات تساعد على استعمال الجنس ، بل إن من عرف اللغة ، ودق وقع السكالات على أذنه ، ينطق بالجناس في غير معاناة ، تحقيقاً للبدأ النفسى المعروف « تداعى الألفاظ » ، و « تداعى المعانى » .

ولكن من يتاح له أن يقرأ « أرسطو » في الفصل الحادى عشر من الكتاب الثالث في الخطابة يصيبه ما أصابنا من الدهش حين يعلم أن المعلم الأول فسكر في الجنس أيضاً كما فسكر في غيره . فإذا قرأت ، فافهم له الفقرة السادسة من الفصل الحادى عشر من الكتاب الثالث للخطابة التي يقول فيها :

« إن معظم النكت البلاغية التي نلحها في الصور و النقل بلاغتها في

(١) شاعر أثينى معروف بالتراجيديات

المخاتلة التي يلجأ إليها الأديب : فإذا انتظرنا من الأديب معنى ، فحائلنا عليه ليأتى بمعنى آخر مضاد له ، وتأثرنا به ، وتأثرنا بكلامه أكثر من غيره ، وكأننا من أثر هذه الدهشة وتلك المخاتلة ، نقول مأحق مايقول ! وماأصدقه ! إننا نحن الذين أخطأنا الفهم لا الأديب . (١)

ومقابلة بسيطة لاتعدو حد القراءة بين هذه الفقرة ، وبين مقاله عبد القاهر في « أسرار البلاغة » ، خاصاً بالجناس ، تدل بوضوح على تأثر عبد القاهر لخطى المعلم الأول التي تركها فوق رمال هذه الصحراء المترامية بيننا وبينه ، على أننا سنرجع إلى العلاقة بين أرسطو وعبد القاهر (٢) . فلنقرر الآن زيادة على ماقدّمنا أن ليس للجناس معنى إلا التلاعب بالألفاظ المشتركة المعنى أو قريبتيه . وهذا التلاعب يعلق عليه أرسطو كثيراً ، ويذكره كثيراً ، ويستشهد له تحت اسم التلاعب بالألفاظ

(٣) Les Jeux de mots

وهذا التلاعب وإن كانت دلالته عند أرسطو أعم وأشمل من دلالته عند العرب ، إلا أن الجناس في نظره من هذا التلاعب واستمع إليه عند تحليله لإحدى خطب « فيليب » ، يقول « إن الكلمة لم تحتفظ بمعناها الأول ولكنها تحملت معنى آخر عند إعادتها » (٤)

أليس هذا هو الجناس ؟ ألا يتفق هذا عن بعض الوجوه في الأقل ، مع ماوردده علماء البلاغة من الاستخدام وشواهد ؟ !

(١) الفصل الحادى عشر - الكتاب الثالث للخطابة - الفقرة السادسة من ترجمة Ruelle ١٨٨٣

(٢) انظر كتابنا « بلاغة أرسطو بين العرب واليونان » .

(٣) ص ٣٢٠ من ترجمة Ruelle .

(٤) الفقرة السابعة من الفصل الحادى عشر من الكتاب الثالث .

ثم استمع إليه في موضع آخر يقول : « إن الكلمة المشتركة في المعنى مع كلمة أخرى Homonymée إذا اقتصدت بمهارة إلى معنى آخر مغاير لمعناها الأصلي ، فذلك كل ما نرجو للبلاغة ، ^(١) إنه كلام لا يسعك وأنت تعلم بلاغة العرب إلا الإعجاب به لأنه لا يشمل الجنس وحده بل يشملهم ويشمل غيره من الصنوف البلاغية المقررة .

أكان الجنس أيضاً منقولاً عن البلاغة اليونانية ؟ أغلب الظن أنه كذلك ! بل وكل الشواهد تدل على أنه كذلك ! ومع هذا كله يبقى للعرب فضل بل فضلان :

أولها الدقة العلمية في التقسيم والتحديد ، فقد رأيت أن بعض فقرات أرسطو لا تعبر عن الجنس وحده ، ولا تحدده تحديد المنطق الذي ابتكره المعلم الأول ، بل تشمل الاستعارة والطباق والمقابلة . ^(٢)

وثانيهما إيراد العرب شواهد مستمدة استمداداً مباشراً من أدبهم ، ومن « كتبهم » وآثارهم ، وتلك علامة يعتمد عليها الباحثون في إثبات الأصالة والنقل : فما يضير الأدب أن ننقل لفهمه قواعد ومعالم ، فهذه القواعد من نبض العقل وأثارة من آثار الذكاء البشري ، وهو عام في الإنسان ، وفي الإنسانية ، والامة الفطنة هي التي تستفيد من هذه الآثار العقلية . إنما يضير الأدب أن ننقل له قواعد غريبة عنه ، وأن ننقل أمثلتها وهي غريبة عنه أيضاً ، فنقل القاعدة ومثلها ، أو مناحي تطبيقها ، عمل لا يدخل في باب الفطنة العقلية وليس من الذكاء في شيء ، ولكن نقل القاعدة والتصرف فيها بالتحديد والصقل ، حتى تنطبق على الآثار الأدبية

(١) الفصل الحادي عشر من الكتاب الثالث - الفقرة الثامنة .

(٢) اقرأ الفقرة التاسعة من الفصل الحادي عشر من الكتاب الثالث .

الخاصة بالامة ، لا يقدر في عقلية هذه الامة ، ولا في ذكائها . وكذلك فعل العرب حينما عرفوا ، وحينما اطلعوا على البلاغة اليونانية ، فقد نقلوا قواعد عامة ، هي من نبض الذكاء البشرى وطبقوها على أدبهم ، وبحسب أدبهم في باب الحيوية ، أنه احتمال هذه القواعد ، وزاد عليها بما أبرزها في معرض الجديد المبتكر .

أما المذهب الكلامي فهم لم يأخذوه مباشرة من بلاغة أرسطو ، وإنما أخذوه من جدله ومنطقه ، ولعله أول الصنوف البلاغية ظهوراً لتقدم ترجمة المنطق والجدل على ترجمة البلاغة ^(١) وقد انتفع العرب بالمنطق والجدل مبكرين ، لحاجتهم إليهما في الكلام على الملل والنحل ، وقد ظهرت مبكرة في الإسلام .

ومعنى المذهب الكلامي هو إيراد الكلام على طريقة أهل المنطق بطريق القياس الكامل Syllogisme أو بطريق القياس المضمحل Enthymème وقد ظهر هذا النوع البلاغي أكثر ما ظهر في جدل المعتزلة وأهل السنة . لأنه المقياس الذي كانوا يرجعون إليه في البحث والمناظرة ، وقد أنكره صاحب الصناعتين (أبو هلال العسكري) ثم رجع فقرر له مكانه في القرآن في أمثال الآيات التي تحمل دليلها معها « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » . « إذن لنذهب كل إله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض » وغير ذلك من الآيات :

أما المصنف الخامس الذي عده ابن المعتز من صنوف البديع الاسماسية فهو « رد أعجاز الكلام على الصدر » ، وما نحسب هذا النوع إلا من صنع

(١) ترجم كتاب الطويقا « الجدل » في عصر المهدي .

العرب وخاصة بلاغتهم وهو كثير في « كتابهم » ولم نعثر فيما قرأنا لأرسطو خطابة أو شعراً شيئاً صريحاً يدل على وقفته أمام مثل تلك النكتة البلاغية . هذه هي الصنوف الخمسة التي ذكرها ابن المعتز وجعلها الجديرة باسم « البديع » أما غيرها فصنوف ثانوية أطلق عليها كلمة « محسنات » وسعدت هذه الكلمة إلى أيامنا هذه . ومنها الاعتراض و الالتفات و تأكيد المدح بما يشبه الذم و تجاهل المعارف و التعريض و حسن التضمين و الهزل الذي يراد به الجد . وقد عثر عليها وحده وله هذه المصطلحات وهو بعد ذلك يتوقع في تواضع الأديب أن يعثر غيره على أكثر منها و بنفس السهولة التي عمل بها مادام مصدرها الأدب وهو غزير متنوع الأغراض والصور لذلك يقول في مقدمة كتابه :

« لعل بعض من قصر عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ، ستحدثه نفسه وتمنيه مشاركتنا في فضيلته ، فيسمى فناً من فنون البديع بغير ما سميناه به ، أو يزيد شعراً قد تركناه ولم نذكره إلا لأن بعض ذلك لم يبلغ في الباب مبلغ غيره فألقيناه ، أو لأن فيما ذكرنا كافياً ومغنياً . . وإنما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع . وفي دون ما ذكرنا مبلغ الغاية التي قصدناها . »

انتهى القرن الثالث الهجري والأمر على ما ذكرنا في أمر البلاغة العربية ، وليس بين أيدي المترجمين من السريان ، وأيدي العلماء من العرب ، إلا كتاب الخطابة الذي ظهر في النصف الأخير من القرن الثالث . أما الجاحظ فقد علمنا من أمره أنه كثير الاطلاع على بيان العرب ، وبيان غيرهم من الأمم ، وقد رجحنا أن يكون قد علم بأمر الكتاب بين يدي المترجمين

ورجحنا أن يكون قد انتفع به انتفاع العالم الذى يقرأ فيفهم ما يقرأ ، فإذا كتب بعد قراءة ، فإنك لا تدرى إذا كان ما كتب لنفسه أو لغيره ، إذ أن عملية التمثيل العلمى عند العلماء تمنعهم من أن يعرفوا ما لهم وما لغيرهم ، فكل ما لديهم من نتائج العقل البشرى ، والعقل وما يصدر عنه للإنسان وللإنسانية . وقد رأينا أن الجاحظ عرف أرسطو كل المعرفة من المنطق والجدل ، وعرفه بعض المعرفة من الخطابة والسفسطة مما جعله يصل إلى درس حالة « المعلم الأول » ، فى البيان والالقاء فيعرف أنه كان مفكراً أكثر منه متكلماً ، وأنه كان لا يعيا بالتفكير ، ولكنه يعيا بالتعبير ، يأتيه التفكير عفواً ، وتأتية العبارة قصداً ، فهو يكتب قبل أن يدرس أحياناً ، وهو يكتب بعد أن يدرس أحياناً أخرى ، وإذا كتب بعد الدرس زاد على ما قال ، وأطال فيما قرر ، وأضاف إلى ما قال شيئاً كثيراً فيما يكتب ، ومن هنا ما أخذه عليه نقاده فيما بعد من الاضطراب بين العبارات ، ومن التعميم والتخصيص فيها إلى درجة الغموض والابهام . ورأينا أيضاً أن الجاحظ كان يعرف السوفسطائيين حق المعرفة : عرفهم أولاً من المنطق ومن الكلام فى حقائق الأشياء هل هى ثابتة أو غير ثابتة ، وعرفهم ثانياً من الخطابة والتفوق فيها ، وقوة الارتجال التى يمتازون بها على كل خطباء أثينا ، ولذلك ألح الجاحظ كثيراً على الارتجال وأثبتته للعرب أيضاً كما هو ثابت للسوفسطائيين ، وأثبت أنه فيهم أصالة ، وفى غيرهم ثقافة وتعلم ، ونقل الثانى عن الأول نقلاً صرفاً أو نقلاً مزجياً .

أما ابن المعتز فقد رأيناه يعمل في تدوين البديع للمرة الأولى وفي حصر صنوفه وأنواعه ، وفي تقسيم هذه الأنواع إلى أصلية وإلى ثانوية . وعلى الرغم من أن كتاب « الخطابة » كان معروفا في نهاية القرن الثالث الذي عاش فيه ابن المعتز فأنا لم نر على السكتاب أية مسحة من الترجمة ، أو أية لوثة من العقل الهيليني ، فالصنوف التي عرفها أخذها مما نقل عن الشعراء ، وهو فوق ذلك شاعر رقيق الحاسة ، واسع المحفوظ ، يستطيع أن يورد على النوع البديعي الواحد ، كثيرا من الشواهد والأمثلة ؛ وقد هدف في كتابه إلى غايتين وأدركهما من قريب أو من بعيد ، الهدف الأول نقدي للشعراء يوازن بين ما قالوه ويستحسن ما يرى ويرفض ما لا يرى ، ويرجعهم عن صلفهم بأن ما اخترعوه من « اللطيف » أو « البديع » إنما كان من لطيف حس الأقدمين وبديع تصورهم . والهدف الثاني تقني قاعدي ، فقد لمّ الصنوف المعروفة للبديع ، وزاد عليها ، ووضع لها تسميتها ، وأغرى من أتى بعده أن يحذو حذوه ويسلك سبيله .

كل هذا قد كان انتظارا « لقدامة بن جعفر » الذي قرأ من غير شك ما ترجم من كتاب الخطابة ، والذي أدرك من غير شك « كتاب الشعر » في أوائل ظهور ترجمته فاستأثر به وأخفاه في كفه ، وأخذ يتطلع إليه من وقت لآخر ليضع قواعد جديدة للشعر العربي . وقد أدرك بعد أن عرف « كتاب الخطابة » ، وكتاب الشعر ، أن هناك قواعد خاصة بالشعر ولا تنطبق إلا عليه ، فعمد إلى الفصل بين منطقتي نفوذ النثر والشعر وإن لم يوفق في ذلك كل التوفيق .

وقد عالجنا عمل « قدامة » ومن أتى بعده في كثير من التفصيل في كتابنا « بلاغة أرسطو بين العرب واليونان » فليرجع إليه من أراد مزيداً . ولنرجع الآن إلى مانحن بصدده من ترجمة كتاب « الخطابة » ، بعد أن فرغنا من هذه المقدمة المسببة .

إن الكتاب الأول الذي نحن بصدده جاف جاس ، سوف لا يجد فيه القارئ ما كان ينتظره من قواعد خالصة تنطبق على البيان العربي ، أو يمكن الانتفاع بها من قرب في هذا البيان .

فالكتاب الأول يتعرض للخطابة وللجدل وللنطق ، ولل فروق الفلسفية بينها ، كما يتعرض لمهمة الخطابة ولفائدها . وبعد أن يقسمها التقسيم الثلاثي المعروف يأخذ في كيفية نظم الأدلة وتكوينها ويقسم هذه الأدلة تقسيماً يسائر التقسيم الثلاثي للخطابة ثم يشرح المقدمات ومآخذها فيضطره ذلك إلى الخروج عن الخطابة إلى علوم أخرى من السياسة والأخلاق .

وقد لا يجد القارئ في الكتاب الأول ما يشوق من الناحية الأدبية ، ولكنه سيجد فيه كثيراً من الشائق الرائق إذا اتجه إليه من أول الأمر اتجاهاً علمياً ، أساسه التحليل والتركيب ، والتفريع والاستنتاج ، فالرجل يملك إعجاب القارئ من هذه الناحية ، ويستبد بفكر المتطلع فلا يتركه إلا بعد أن يصدق ما يريد .

وأمر ثان لا بد من التنبيه عليه ابتداء في أسلوب « الكتاب » ، وكيفية إيرادها ، فالرجل لا يكتب كما يكتب المحاضرون كتابة مرسلة يأخذ بعضها بحجز بعض ، وينتظم منها فكر عام ، وإنما يكتب فقرات — وكانت هذه طريقتهم في كتاب الخطابة والشعر في الأقل — في الموضوع الواحد وعلى

القارىء أن يضم هذه الفقرات بعضها إلى بعض ليتألف منها موضوع واحد. والغريب في أمره أن كل فقرة ، تحمل فكرة جديدة ، فكان الرجل إذا ألف يمشى مع نبض عقله ، والنبضة الواحدة ، بفكرة واحدة ، وعقله كقلبه ينبض في الدقيقة الواحدة عشرات النبضات . فالكتاب كثير الأجزاء ، كثير الخيوط ، والقارىء الفطن من يمسك بالخيوط الأول ، خيط الدليل كما يقولون ولا يتركه يفلت من يده حتى يصل إلى نهايته .

لذلك رأينا أن نقدم لكل فصل من فصول « الكتاب الأول » بكلمة موجزة نجتمع فيها ما تفرق من هذه الفقرات حتى يدرك القارىء إدراكاً جلياً ما في كل فصل من أفكار .

وإننا وإن كنا اعتمادنا في الترجمة على ما نقله « رويل » باللغة الفرنسية إلا أننا لم نهمل — كما سبق أن قررناه — هذه الترجمة الحديثة التي ترجمها « دوفور » ١٩٣٢ والتي قرنها بالنص اليوناني في صفحات مقابلة للترجمة الفرنسية ، وقد أعانتنا هذه اللغة الحديثة على فهم لغة « رويل » التي ترجع إلى ١٨٨٣ .

هذا فيما يختص بالكتاب الأول للخطابة أما فيما يختص بالكتابين الثاني والثالث اللذين عزمنا على إخراجهما تباعاً ، فسيجد القارىء فيهما متاعاً ومسرة حينما يجد كثيراً من فصول الكتابين ما يتصل كثيراً بالبلاغة أدباً ونقداً ، فالكتاب الثاني يتناول دراسة الانفعالات وأثرها في الأدب وهو اتجاه حديث ننشده الآن في علم النفس لنجعل من اتجاهات الأدب واتجاهات البحوث النفسية علماً جديداً قائماً بنفسه هو علم النفس الأدبي

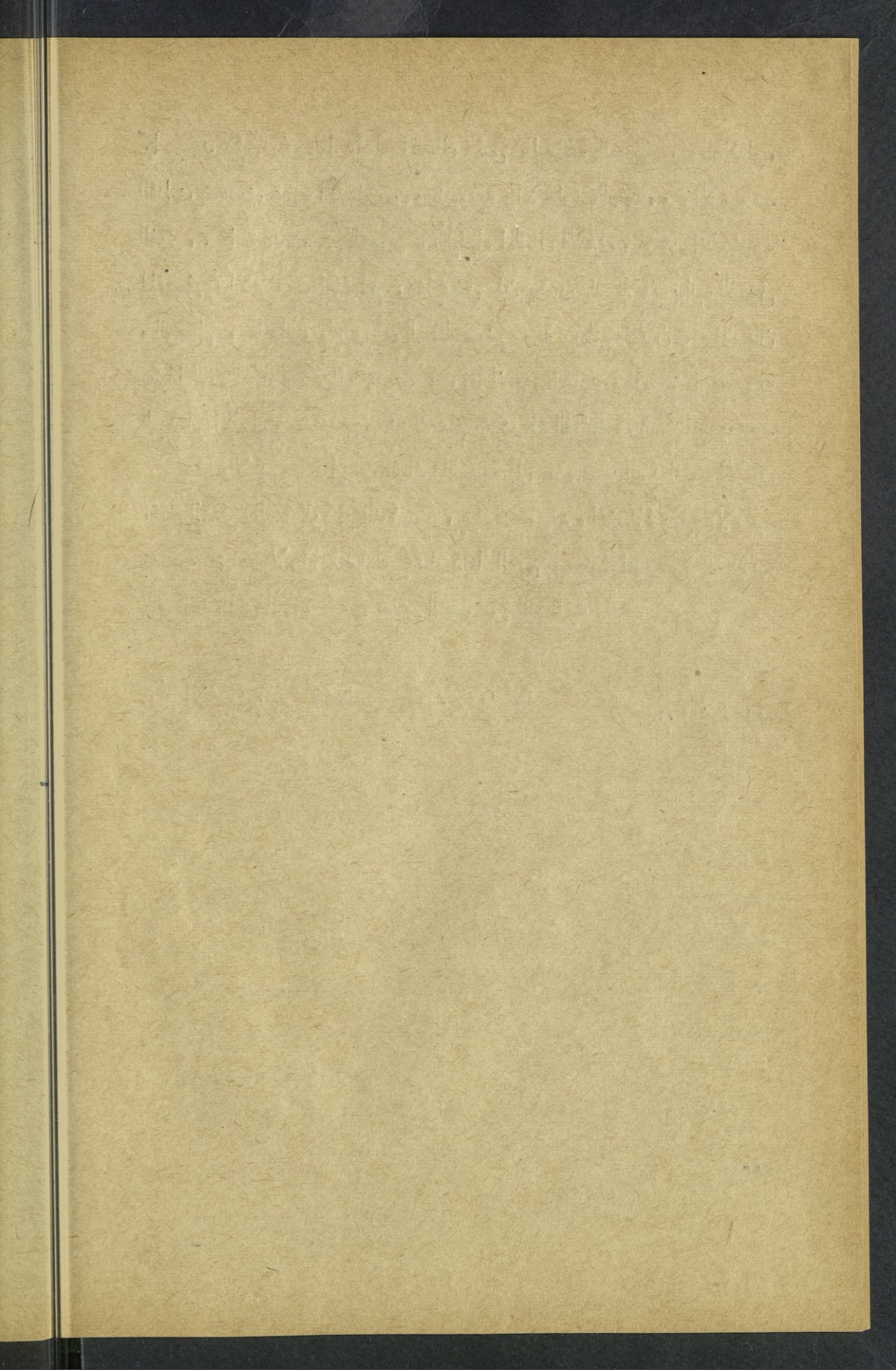
La psychologie littéraire

وسيجد فيه باب « العبارة » كيف تؤولف وسيجد فيه باب « المغالاة »

كما سيجد كثير آخرهما بما له اتصال وثيق بالبلاغة العربية . والكتاب الثالث يتحدث عن « الأسلوب » وما يسميه « الأسلوب الجيد » و « الأسلوب الفاتر » ، كما يتحدث عن الصور وتأليفها الخيال الأدبي ، وعن الأسلوب المفصل والأسلوب المنقطع ، مما يمكن أن يكون له علاقة بباب الفصل والوصل ، فالقارئ يرى أن الكتاب ضرورية دراسته الآن ، وإن كان عتيقا لأن أفكاره لاتزال جديدة ، وإنا لنرجو القارئ أن يحتمل صعوبة الكتاب الأول وجفافه حتى يدرك تمام الإدراك الفائدة في الكتابين بعده . هذا ولا يسعنا قبل أن نترك المقدمة إلى نصوص الكتاب ، إلا أن نقدم الشكر خالصا للزميل الدكتور يوسف مراد ، الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول لتفضله بمشاركتنا الفهم لبعض نصوص الكتاب ومساعدتنا في الرجوع إلى بعض النصوص اليونانية .

الاسكندرية أغسطس سنة ١٩٥٠

ابراهيم سليم



كِتَابُ الْمَخْطَابَةِ

الكتاب الاول

الفصل الأول

ملخص الفصل :

علاقة الخطابة بالجدل معروفة ، وكل الناس يمارسها بدرجات متفاوتة ، وهم بين مدافع ومتهم يمارسون الخطابة والجدل إما بالنعوذ والكسب ، وإما بالتجربة والمراعاة فكلهما فن أساسه المزاولة ، وهما في حاجة ككل الفنون إلى منهج وخطة .

والذين اشتغلوا بالخطابة قبله شغلوا فيها بأشياء ثانوية كدراسة الانفعالات التي تستفز القضاة والمحكمين وأهملوا الأدلة التي هي عماد الخطابة وعمودها .

إن القوانين يجب أن تكون محددة وعلى الرغم من هذه القاعدة الأساسية نجد أموراً لم يحددها الشارع وترك فيها الأمر للحكم القضاة ، ولكن هذا الهامش المتروك لا يمنع ولا ينبغي أن يمنع التحديد لأسباب أهمها :

١ — إن الموهوبين بالحس الصادق قليلون فلا بد من تحديد القانون .

٢ — التشريعات القضائية لا تتم إلا بعد بحث وتمحيص ، والأحكام القضائية تصدر لساعتها فإذا لم يكن القانون محدداً خيف على الأنصاف .

٣ — الحكم التشريعي عام لا يقيّد بزمن ولا بأشخاص ، والأحكام القضائية خاصة منسوبة على وقائع حاضرة ومعيّنة ، والواجب بعد ذلك أن تترك القوانين للقضاة أقل تحكم ممكن ، والواجب بعد ذلك ألا نشغل في دفاعنا بالأمور الثانوية ونترك الأدلة أساس الدفاع .

الخطابة القضائية والخطابة الحمليّة الاستشارية ومنها السياسية يخضعان لطريقة واحدة والفصاحة أساسها جميعاً ، وهي في الخطب السياسية أدخل منها في خطب العقود والمعاملات ، والخطابة القضائية ذات منفعة خاصة ، والخطابة الحمليّة الاستشارية ذات منفعة عامة ، والسامع في الأولى محكوم له أو عليه ، أما السامع في الثانية فخصم وحكم ، والقضاة في الأولى يصدر عن حكمهم في أمور لا تمسهم وهم إذا استسلموا فيها للخصمين على السواء لا يؤدون وظيفة قضائية وإنما ينصتون

للعواطف . والقاعدة الذهبية في كل الخطب هي في عدم الخروج على الموضوع .
وهذه القاعدة محترمة إلى حد كبير في الخطب الخلية والاستشارية . تعتمد الخطابة
في جملتها على الأدلة ، والأدلة برهنة ، والبرهنة الخطابية في « القياس المضمر »
والقياس المضمر نوع من القياس المنطقي فمن يستطيع التصرف في القياس المنطقي
يستطيع التصرف في القياس المضمر وفي الجدل متى كان على علم بما تتركب منه
الأكيسة المضمرة وبالفوارق التي بينها وبين ما تتركب منه الأكيسة المنطقية . إن
الحقيقة سهلة والناس يدركونها بفطرتهم إلى حد كبير ، ومن في إمكانية إدراك
« المسلمات » لا يصعب عليه إدراك الحقيقة ، فأنت ترى أن من سبقنا من الخطباء
ومن تكلموا في الخطابة لم يعنوا بشيء من هذا عنايتهم بالتأثير العاطفي في القضية
وبخاصة في النوع القضائي .
الخطابة نافعة ومفيدة :

(أولا) لأن مهمتها إحقاق الحق والعدل وهما يؤثران بالطبع على الباطل والظلم .
(ثانيا) ليس من الميسور أمام غمرة الناس أن نصل إلى الاقتناع بالعلوم
ولو اعتمدنا على أدقها فالعلم مستمد من النظر وهو صعب التطبيق في الموقف الخطابي .
(ثالثا) الخطيب مكلف أن يعرض للموضوع ولنقيضه إذا ابتده أو فوجئ
وليس هناك فن آخر غير الخطابة والجدل يمكن أن يصل بمعونة القياس المنطقي
إلى نتيجة متناقضة !

(رابعا) من سخرية الإنسان بنفسه ألا يستعين بجوارحه وبخاصة إذا كان
هذه الجارحة هي اللسان الذرب والفصاحة الموهوبة ، ولا يقال بعد ذلك إن القدرة
الكلامية تفضي إلى الأذى والأذى ، لأنه اعتراض لا يوجه إلى الخطابة وحدها
بل يوجه إلى كل خير ومفيد كالقوة والصحة والثروة والقيادة العسكرية ؛ هذه
كلها خيرورما لها الخير إن حسن الانتفاع بها ، وهي كلها شرور وما لها الشر لو أسئ
تطبيقها . وضح إذن أن الخطابة لا تنتمى إلى نوع بذاته ولكنها تصلح أن تدخل
في كل شيء ، شأنها شأن الجدل ، ومنفعتا ليست في الاقتناع بقدر ما هي في كشف
ما يكون عليه الأمر في كل مسألة على حدتها ، شأنها شأن الطب مثلا من بين سائر
الفنون فليست مهمته منح الصحة ، بل يستهدفها بقدر المستطاع ، ومن حرمها
لا يحرم من عناية مجدية تؤدي إلى تحسين حالته .

(١)

علاقة الخطابة بالجدل — فائدة الخطابة ومهمتها

١ — الخطابة متصلة بالجدل ^(١) وكلاهما يعنى بأمر تمسكن معرفتها في غير التجاء إلى علم بعينه ، لأنها أمور يمارسها كل الناس ويعرفونها في صورها المتحدة في الأقل : إن كل الناس يلجئون للخطابة والجدل بدرجات متفاوتة ، وكل إنسان يحاول ما أمكنه الجهد أن يعارض حجة من الحجج أو يدعمها ، أى أنه في إمكان كل فرد أن يدافع أو يتهم .

٢ — وبعض الناس يمارس الخطابة والجدل فطرة وسليقة (صدقة) ^(٢) والبعض الآخر يمارسها بالمراعاة التي اكتسبها من مقتضيات الحياة . وبما أن الوسيطتين بمكنتان (مقررتان) فواضح أن يكون هناك طريقة وأن يكون هناك مجال لتوجيه تطبيقهما ، ولضرورة النظر في السبب الذي يؤدي إلى إنجاح هذا العمل المنساق بالعادة ، أو المندفع بالفطرة والسليقة . ولا يشك إنسان في أن مثل هذه الدراسة من خاصة الفن .

٣ — إن هؤلاء الذين يكتبون في الخطابة لا يعالجون من شئونها إلا النزر اليسير أو أنهم لم يضيفوا إلى هذا الفن إلا إضافة ضئيلة : فالأدلة هي وحدها التي تمتاز حقاً بخاصتها الفنية ، أما ما عدا ذلك فقليل الأهمية عندهم ، والواقع

(١) بلوتارك «قراءة الشعراء» .

Plutarque, de la lucture des poètes IV, 1

الفن والقدرة على الحكاية يتصلان بالرسم والتصوير . «وليس الخطابة تابعة للجدل وليكتفى ضرورية له» .

Thurot, Etudes sur Aristote 1850, P, 171 et appendice 10 .

وفي رأى «توروت» أن الخطابة تقابل الجدل .

Rossignol, Journal des Savants September 1842 .

(٢) المراد «بالصدقة» السليقة والعمل التلقائى ولسكتنا ذكرنا كلمة «صدقة» احتفاظاً بلفظة أرسطو «رويل» ص ٧٦ هامش (١) .

أنهم لا يتعرضون مطلقاً للقياس المضمر^(١) L'Enthymème وهو صلب الدليل ، فالأحكام التي يصدرونها تتناول في الغالب موضوعات لا تمت بصلة إلى صميم القضايا .

٤ — إن الافتراء والهجوم والاسترحام واستفزاز البغضة وما يشبه ذلك من الانفعالات النفسية لا دخل له في موضوع القضية ، وإنما يقصد بإثارها التأثير في القاضي^(٢) ، فإذا التزمنا هذا وجرينا في الأحكام على هذه الطريقة التي تسير عليها بعض البلاد الآن حتى الرافقة منها ، لا يجد هؤلاء الخطباء شيئاً ذا قيمة يقررونه أو يكتبونه .

٥ — إن من الناس من يرى أن القوانين يجب أن تطبق وفقاً لاتجاه معين ، ومنهم من يمنع كل ما ليس له علاقة بموضوع القضية ويقبل الاستفزازات الانفعالية وتلك هي الطريقة التي تسير على هديها هيئة كبار العلماء L. Aréopage وهي طريقة عادلة . والمهم بعد ذلك هو عدم تضليل القاضي بدفعه إلى الغضب والبغض أو بالميل به إلى الرأفة والرحمة ، فذلك — لو كان — معناه الاخلال ابتداءً بالقاعدة التي سيسار عليها .

٦ — زد على ذلك أنه من البين أن مناقشة الدفاع يجب أن تهدف إلى

(١) يسمى ابن رشد «القياس المضمر» «الضمير» وقد أثرنا العبارة الأولى لأنها من مصطلحات المناطقة . انظر فوستولا زينبوناشر ابن رشد ص ٣

Il Commento Medio, di Averroè alla Retorica di Aristotele .

(٢) كان الخطباء قبل أرسطو يعنون بما يثير انفعالات القضاة . وأرسطو نفسه درس هذه الانفعالات (في الكتاب الثاني من الفقرة ١ : ١١) ودرس الاخلاق (من الفقرة ١٧ : ١٢) ولكنه قصد من ذلك أن يبين للخطباء وضع الأدلة في سياق يجعله يفرض نفسه على القضاة والسامعين . دوفور ص ٧٢ هامش (١) .

تبيان ما إذا كان الحدث من الأحداث موجوداً أو غير موجود ، وما إذا كان قد كان فعلاً ، أو لم يكن ، كما يجب ألا نتجاوز هذه الحدود . ثم نسأل أكان جليلاً ذلك الحدث الذي وقع أم قليلاً ، أكان عدلاً أم جوراً ؛ تلك نواح لم يحددها الشارع ، وإنما ترك الأمر فيها إلى القاضى يتعرفها في غير التجهاء إلى الطرفين المتخاصمين .

٧ - يحسن إذن وقبل كل شيء أن تحدد القوانين ، المؤسسة على قاعدة العدل كل ما هو مباح ، ولا تترك لتصرف القضاة إلا أقل ما يمكن تركه لهم وذلك للأسباب الآتية : -

(أولاً) إنه من اليسير أن نعثر على رجل أو على قبضة من الرجال الممتنعين بالحس الصادق وبالقدرة على التشريع والحكم ، وليس من اليسير أن نجد هذه الصفات في عدد كبير من الناس .

(وثانياً) إن التشريعات لا يتم تقنينها إلا بعد تمحيص واختبار طويل ، في حين أن القرارات القضائية تصدر لساعتها ، وفي هذه الحال يصعب على القضاة إنصاف المتقاضين في ناحيتي العدالة والمصلحة انصافاً تاماً .

وثمة سبب ثالث ^(١) وهو أهم الأسباب مأتاه أن حكم الشارع لا ينصب على ناحية خاصة ، ولا على حالة بعينها ، ولكن على حالات عامة ومستقبلية ، في حين أن القاضى وأعضاء هيئة القضاء ، يصدرون أحكامهم على وقائع حاضرة ومعينة ، وهم بعد ذلك متأثرون في الغالب باعتبارات من الحب والكراهية ، والمصلحة الخاصة ، وهذا من شأنه أن يمنهم من أن يواجهوا الحقيقة بأهليتهم القضائية وبوصفهم قضاة مادامت العواطف

(١) أهل « ابن راشد » في مختصره السبب الثالث ولم يذكر الا سببين فقط ص ٦٤٥

الشخصية من سرور ومضض تغشى على بصائرهم .

٨ - ونعود فنقول مادامنا مشترك للقاضي أقل تحكم ممكن فيما سيعرض عليه ، فالواجب أن نترك له تقرير ما إذا كان الحدث قد وقع فعلاً أم لم يقع ، وهل سيقع أم لا ؟ أيقع مثله عادة أم لا ؟ مادام الشارع لا يستطيع أن يتنبأ بحدوث مثله .

٩ - إذا كان الأمر كذلك فانه يبدو لنا أننا نتناول موضوعاً بعيداً كل البعد عن أصل القضية إذا ما شغلنا باتجاهات أخرى (ثانوية) مثل البحث فيما يجب أن تكون عليه المقدمة ، وفي كيفية سرد الوقائع ، ومعالجة كل جزء من أجزاء الخطبة . لأن هذه الوسائل ليس لها من هدف إلا تسكين ذهن القاضي في شكل خاص ، أما ما يتعلق بالأدلة الخطابية فانهم (أى الذين تحدثوا في الخطابة) لم يوضحوا شيئاً فيها مع ان الأدلة هي وحدها التي تمكننا من صوغ الأفيصة المضمرة Enthymèmes

١٠ - وعلى الرغم من أن الخطابة الاقتصادية الخملية (١) والخطابة القضائية (٢) تخضعان لطريقة واحدة ، وعلى الرغم من أن الفصاحة على المنصة أجمل وأروع وأدخل في باب السياسة من الخطابة التي تتعلق بالعقود والمعاملات (٣) فان من يتكلمون في الخطابة يغفلون النوع الأول (الخطابة الخملية الاقتصادية) (٤) ويتوفرون على معالجة فن المرافعة . ومرد هذا إلى

(١) مسمى ابن رشد هذا النوع من الخطابى « الخطابية التي تكون على جهة الارشاد والتعليم » وسماها في موضع آخر « المشاورية » ص ٧٦٦

(٢) مسمى ابن رشد هذا النوع « الخطابية التي تكون على جهة التشاجر والتنازع » وسماها في موضع آخر « المشاجرية » ص ٧٦٦

(٣) سماها ابن رشد « الصنف الخسيس والامور السوقية » ص ٦

(٤) ما بين القوسين من زيادتنا للايضاح .

الفرق بين الخطابة القضائية ذات المنفعة الخاصة ، وبين الخطابة الحماسية (الحملية والأفناعية) ذات المنفعة العامة ، فإن هذا النوع الأخير يعنى بتقرير الواقع أكثر من العناية بالنواحي البعيدة عن الموضوع ، وهو بعد ذلك بعيد عن المداورة والخبث .

✓ إن المستمع في الخطب العامة الحماسية حكم وخصم في آن واحد ، والخطيب ليس له إلا أن يبين للمستمع أن الأمور التي يعرضها عليه لا تختلف في صورتها عن تقديره لها . أما في المسائل القضائية فلا يكفي هذا وحده بل يجب ، قبل الوصول إلى صلب الموضوع أن يستولى الخطيب على مشاعر المستمعين ، لأن القضاة إنما يصدرون أحكامهم في أمور لا تمسهم ولا دخل لهم فيها ، وهم إذا استسلموا للخصمين المتقاضين على السواء لا يؤدون وظيفة قضائية بهذا الاستسلام ، بل يستسلمون مطاوعة لميولهم الخاصة ، وهم ينصتون للرافعات لما يستشعرون من لذة في سماعها ، ولقد سبق أن قلت مراراً إن القانون يحرم الخروج على الموضوع ، وهي قاعدة محترمة في الخطب الحملية والاستشارية إلى حد كبير .

١١ — لاشك أن المنهج في الخطابة يستند إلى الأدلة ، والدليل برهنة لأننا إذا قبلنا دليلاً من الأدلة افترضنا أنه فُرع من البرهنة عليه .

ومن ناحية أخرى ، البرهنة الخطائية هي القياس المضمر ، والقياس المضمر هو أرق الأدلة وأفضلها . والقياس المضمر نوع من القياس العام . وكل الأقيسة ناشئة من الجدل في عمومته أو في بعض أجزائه . فالذي يستطيع إذن أن يتصرف في أصل تركيب القياس (أى في المنطق والجدل) يستطيع أكثر من غيره أن يؤلف القياس المضمر وبخاصة إذا كان على علم بالأشياء التي تحمل عليها الأقيسة المضمرة ، وبالفوارق والفصول بينها وبين الأقيسة المنطقية .

ومن المؤكد أن اعتبار هذا الشيء حق ، وهذا الشيء محتمل الصحة (شذيه بالحق) يرجع إلى قوة نفسية واحدة في الإنسان ، وفي الوقت نفسه إن الناس قادرون بفطرتهم على تصور معنى الحقيقة إلى حد كبير . وفي معظم الأحيان يوفقون إلى إدراكها ، وكذلك الإنسان الذي في إمكانه أن يدرك المحمودات ^(١) إدراكا تاما لا يصعب عليه أن يتعرف على الحقيقة . فأنت ترى إذن أن الخطباء الآخرين يعنون بمادة الموضوع ولا يعنون بالسبب وتراهم يمحنون دائما إلى ناحية النوع القضائي ولا يعنون بغيره .

١٢ - الخطابة نافعة ومفيدة : أولا لأن الحق والعدل يؤثران على الباطل والظلم ، ولو أن قرارات القضاة جانبت العرف والتواضع لنشأ عن ذلك بالضرورة تغلب الباطل والظلم وتلك نتيجة موجبة للوم . وثانيا ليس من السهل أمام غمرة من الناس أن نقنع السامعين ، متوسلين إلى هذا الاقتناع بالعلم حتى ولو اعتمدنا على أدق العلوم ، لأن المقالة العلمية أو القول العلبي مستمد من النظر وهو أمر يصعب تطبيقه ، فمن الثابت أنه لا يمكن الأتيان بالأدلة والبراهين إلا إذا وقفنا عند حدود المواضع العامة Lieux Communs وذلك ما قررناه في كتاب الجدل (الطوبيقا) « Les Topiques » عندما تناولنا الكلام على كيفية مخاطبة الجماهير .

زد على ما تقدم أنه يجب أن يكون الخطيب قادرا على أن يقنع في المتضادين للقضية المعروضة ، كما يحدث في عكس القضايا المنطقية ، لا بقصد

(١) الكلمة الموجودة في الترجمة الفرنسية Plausible يمكن ترجمتها بالمقبولات وبالمسلّمات ولكننا آثرنا كلمة « المحمودات » لأنها من مصطلحات ابن رشد وهي تتفق كثيرا مع المقبولات . ابن رشد ص ٦٠ ، رويل ٧٩ هامش (١)

تقرير وتبرير الباطل والظلم ، فذلك ما لا بد من الابتعاد عنه ، ولكن لمعرفة عرض المسائل كما هي (١) حتى نستطيع أن ندفع حجج المتطاولين على العدالة من بعض الخطباء .

إن الخطابة والجدل يفتردان من بين الفنون الأخرى بالاتجاه إلى العكس (عكس القضايا) فهما يفترضان وجود الأضداد ، وليس هناك فن آخر غيرهما يستطيع أن يصل بمعونة القياس المنطقي إلى نتيجة عكسية . ومع أن الموضوعات المتعلقة بالخطابة والجدل ليست جميعها خاضعة لظروف واحدة فإن ما هو حق وما هو حسن بطبعه يلتزم دائماً أكثر من غيره مع القياس . وبعبارة مختصرة يكون أيسر من غيره في البرهنة عليه . وأخيراً يكون من غير المعقول بل من سخرية الانسان بنفسه أن يستحي من الاستعانة بجوارحه وأن يحرم الكلام ، تلك الخاصية التي تميزه أكثر مما تميزه ببقية جوارحه عن غيره من المخلوقات (٢) .

١٣ — والآن إذا اعترض معترض بأن الاتجاه إلى القوة الكلامية بغير حق يؤدي إلى الإيذاء ، قيل إن هذا لا يرد — إذا استثنينا الفضيلة — على كل هو خير ومفيد كالقوة والصحة واليسار والقيادة العسكرية (السلطان) فهذه كلها وسائل للعمل قد تؤدي إلى خير كثير لو حسن الانتفاع بها ، وقد تؤدي إلى كثير من الشرور لو أسئء تطبيقها (٣) .

١٤ — لقد استبان من ذلك أن الخطابة لا تنتمي إلى نوع بذاته ولكنها تسلك مسلك الجدل في أنها تنظر في المتقابلين على السواء أن وقد اتضحت

(١) أي حتى نعرف المفاجآت التي يهاجم بها الخصوم ، وكثيراً ما يكون الشيء نافعاً في وقت ويكون ضده نافعاً في وقت آخر (٢) هذا المعنى من المعاني التي ألح عليها الجاحظ كثيراً في البيان والتبيين . (٣) أي فالخطابة كغيرها من بقية الفنون .

منفعتها ، غير أن مهمتها ليست الإقناع الضروري بقدر ما هي في كشف
 المقنعات وما يحتمل أن تكون عليه الأمور بالقياس إلى كل مسألة من
 المسائل وإن لم يقع بها إقناع . والحال في هذا كالحال في بقية الفنون : فالطب
 مثلاً ليست مهمته أن يمنح الصحة ضرورة ، ولكنه يستهدف هذا الغرض
 بقدر المستطاع ، لأنه يجوز أن المحرومين من نعمة الصحة يظفرون على
 رغم هذا بعناية مجدية تؤدي إلى تحسن حالتهم (١) . وزد على ذلك أن
 مهمة الخطابة هي التمييز بين ما هو محتمل ، وبين ما ليس له إلا مظاهر
 الاحتمال ، وكذلك الأمر في الجدل فإن مهمته التمييز بين القياس وبين
 ما يبدو في شكل قياس ، لأن القياس إذا كان سوفسطائياً (مغالطاً) فمغالطته
 ليست عن مقدرة وملك في السفسطة أو في السوفسطائي ، بل عن القصد الذي
 ينطوي عليه المغالط ، غير أنه في الحالة التي نحن بصدددها يكون الإنسان خطيباً
 بالعلم ، ويكون سوفسطائياً بالقصد والتعمد ، وجدلياً لا بالقصد ولكن
 بالمقدرة والملكة .

١٥ - ولنحاول بعد ذلك أن نعرض للنهج الخطابي نفسه مبيينين
 الوسائل إلى الهدف الذي نرمي إليه ، ولناخذ في تحديد الخطابة وفي بيان
 أسسها ، وبعد ذلك نسير فيما يشغلنا من بقية الأمور المتعلقة بها .

(١) أي ويجوز أن يرى ما ليس بطبيب ويقنع ما ليس بخطيب !

الفصل الثاني

ملخص الفصل

في هذا الفصل يدخل أرسطو في موضوعه : فيحدد الخطابة ويعرف بما تتكون منه الأدلة كاحتمالات والعلامة والمثل . فالخطابة هي القدرة على النظر في كل ما يوصل إلى الإقناع في أى موضوع من الموضوعات ، فليس للخطابة موضوع معين كموضوع الطب (الصحة والمرض) وموضوع الهندسة (الأشكال) ولا بد لها من البحث عن الأدلة ، وبعض أدلتها خارج عن صنع الخطيب (كالشهود والتعذيب والاتفاقات والالتزامات) وبعضها من صميم الفن وعمل الخطيب وهو الأدلة المسماة بالتصديقات . وهذه الأدلة التي تقوم عليها الخطابة أنواع ثلاثة :

١ — أخلاق الخطيب نفسه وسمته وسمعته ، فهي تبعث الثقة وتوجه الاهتمام إلى ما يقول .

وأرسطو هنا يبدو بأخلاقه رجلا فاضلا لا يفصل الخطابة عن الخلق فالصفات الخلقية التي يمتاز بها الخطيب (أو المدافع) لها أكبر الأثر في الإقناع .

٢ — السامعون ولهم أهميتهم في تكوين الأدلة فلا بد للخطيب من درس الانفعالات إلى جانب دراسة الأخلاق .

٣ — الخطبة نفسها إذا كانت تصديقا في حقيقتها أو في ظاهرها ، وإذا كانت أدلتها معتمدة على وقائع ثابتة أو غير ثابتة ، فأرسطو في هذا الباب يشترط في الخطيب أو في المدافع أن يكون عالما بالأدلة ، عالما بالأخلاق (ومنها السياسة المدنية) عالما بالميول والانفعالات ، ومن هنا نفهم لماذا تلبس الخطابة ثوب السياسة ، ويستوى في هذه الأمور الصالحاء والادعياء .

ووسائل الاستدلال واحدة في المنطق والخطابة ، فالأول يعتمد على الاستقراء

« والقياس » والثانية تعتمد على « المثل » وما المثل المنحدر من الاخلاق والتقاليد
إلا نوع من الاستهزاء . وتعتمد أيضا على « القياس المضمر » الذى هو فى الحقيقة
قياس منطقي أو شبيه به فى كثير من الوجوه ، والخطب المشتعلة على الأمثال ليست
أقل إقناعا من المشتعلة على القياس المضمر وإن كان الأخير أدخل فى الإقناع من
حيث الاستيلاء على مشاعر السامعين . والمحتملات تصلح موضعا للاستدلال
الخطابي ولكنها المحتملات العامة لا المحتملات الفردية التى تنطبق على حال فرد
دون فرد . والموضوعات التى تتناولها الخطابة هى الموضوعات القابلة للمناقشة ،
أى الموضوعات التى لا تتعرض لحلها قواعد علمية ، والموضوعات التى تعرض
أمام جمع غير قادر على الاستدلال السريع المتصل الحلقات ، وكل مسألة قابلة
لحلين أو أكثر ، قابلة للمناقشة ويكون مجالها الخطابة . أما الأمور التى لا يمكن
أن تكون على غير ما هى عليه فتناقشتها لا تجدى .

يفسر بعد ذلك « القياس المضمر » بأنه القياس المؤلف من مقدمات أقل
عما تستعمل فى القياس المنطقي ، فهو القياس الذى تكون إحدى مقدماته معلومة
فيضمرها الخطيب ويستغنى بالأضمار عن الذكر ، ومقدمات « القياس المضمر »
إما ضرورية وإما محتملة ، وأكثرها يؤخذ من مناقشاتنا وملاحظاتنا التى تقبل
حولا مختلفة ، فما يسميه قياسا مضمرا أساسه المحتملات والإشارات ، وما يسميه
الإشارة أو الإشارة الدالة هو ما يصلح أن يكون مقدمة للقياس المضمر . وتؤخذ
مقدمات القياس الخطابي من العلوم أيضا ، ولكن النتائج المستخلصة من مقدمات
خاصة بنوع أو جنس ، لها خصوصيتها ونوعيتها ، فهناك مقدمات فى الطبيعة
لا يمكن أن يستخلص منها قياس عام أو مضمر فى الأخلاق مثلا .

تعريف الخطابة — الاحتمال — العلامة — المثل

١ — الخطابة هي القدرة على النظر في كل ما يوصل إلى الإقناع في أية مسألة من المسائل . وتلك خاصة لا توجد في أى فن من الفنون الأخرى لأن غاية كل فن التعليم والإلزام بكل ما يتعلق بموضوعه .

فالطب مثلا يتعلق بالصحة والمرض ، والهندسة تتعلق بالمقادير وحالاتها المختلفة ، والحساب يتعلق بالأعداد ، وقس على ذلك سائر العلوم والفنون (فإن غايتها التعليم وتصديق القواعد والتزامها) .

أما الخطابة فموضوعها النظر في أية مسألة من ناحية ما يوصل إلى الإقناع ؛ وهذا يحملنا على القول بأنها لا قواعد لها تطبق على نوع من موضوعات معينة .

٢ — وأما الأدلة فبعضها مستقل عن الفن ليس من صنعنا ، وبعضها الآخر تابع له (أى من عملنا واختيارنا) فالأدلة الأولى لا دخل لنا فيها لأنها سابقة على تصرفاتنا : مثل الشهود في القضية والتعذيب والاتفاقات المكتوبة وغير ذلك من العناصر التي تتفق مع طبيعة ما ذكرنا .

أما الأدلة التابعة للفن فهي كل ما يمكننا جمعه بأنفسنا على هدى المنهج الموضوع . فعندنا إذن ما يمكننا من الاستفادة من الأدلة الأولى (كالاتجاه بالأمثلة السائرة التي وضعت واشتهرت) وعلينا أن نهيء الأدلة الثانية (التصديقات) .

٣ — الأدلة التي تقوم عليها الخطبة ثلاثة :

(١) ما يتصل باخلاق الخطيب نفسه .

(٢) وما يتصل باستعداد السامعين .

(٣) وما يتصل بالخطبة نفسها إذا كانت استدلالية في حقيقتها
أو في ظاهرها .

٤ - أخلاق الخطيب نفسه تنتهي به إلى الإقناع حينما تكون الخطبة
محضرة بشكل يبعث على الثقة ويملاً نفس الخطيب بالطمأنينة . وسنوجه
اهتمامنا إلى رجال الخير (من الخطباء الأخلاقيين) في جميع ما نعرض له
من مسائل ، وبخاصة فيما يكون منها معقداً غامضاً . ومع ذلك يجب أن نحصل
على هذه النتيجة (كون الخطبة مقنعة) بقوة الكلام لا بالتهجيز الذي
تمحاز به لمصلحة الخطيب ، وليس صحيحاً أن نقول بقالة هؤلاء الذين
كتبوا في الخطابة من أن أمانة الخطيب ونزاهته لا دخل لها في الإقناع ،
فإننا نقرر - على عكس ما يقولون - أن للصفات الخلقية التي يمتاز بها
الكلام أكبر الأثر في قوة الإقناع .

٥ - إن لاستعداد السامعين أهميته حينما تهيج الخطابة من انفعالهم ،
وأحكامنا في هذه الناحية تختلف باختلاف المشاعر المثارة من حزن
أو سرور أو حب أو كراهية . وهذه هي النقطة الوحيدة التي عالجها
هؤلاء الذين يكتبون اليوم في موضوع الخطابة كما قدمنا (١) وسنتناول
المسألة بالتفصيل حينما نتكلم على الانفعالات (٢)

٦ - وأخيراً ندرك غاية الإقناع بالخطبة نفسها حينما ندلل فيها على
الحق ، أو على ما يشبه أن يكون حقاً تدليلاً تفصيلياً معتمداً على وقائع ثابتة .
٧ - ومتى حصلنا على الأدلة بهذه الوسائل الثلاث المتقدمة كان من
الواضح أن استعمال هذه الوسائل ميسر لئلا من يستطيع أن يصوغ

(١) راجع الفقرة الرابعة من الفصل الأول .

(٢) الانفعالات موضوع الكتاب الثاني .

الأقيسة . ويقدر على النظر فيما يتصل بالأخلاق والفضيلة ، ويعرف الميول والانفعالات معرفة تجعله يميز بين طبيعته كل ميل على حدة في خصائصه وظروف نشأته . ويتبع هذا أن تكون الخطابة بمثابة فرع من فروع الجدل أو فرع من دراسة الأخلاق يستحق أن يطلق عليه اسم السياسة ، ومن هنا نفهم لماذا تلبس الخطابة ثوب السياسة وتشكل بشكلها ، وكذلك يفعل أدعياءها مدفوعين إما بالجهالة أو بالزهو أو بأى دافع آخر من الدوافع النفسية .

إن الخطابة كما سبق أن قررنا بديها تشبه الجدل بل هي جزء منه (١) وهما لا يتضمنان في ذاتهما معرفة مسائل معينة ، ولكن لكل منهما وسائل تستمد منها البراهين ، ومن هنا جاءت قوتهما وكان تساندهما ، ولقد تحدثنا عن هذا بما فيه الكفاية .

٨ — وسائل الاستدلال الحقيقي (الإثبات) والظاهري (الإبطال) في الخطابة كما في الجدل هي الاستقراء ، والقياس الحقيقي ، والقياس الظاهري . وفي الحقيقة إن المثل استقراء ، وإن القياس المضمحل قياس ، وأقصد بالقياس المضمحل (٢) القياس الخطابي كما أقصد بالمثل الاستقراء الخطابي ، وكل الناس يصطنعون الأدلة معتمدين إما على المثل وإما على القياس المضمحل ولا شيء بعد ذلك . وبما أنه من الضروري أننا نستعين إما بالقياس وإما

(١) في ترجمة « ثوروت » ما يأتي « الخطابة قسم من السياسة ، وهي شبيهة بالجدل بل شبيهة بتحليل القياس » رويل ص ٨٤ هامش (٢)

(٢) القياس المضمحل هو قياس منطقي حذفت إحدى مقدماته « رويل » ص ٨٥ هامش (١) ومثل القياس المضمحل « هذا يدور بالليل فهو لص » حذف المقدمة الثانية « كل من يدور بالليل فهو لص » وإنما كان القياس المضمحل أصح للخطابة مخافة أن تناقض المقدمة المحذوفة فيسقط الدليل الخطابي .

بالاستقراء لإقامة البرهان الخاص بحادثة من الحوادث أو بشخص من الأشخاص - وهما الاحتمالان اللذان تحدثنا عنهما في كتاب «تحليل القياس» - تبع ذلك أن هاتين الوسيلتين (في الخطابة) تماثلان المقابل لهما (في الجدل) (١) ٩ - وقد بينا في كتاب الجدل (الطوبيقا) Les Topique الفرق بين المثل وبين القياس المضمّر ، فقد قررنا أنه حينما يعتمد دليل حادثة من الحوادث على حالات متعددة ومتشابهة ، فهناك مجال للاستقراء ، ونحن في هذه الحال أيضا بصدد «مثل» ، في الخطابة وحينما توجد أحداث حقيقية يظهر إلى جانبها حدث متصل بها اتصالا ما بسبب تعميم الوقائع وشمولها ، نكون في الجدل بصدد ما يسمى «بالقياس» ، وفي الخطابة بصدد ما يسمى «بالقياس المضمّر» (٢) .

١٠ - وجلي أن الخطابة تمتاح من هذا المعين المزدوج (المثل والقياس المضمّر) كما بيناه في كتابنا «المهيجيات» (٣) Les méthodiques وهي تستخدمهما بطريقة واحدة ، لأن بعض الخطب مملوء بالأمثلة ، والبعض الآخر بالأقيسة المضمّرة ، وكذلك الخطباء ، منهم من يؤثر استعمال المثال ، ومنهم من يؤثر الأقيسة المضمّرة ، والخطب التي تتحكم فيها الأمثلة ليست أقل إقناعاً من تلك التي تعتمد على الأقيسة المضمّرة ، ولكن الأخيرة

(١) الوسيلتان في الخطابة المثل والقياس المضمّر ويقابلهما في الجدل الاستقراء والقياس .
 (٢) «القياس والاستقراء يشتركان في أن كليهما يثبت أن هذا الشيء موجود كذا أو غير موجود كذا» من أجل وجود هذا الشيء أولاً وجوده في شبيهه . والمضمير والقياس يشتركان في أن كليهما قول بوضع فيه شيء فيلزم عنه شيء آخر « مختصر ابن رشد ص ٢١ .
 (٣) هذا الكتاب ضائع . انظر ترجمة بونافوس ص ٣٩٨ وانظر أيضاً بارتلمي دي سانت هليلر ص ٢١ (رويل) ص ٨٥ هامش (٥) .

تستولى على مشاعر السامعين أكثر من الأولى (١) .

١١ — أما فيما يتعلق بضرورة وجود البراهين وطريقة الانتفاع بها ، فسننتحدث عنه فيما بعد ، ونسكتفي الآن بأن نعرفهما (القياس المضمر والمثل) تعريفاً دقيقاً : كل مامن طبعه أن يقنع ، فهو صالح لإقناع مستمع ما ، وأحياناً يظهر الإقناع والاقناع بالطبيعة ظهوراً مباشراً ، وأحياناً ينتجان من الأدلة والبراهين المقنعة ، وليس هناك من فن يعالج ناحية فردية ، فالطب مثلاً لا يبحث عن علاج يناسب سقراط Socrate أو كالياس Callias ولكنه يبحث عن علاج شخص أو آخر في مجموعه ، إذا وجد على حالة ما من الصحة . هذه هي خاصية الفن ، أما الحالة الجزئية فلا يمكن تحديدها ، ولا تتناولها الطريقة العلمية . كذلك الخطابة لا تنظر فيما هو محتمل في حالة جزئية مثل حالة سقراط Socrate أو هيباس Hippias (٢) ولكنها تنظر فيما سيكون محتملاً بالنسبة إلى أفراد يوجدون في هذه الحالة أو تلك . والامر كذلك في الجدل حينما يؤلف الأقيسة فإنه لا يقيمها على الوقائع التي تبدو له ، أو على الوقائع الفردية ، إذ أن بعض هذه الوقائع تبدو أحياناً لأناس لا يعقلون ، بل يقيمها على أدلة عقلية . والخطابة تعتمد أيضاً على وقائع تقع عادة في مداولات الناس ومحاوراتهم .

١٢ — مهمة الخطابة هي معالجة موضوعات تستوجب المناقشة ، أي موضوعات ليس لحلها قواعد فنية (علمية) لأنها تعالج هذه الموضوعات أمام جمع من المستمعين غير قادر على الاستدلال التدريجي المتصل الحلقات

(١) عبارة ابن رشد « المثل في الخطابة أقنع من الضمير لأن الضمير يتطرق إليه العناد أكثر من تطرقه إلى المثال » ص ٢١ مختصر .

(٢) حاكم من حكام أثينا في نهاية القرن السادس ق م .

وغير قادر على تتبع الدليل البعيد المأخذ . والمسائل القابلة للمناقشة هي التي تحمل حلين متقابلين (الممكنات) أما الأمور التي لا يمكن أن تكون على غير ما هي عليه سواء أكانت في الماضي أم في المستقبل أم في الحاضر فلا تقبل المناقشة ، إذا اعتبرنا أنها ثابتة الأصل ، وأنها هي في أصلها ، لأن المناقشة ، في هذه الحال لا تجدى نفعا . (١)

١٣ — وأحيانا يكون الاستنتاج والاستدلال إما بوساطة مقدمات سبقت البرهنة عليها بقياس من الأقيسة ، وإما بوساطة مقدمات غير ناتجة عن قياس ولكنها تتطلبها لأنها ليست من الأفكار الشائعة ، ففي الحالة الأولى يكون الاستنتاج صعب التتبع طبعاً نظراً لطوله (إذ أننا نفترض ابتداءً أن الشخص المتعلق به الحكم ساذج بسيط) وفي الحالة الثانية لا تكون الاستدلالات مقنعة لعدم اتفاق الناس على مقدماتها من جهة ، ولعدم احتمال صحتها من جهة أخرى ، وذلك يقتضيها حتماً أن نلجأ إلى « القياس المضمّن » ، وإلى « المثال » ، في المسائل التي تحمل حلولاً متعددة ومختلفة ، فنلجأ إلى المثال من حيث هو مستقر ، وإلى « القياس المضمّن » من حيث هو قياس ،

(١) ابن رشد يعالج ما في الفقرات الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة معالجة تفصيلية خرج بها عن أصل النصوص ولكنها واضحة نذبتها هنا للفائدة :

« الضمير (القياس المضمّن) ترتب مقدماته الترتيب الذي هو معتمد عند الجمهور أن يقبل ، وذلك هو بخلاف الترتيب الصناعي (المنطقي والجدلي) فإن الناس يستريبون بالقول اللازم عن القول الصناعي ، ويرون أن ذلك لازم من جهة الصناعة لا من جهة الأمر في نفسه . وأيضاً فإن الترتيب الصناعي يقتضي أن يصرح فيه بجميع المقدمات الضرورية في بيان ذلك المطلوب ، والجمهور لا يستطيعون أن يفهموا لزوم النتيجة التي تلزم عن مقدمات كثيرة . . . وأيضاً . . . إن هذا الجمهور يأتي بمقدمة واحدة ثم يردفها بالنتيجة . وأيضاً فإن « الضمائر » لما كانت تصنع في الأكثر من في الأمور الممكنة ، وذلك بين في الأمور المشاورية فإنه ليس يشير أحد على أحد بأمر ضروري الوجود ولا بمنع الوجود . ص ٢٢ ، ٢٣ مختصر ابن رشد .

وهما مكوّنان من مقدمات قليلة أقل عادة من المقدمات المستعملة في الشكل الأول (في المنطق) . والحقيقة أنه عندما تكون إحدى المقدمات معلومة فليس هناك ما يدعو لذكرها أو إثباتها إذ أن المستمع يجد ما يحل محلها (فيضمرها) فمثلا إذا أردنا أن نستنتج أن دريوس Dorieus نال تاج النصر يكفي أن يقال إنه انتصر في الألعاب الأولمبية إذ ليست هناك فائدة في أن نقول إن المنتصر يمنح التاج إذ أن ذلك معروف لكل الناس .

١٤ - ونظراً إلى أن بعض المقدمات التي تستعمل في الأقيسة الخطئية هي مقدمات ضرورية (معظم موضوعات أحكامنا وملاحظاتنا يحتمل حلولاً مختلفة إذ أن ملاحظاتنا ومناقشاتنا تدور حول وقائع والوقائع كلها من هذا النوع الذي يقبل الحلول المختلفة فليس فيها ما هو ضروري الوقوع) ونظراً إلى أن المقدمات الشائعة والمحتملة تستنتج بالضرورة من مقدمات أخرى من نوعها ، وأن المقدمات الضرورية تستنتج من مقدمات ضرورية ، وذلك ما يبيّنه بوضوح في كتاب « تحليل القياس » يتضح إذن أن مقدمات الأقيسة المضمرة سيكون بعضها ضرورياً والبعض الآخر وهو معظمها كثير الوقوع فقط ، (أمور عادية) . وما نسميه في الحقيقة « قياساً مضمراً » ينتج من الأشياء الشبيهة بالحق (١) ومن « الاشارات » وهذه الأشياء والإشارات لا تخرج عن كونها إما ضرورية وإما كثيرة الوقوع (٢) .

(١) الأشياء الشبيهة بالحق هي التي سماها ابن رشد بالمحمودات ومثل لها بهذا المثال « ينبغي أن يحمد النعم وأن يساء إلى المسيء » ص ٢٥

(٢) ابن رشد يذكر « الدلائل » بدل هذه الكلمة « الاشارات » Les signes ويريد بالدلائل « الأشياء التي تدل على وجود شيء لشيء » ص ٢٥ مختصر . على أنه رجس فاستعمل كلمة « علامة » ص ٢٧ . ما بين القوسين في هذه الفقرة من زيادة « دوفور » قابل بين « دوفور » ص ٨٠ وبين « رويل » ص ٨٧ ، ٨٨

١٥ - المحتمل (أو الشبهة بالحق) هو ما يقع حدوثه في الغالب لا على الإطلاق كما يعرفه بعضهم ، والمحتمل في نسبته إلى الأمور الممكنة كالنسبة بين السكلى والجزئى .

١٦ - أما الأشارات (الدلائل) فمنها ما يمثل علاقة الجزئى بالسكلى ، ومنها ما يمثل علاقة السكلى بالجزئى ؛ والإشارة الضرورية هى ما تعرف بالـ تكمرىون Tekmêrion أى « الإشارة الدالة » ، وغير الضرورية لا تسمية لها .

١٧ - ونقصد بكلمة « ضرورية » القضايا التى تُستخدم مقدمات للقياس ، ولهذا سميت بالإشارة الدالة أى التى تصلح أن تكون مقدمة للقياس . وعندما نرى أن القضية لا يمكن نقضها ، لنا أن ندعى أننا بصدد (تكمرىون) أو دليل قد فرغ نهائيا من البرهنة عليه .

والمواقع أن كلمة تكمار Tekmar (إشارة دالة) (١) وكلمة براس Pêras (شئ انتهى منه وكل) كانتا مترادفتين فى اللغة القديمة .

١٨ - ومن بين الأشارات ما يمثل العلاقة القائمة بين الجزئى والسكلى (كما تقدم) فمثلا الدليل على أن الحكماء عدول هو أن سقراط كان حكيمًا وعادلا ، فهنا إشارة من غير شك ولكن من الممكن نقضها لأنه لا يمكن أن يؤلف منها قياس (سقراط حكيم وعادل) على رغم صحة القضية الجزئية . ولكن إذا قلنا مثلا إن إشارة (علامة) المرض الحمى وإشارة الولادة اللبن فمثلا هذه الإشارة ، ضرورية ، والإشارة الضرورية هى الإشارة الدالة

(١) فى المفردات التى استعملها ابن رشد كلمة « الأشبه » وهى تنطبق كثيرا على هذه « الإشارة الدالة » ولعلها لدلائلها أشبه بالحقبة ص ٢٧

(تكمريون) من بين جميع الإشارات ، لأنها الوحيدة التي إذا كانت حقيقية لا يمكن نقضها .

وهناك إشارات تمثل العلاقة بين الكل والجزئ كما إذا قلنا إن التنفس السريع علامة الحمى ، فتلك قضية قابلة للنقض برغم أن الأمر في بعض حالاتها صحيح ، إذ من الجائز أن يحدث التنفس السريع بغير الحمى (من التعب مثلا) . مما تقدم استبان أن طبيعة الاحتمال وطبيعة الإشارة وبخاصة الإشارة الدالة ، كما استبان وجوه الفرق بينهما . وقد قررنا ذلك بوضوح في كتاب « تحليل القياس » كما قررنا أيضا صلاحية بعض القضايا للقياس ، وعدم صلاحية البعض الآخر له .

١٩ — سبق أن قلنا إن المثال استقراء ، وبيننا الأمور التي يتناولها هذا الاستقراء . فالمثال لا يمثل العلاقة . بين الجزئ والكل ، ولا العلاقة بين الكل والجزئ ولا هذه التي تكون بين الكل والكل وإنما يمثل العلاقة بين الجزئ والجزئ فقط وبين المثل والمثل عند ما يضمهما جنس واحد ولو أن أحدهما معروف أكثر من غيره . فمثلا « دنيس » ، Denys يرنو إلى الطغيان لأنه يطلب حرسا له ، والواقع أن « بيسسترات » ، Pisistrate عند ما طلب الحرس قبله كان مدفوعا بدافع الطغيان وقد طغى فعلا بعد ما سمح له بالحرس . وكذلك كان أمر « تياجينوس » ، Théagène في مغارة Megare (بلدة) وكذلك كان شأن غيرهما من الطغاة الذين أصبحوا مثالا لدنيس . وعلى الرغم من أننا لا نعلم إذا كان طلب « دنيس » للحرس صادرا عن دافع الطغيان أم لا ، فالقضية ممكنة على الأكثر ، وكل هذه الحالات الجزئية يضمها معنى عام يمكن أن يكون نتيجة ، وهي أن كل من يتطلع إلى الطغيان يطلب حرسا .

وها نحن أولاء قد بينا العناصر التي تتألف منها الدلائل والمحمودات والعلامات .

٢٠ - سبق أن تكلمنا عن المصادر والعناصر التي نستمد منها الأدلة ، وتكلم الآن عن الفروق بين الأقيسة المضمرة . ومعظم هذه الفروق التي تجعلها عامة الخطباء تقريباً هي الفروق التي توجد بين الأقيسة المنطقية الخاصة بالمنهج الجدلي . فبعض هذه الأقيسة له نفوذه في منطقة الخطابة ، والبعض الآخر له نفوذه في منطقة الجدل ، وغيرها من الأقيسة له نفوذ في فنون واتجاهات أخرى ، وبعضها قد عرف ، وبعضها لمّا يعرف ، ومتى عالجنا موضوعنا حسب المنهج الخاص به استطعنا أن نفهمها بوضوح . وسنتناول هذا الموضوع بتوسعه ليتضح ما نقرره هنا .

٢١ - الأقيسة الجدلية والأقيسة الخطابية هي هذه الأقيسة التي نحددها حينما نتحدث عن «المواضع» (١) ، وهذه المواضع تتصف بالعموم في كل من مسائل القانون ومسائل الطبيعة والسياسة وغيرها من المسائل المختلفة : فمثلاً «موضع» الأقلية والأكثرية ، يمكن أن يستنتج منه قياس عام أو مضمّر في القانون أو في الطبيعة أو في أي علم آخر على اختلاف أنواع هذه العلوم ، أمّا النتائج المستخلصة من مقدمات خاصة بنوع أو جنس ، فلها خصوصيتها ونوعيتها : فهناك مقدمات في الطبيعة لا يمكن أن نستخلص منها قياساً عاماً أو مضمّراً في الأخلاق مثلاً ، كما أن هناك مقدمات

(١) كلمة «المواضع» وهي ترجمة كلمة Lieux الفرنسية موجودة في المادة القفوية التي استعملها ابن رشد ص ٣٠ مختصر . فهو يقوله «وكما كان القول أكثر عموماً كان أكثر موثوقاً وتأنياً لأن يستعمل في أشياء كثيرة» وكما كان أقل عموماً كان أحرى أن يكون جزءاً من صناعة مخصوصة ، ولذلك كانت «المواضع» أعم من القياسات الخطبية والقياسات الجدلية .

في الأخلاق لا يكن أن نستخلص منها قياسا مضمرا أو عاما في علم الطبيعة ، وهكذا الأمر في بقية العلوم .

أما « المواضع العامة » ، فإنها لا تجعل من الشخص إحصائيا في علم من العلوم لأنها غير متصلة بموضوع خاص على خلاف الجهات الخاصة (المواضع الخاصة) . ومتى حسن اختيار هذه المواضع الخاصة استطعنا أن نوجد علما لا هو بالجدل ولا بالخطابة ، لأنه لو عثر عرضا على مبادئ أولية مقررة ومعروفة ، فلسنا بصدد جدل أو خطابة وإنما نحن بصدد علم بعينه استعرنا منه هذه المبادئ .

٢٢ — معظم الأقيسة المضمرة تستخلص مقدماتها من « المواضع الخاصة » ومن عدد قليل من « المواضع العامة » ، فالواجب إذن في الخطابة — كما هو الشأن في الطويقا Topiques — أن نفرق بين الأجناس والمواضع التي تستخلص منها الأقيسة المضمرة ، ونقصد بالأجناس المقدمات الخاصة بكل جنس ، كما نقصد بالمواضع المقدمات التي تنطبق بشكل واحد على كل الأجناس . ولنعرض إذن للأجناس والأنواع حتى نستطيع بعد تقسيمها وتمييز بعضها عن بعض أن نتعرف العناصر المنطقية ومقدماتها لكل نوع على حده .

الفصل الثالث

ملخص الفصل :

في هذا الفصل يقسم أرسطو الخطابة إلى أقسامها الثلاثة : الاستشارية والقضائية والاستدلالية ، فهو يبتدىء الفصل بتقسيم عناصر الخطبة وهي ثلاثة : الخطيب والسامع والموضوع ثم يجعل من السامع شخصيات متعددة فهو إما رجل عادي ، أو غير عادي ، والأخير هو القاضى ، وقد يحكم في أمور سبق حصولها ، وقد يقضى أو يشير في أمور مستقبلية ، فمن يقضى في أحكام ماضوية يكون بصدد خطب قضائية ، ومن يقضى في أحكام مستقبلية يكون بصدد خطب مشاورية أو حملية ، ومن يقضى في أمور حاضرة فهو بصدد خطب استدلالية ، فالتقسيم مبنى على الزمن . ولكل نوع من هذه الأنواع غاية وغرض ، فالخطب الاستشارية غرضها النصيحة أو التحذير ، والخطب القضائية غايتها الاتهام أو الدفاع ، والاستدلالية تهدف إلى المدح أو الذم . والنصح والتحذير يهدفان إلى النافع أو الضار ، والدفاع والاثم يهدفان إلى العدل أو الجور ، والمدح والهجوم يهدفان إلى الحسن أو القبح ، وهما غايتان جماليتان ابتداءً يمكن أن يعتمد عليهما الأدب كله لا الخطابة وحدها . ولكل من هذه الأنواع الخطبية الثلاثة مقدمات خاصة بها لتكوين الأدلة وترتيب النتائج ، وبمجال هذه المقدمات الممكنات ، والمستحيلات أحياناً لبيان وجه استحالتها ، وعماد تكوين الأقيسة في ذلك العلامات والأشارات الدالة والمحتملات ، وعند تكوين الأدلة يجب الالتفات إلى ما هو عظيم وحقيق بالإطلاق ، أو بالمقايسة ، وإلى ما هو كثير أو قليل بالإطلاق ، أو بالمقايسة .

أنواع الخطابة الثلاثة - الاستشارية - القضائية - الاستدلالية^(١)

١ - الأنواع الخطابية ثلاثة ، لأن صنوف المستمعين ثلاثة ، ولأن العناصر المكونة لكل خطبة ثلاثة ، والعناصر هي :

(١) الخطيب (٢) الموضوع (٣) السامع . والغاية في الخطابة تتعلق بعنصرها الأخير أى السامع .

٢ - والسامع إما أن يكون قاضيا وإما مستمعا عاديا ، كذلك القاضى إما أن يقضى فيما يتعلق بالماضى أو فيما يتعلق بالمستقبل ، فمن يقضى فى مسائل ماضوية هو القاضى ، ومن يقضى للمستقبل هو عضو المجامع العامة مثل L'Assemblée ، ومن يحكم على مقدرة الخطيب هو المستمع العادى .

٣ - فهناك أنواع ثلاثة للخطابة بطبيعة الحال : الخطابة الاستشارية (الحملية) والخطابة القضائية ، والخطابة الاستدلالية أى خطابة المدح والذم . ولكل نوع من هذه الأنواع اتجاه خاص .

فالخطابة الاستشارية يتوجه فيها الخطيب إلى السامعين بالنصيحة أو بالتحذير^(٢) ويلاحظ دائما أن هؤلاء الذين يتقدمون برأى لمنفعة خاصة أو الذين يخطبون الجماعات فى فكرة عامة لا يخرجون عن هذين الأمرين (النصيحة والتحذير) . والخطبة القضائية تتوجه إما إلى الاتهام وإما إلى

(١) ابن رشد يقسم القول الخطي ثلاثة أقسام « مشوري » (الخطبة الاستشارية) ومشاجري (الخطبة القضائية) وتنبئي (الخطبة الاستدلالية فى المدح والذم) ص ٣٢ مختصر (٢) فى تعبير ابن رشد « الأذن والمنع »

الدفاع (١) ومهمة المتقاضين لا تخرج بالضرورة عن القيام بواجب من هذين . أما النوع الثالث (الاستدلال) فإنه يتوجه إما إلى المدح وإما إلى الذم .

ولكل نوع خطابي زمنه ، فالمستقبل هو ما يرى إليه الناصح المشير ، ففي الاستشارات (المداولات) ما سيحدث هو مدار الخطابة الاستشارية ، والمستقبل تكون النصيحة ، وفي المستقبل يكون التحذير . والماضي هو ما يتجه إليه المدافع (المترافع في القضية) فالإتهام يكون بعمل قد وقع ، والدفاع يكون عن أمر قد حصل . أما الخطابة الاستدلالية فأنها تتصل أساسا بالزمن الحاضر ، فالخطباء يمدحون ويذمون حوادث ماثلة أمامهم ، وهذا لا يمنع أننا كثيرا ما نلجأ إلى الماضي نستمدد الدليل أو إلى المستقبل لنفترض وقوعه .

هـ - ولكل نوع من هذه الأنواع المتقدمة غاية تختلف عن الأخرى ، فلأنواع الثلاثة ثلاث غايات : فالناصح والمحذر هدفهما النفع والضرر ، لأن الناصح يعرض ما يتقدم به كما لو كان هو الأصلح ، ولأن المحذر يعرض ما يرى فيه الضرر كله ، وما رواء النفع والضرر من شتى الاعتبارات كالعدل والظلم والحسن والقبح الخلقين مرده إلى هذين الهدفين . والمتقاضون والمترافعون يهدفون للعدل والجور وعليهما يحمل كل ما يقال . أما المادحون والهاجون فهدفهما الحسن والقبح الخلقين وإليهما ترجع بقية المسائل المتعلقة بهما .

ودليل أن لكل نوع من هذه الأنواع هدفه الذي يبينه هو أنه كثيرا

(١) في تعبير ابن رشد « الشكاية والتنصل »

ما يهمل الخطيب الكلام فيما وراء غايته : فشلا المدافع أمام القضاء لا يبحث دائماً في حقيقة ما حدث ، ولا فيما سببه من البوار والخسارة ، ولا يعترف بالادانة أبداً ، لأنه لو اعترف بها لما كان هناك مجال للقضية . (١) كذلك الناصحون المشيرون يهملون غالباً ما عدا النصيح ، وهم لا يستطيعون الاعتراف بأن نصيحهم ضار ، أو أن ما يحملون الناس على رفضه نافع ؛ وهم يبرهنون على أنه ليس من الظلم في شيء أن تستعبد الأمم المجاورة ولو كان فيهم برءاء . ذلك ما لا يعينهم في غالب شئونهم .

كذلك الذين يهدفون إلى المدح والذم لا يبحثون فيما إذا كان ما يصدر عن ممدوحهم أو مذمومهم يعود بالنفع أو بالضرر (لأن غايتهم الحسن والقبح) . وكثيراً ما يمجّدونه ويثنون عليه لأنه احتقر منفعة خاصة في سبيل الاستجابة لعمل من الأعمال الحسنة فهم يمدحون أخيل (٢) Achille مثلاً لأنه انتقم لصديقه باتروكل Patrocle وأخيل يعلم أنه كان سيقلى حتفه حتماً ، وكان في إمكانه أن يعمل على بقاءه . لأن الموت في هذه السبيل كان أجمل في نظره من الحياة ، فالموت في ساحة الشرف جميل ، وكانت المنفعة في استبقاء حياته (فأخيل أثر العمل الجميل على المنفعة الخاصة) (٣) .

٧ — يتضح مما سبق أنه يلزم بديهاً أن تكون مقدماتنا في هذه الموضوعات المختلفة منصبة على هذه الغايات (٤) ومقدمات الخطابة هي الإشارة الدالة والمظنونات . والقاعدة العامة هي أن القياس

-
- (١) أي أن غاية الخطيب هنا إثبات أف هذا عدل أو ظلم . أما أنه نافع أو ضار أو أن هذا العمل حسن أو قبيح فذلك مالا يقع في حسابه (٢) الألباذاة XVI11 (٣) لأن الغرض من خطب المدح والذم هو الحسن والقبح لا المنفعة . (٤) هي الجمال والعدالة والنفع (تعليق سانت هيلر) .

يستخلص من مقدمات حقيقية ، وأن القياس المضمّر (المطلوب في الخطابة) هو القياس الذي يستخلص من المقدمات سابقة الذكر (المحتملات والإشارات أو العلامات) .

٨ - وبما أن الأمور المستحيلة لا يمكن أن تكون قد حدثت في الماضي ، كما لا يمكن حدوثها في المستقبل بخلاف الأمور الممكنة ، وبما أن الأمور غير الموجودة وغير الممكن وجودها لا يمكن أن تكون قد حدثت في الماضي ، أو أن تحدث في المستقبل ، فالمستشار والمتقاضى والمادح أو الذام يجب أن يعدوا المقدمات الخاصة بالممكن وبالمستحيل (١) كأن يتساءلوا عما إذا كان هذا الأمر قد أمكن وقوعه أم لا ، أو يمكن وقوعه أم لا .

٩ - وبما أن الخطباء - في ذمهم ومدحهم ، ونصحهم وتحذيرهم ، واتهامهم ودفاعهم - يحاولون أن يتعدوا هذه النواحي إلى إثبات الخير والشر ، والحسن والقبح ، والعدل والظلم ، في درجاتها المختلفة من العظم والقلة ، والإطلاق والمقايضة ، وجب أن يعدوا المقدمات عن العظمة والحقارة والكثرة والقلة ؛ ويبحثوا عن الكلية والجزئية ، كأن يناقشوا أى خير ، أو أية مخالفة ، أو أى فعل مشروع ، يتصف بالعظمة أو بالحقارة . وقس على ذلك سائر الأمور .

بينما فيما سبق المقصود بالمواضع التي يلزم الخطيب أن يستمد منها مقدماته . وبقي علينا أن نفرق بين المقدمات الخاصة بكل نوع من أنواع الخطابة ، أى نبين على أى المقدمات تقوم المشورة ، وعلى أيها تدور الأقوال الاستدلالية ، وماهى مقدمات الأفعال القضائية في النهاية .

(١) لبيان استحالة عدم إمكان وقوعه .

الفصل الرابع

ماتخصى الفصل :

في هذا الفصل يحاول أرسطو أن يلم بالمقدمات الضرورية للخطابة الاستشارية . فقد رأينا أن غايتها النصيحة والتحذير ، وهما لا يكونان إلا في مجال الخير والشر الذي يتوجه به النصيح أو الذي يباعد به التحذير ، وليست الأشياء كلها موضع نصيحة أو موضع تحذير ، فالأشياء الحتمية الوجود أو الأشياء المستحيلة لا مجال للتشاور فيها ، وإذن فالممكنات المجال الوحيد للخطابة الاستشارية ، وليست كل الممكنات صالحة لأن تكون مقدمات في هذا النوع من الخطابة فهناك ممكنات أصيلة في الأمكانية ، وهناك ممكنات عارضة ، والقاعدة العامة لقياس الممكنات التي تصلح مقدمات لمثل هذه الخطابة ، هي قياسها على أنفسنا وعلى ما يقع منا من أحداث ، وبخاصة هذه التي يرجع إلينا مبدأ حدوثها ، ففي مثل هذه الأشياء نعرف ما يمكن لنا ، وما يستحيل علينا أن نقوم به . فليس من شأننا إذن أن نعالج كل الموضوعات التي تصلح مادة للمشاورة ، ومن الصعب هنا أن نقسمها إلى أنواع ، أو أن نعرفها على هدى هذين المبدأين الحقيقة والامكان : أولا لأن مثل هذه البحوث ليست الخطابة مجالها ، وإنما تقع تحت نفوذ علم خاص (هو علم السياسة أو علم الأخلاق) وثانيا لأننا لا نريد أن نقحم في الخطابة ما ليس منها ، وإلا تعرضنا لمثل ما انتقدنا به غيرنا ، فلنقتصر إذن على معرفة أهم الموضوعات التي نتخذ منها مقدماتنا وقضايانا في الخطابة التشاورية وهذه الموضوعات ترجع في أصولها إلى خمسة أشياء :

(أولا) لابد للخطيب المتعرض للنصيحة والتحذير أن يلم بإيرادات الدولة ومواردها الطبيعية ، حتى يعمل على زيادتها إما بالعمل في غير موجود وإما بقلته

الانفاق مما هو موجود ، ولا بد من الإلمام التاريخي بمسا عملته الشعوب خاصا بتنمية الثروة .

(ثانيا) لابد للخطيب المشورى من معرفة مقدرة المسالـح العسكرية فى أمته وما يمكن إضافته عليها ، كما لابد له من دراسة الشعوب التى ينتظر أن تشبـك مع شعبه ، فى سالم القوى ويحتفظ لنفسه بكلمته أمام غيره .

(ثالثا) لابد من معرفة وسائل الذود عن الوطن ودراسة الجغرافية الحربية ؛ والعناية الكبرى إنما توجه الى معرفة المواقع الملائمة للدفاع .

(رابعا) لابد من معرفة وسائل التغذية على اختلاف أنواعها (الاستيراد والتصدير) كما يجب الوقوف على نتاج الأرض وكفايته أو عدم كفايته حتى يمكن إبرام المعاهدات . والواجب النصـح إلى المواطنين حتى لا يشور عليهم صنفان من الشعوب : الأقوياء ، ومن يرجى نفعهم فى المجال الاقتصادى .

(خامسا) إذا كان ما تقدم ضروريا فى النصـح والتحذير فى الخطب الاستشارية ، فأشد ضرورة منه سلامة القوانين وصلاحيـتها وصونها ودرس العوامل الداخلية والخارجية التى تؤدى إلى إفسادها (ويلجأ أرسطو على أن العوامل الداخلية أشد وأنىكى) وأهم هذه العوامل فى الفساد العسف . وشرما تصاب به الديمقراطية التراخى والتساهل أيضا . فهما متساويان مع الشدة والتعسف فى سوء العاقبة . «والأنف المفرط فى الفطس أدنى إلى ذهاب حاسة الشم» .

ولابد إلى جانب هذه الدراسة التشريعية من دراسة أنظمة الحكومات الأخرى ومعرفة إلى أى حد يتألف نظامها طبيعـة سكانها ، وإذن لابد من الرحلة والوقوف على ماعند الغير (وهذا الفصل كما ترى هو الذى أثر تأثيره على ابن خلدون وميكافلى ومونتسكيو وغيرهم من علماء السياسة والاجتماع ، وهذا الفصل بعينه هو الذى جعل من كتاب الدولة علماء ملهين بكثير من مسائل العمران

(٤)

الخطابة التشاورية — أهم المقدمات الخاصة بهذا النوع

١ — يتحتم علينا قبل كل شيء أن نلمّ بأنواع الخير والشر التي تصلح لأسداء النصيح أو التحذير . فليس كل شيء موضع نصيحة وإنما موضوعها ما يمكن وجوده وعدمه من الأمور (الممكنة) .

٢ — فالأشياء التي يتحتم وجودها في الحال أو في الاستقبال ، أو الأشياء المستحيلة سواء أكانت مستحيلة في الحال أم الاستقبال ، لا مجال للمشاورة فيها .

٣ — وكذلك الممكنات ليست جميعها قابلة بالأطلاق لتكون موضع مشاورة ، إذ أن من بين الأشياء الممكنة أنواعا أصيلة أو عارضة من الخير لا فائدة من وضعها موضع التشاور ، فلا جدوى إذن من التشاور إلا فيما يصلح أن يكون مادة للمشاورة مثل الأشياء التي تتصل بنا والتي إلينا يرجع مبدأ حدوثها (١) إذ أننا في مثل هذه الأشياء نواصل بحثنا حتى نصل إلى معرفة ما إذا كان من الممكن لنا أو من المستحيل علينا أن نقوم بها .

٤ — ليس من شأننا أن نعدد في دقة وتفصيل الموضوعات التي يتناولها الناس عادة في المشاورة ولا أن نقسمها إلى أنواع أو نعرفها حسبما تقتضيه الحقيقة والامكان وذلك لسببين : —

أولا أن مثل هذه البحوث (الدقيقة) ليس بجالها الخطابة بل تقع في

(١) أرسطو في كتاب « الأخلاق » يسأل ما هي الأشياء التي تعتبر مادة للمشاورة ويجب بأننا نتشاور فيما يتصل بنا من الأمور وفيما يمكننا القيام به .

نطاق فن (أو علم) يتطلب ذكاء واسعا ودقة كبيرة أوسع وأكبر مما نحتاجه في الخطابة .

وثانيا أنه قد أقحم على الخطابة كثير من المسائل الخارجة عنها (أى فلا ينبغي أنه نثقلها بمثل هذه البحوث) .

٥ - لا شك أن ما قررناه في الخطابة كان صحيحا من أنها تتألف من عنصرين هما العلم التحليلي والجانب الخلقى من علم السياسة ، فالخطابة تشبه الجدل من ناحية والفسفسطة من ناحية أخرى .

٦ - ولكن كلما ألحطنا في تنظيم الجدل والخطابة على اعتبارهما علوما حقيقية لافنونا تجريبية ، جردناهما - على غير شعور منا - من خصائصهما الطبيعية ، وكلما خرجنا بهما عن نطاقهما الاصلى تجاوزنا الحد فيهما ، واعتدينا على علوم أخرى وقائعها محدودة وليست مجرد عبارات وأقوال (كما هو الشأن في الخطابة) .

٧ - ومهما يكن الأمر في ذلك فالواجب أن نعرض الآن لكل الموضوعات التي يفيد تحديدها في الخطابة التشاورية وأن نترك المجال فسيحا للكثير من المسائل الأخرى لعلم السياسة .

وأهم الموضوعات التي يتشاور فيها الناس ، والتي تؤدي المشاورة فيها إلى إسداء النصائح ينحصر في خمسة أشياء . الإيرادات - الحرب والسلم - حماية الوطن - الاستيراد والتصدير - التشريع .

٨ - من يخطب في الإيرادات عليه أن يعرف موارد المدينة التي يعيش فيها ، وطبيعة هذه الموارد وعددها حتى يضيف إليها جديدا ، أو يزيد على الناقص منها ، وكذلك عليه أن يعرف نفقات مدينته حتى يحذف منها غير الضروري ، وينتقص مما يهبطها ، فليست الثروة في زيادة الدخل فقط ، وإنما

هي في التقليل من الاستهلاك أيضا ، ولا يكفي في الشؤون المالية مجرد التجربة لتكوين فكرة شاملة عنها ، بل لابد من عمل بحث تاريخي عن الوسائل التي ابتكرتها الشعوب الأخرى حتى يمكن إسداء النصائح الحكيمة في المسائل المالية .

٩ — موضوع الحرب والسلم يقتضى معرفة مقدرة البلد العسكرية ، ومقدار ما لديها من القوات ، وما يمكن أن يكون لديها ، ويقتضى أيضا معرفة طبيعة القوات الحالية ، وما يمكن إضافته من القوات إليها ، وأخيرا لابد من معرفة الحروب التي قامت بها المدينة ومدى انتصاراتها . وهذه المعلومات ضرورية لا عن المدينة وحدها ، بل عن المدن المجاورة أيضا . ولابد من دراسة الشعوب التي ينتظر أن تشترك في حرب مع المدينة لتسالم القوى ، ولتقول كلمتها للضعيف (أو تحفظ لنفسها الرأي فيه) .

وكذلك يجب دراسة الموارد الحربية الداخلية (للمدينة) لمعرفة ما إذا كانت مماثلة للبلاد المجاورة لها أو مختلفة عنها ، ولهذا المعرفة خطرها في تقدير العجز والتفوق . ولتحقيق هذه الأهداف كلها يجب دراسة الحروب لا في المدينة وحدها ، بل في البلاد الأخرى فيما عانت من ضرر ، وما أصابت من نصر ، لأنه من الطبيعي أن تؤدي الأسباب المتشابهة إلى نتائج متشابهة .

١٠ — لا يكفي في الذود عن الوطن أن تقتصر على معرفة نظام الدفاع ، بل لابد من معرفة عدد وحدات الجيش المدافعة ، ومعرفة أنواعها ، ومعرفة مواقع التحصينات (أمر تستحيل معرفته على من يجمل طبيعة البلاد) . (١) . وبذلك المعرفة نستطيع أن نكمل ما ينقص من الدفاع أو نقلل منه إن كان

(١) يريد ما يسمى الآن بالجغرافيا الحربية .

زائدا ، وأن نغنى عناية كبرى بالمواقع الملائمة لهذا الدفاع .

١١ - وفيما يختص بالأغذية والمتونة يجب أن نقف على كل المصروفات الكافية للبلاد ، وعلى طبيعة هذه المصروفات ، كما يجب الوقوف على نتائج الأرض ، وما يلزم من الاستيراد منه مما يكمل نقص الإنتاج الزراعى ، حتى يمكن إبرام المعاهدات والاتفاقات التى تعقد بين المدينة وبين البلاد المتصلة بها فى التصدير والاستيراد . وما يجب الانتباه إليه ألا يصدر عن المواطنين ما يثير ضد وطنهم صنفين من الشعوب : الأقوياء ، ومن يرجى نفعهم فى المجال الاقتصادى .

١٢ - وإذا كان كل ما تقدم ضرورياً لضمان السلام فإن الخبرة التشريعية لا تقل عنه خطراً ، فسلامة الوطن تقوم على القوانين ، ولذلك لا معدى لنا من معرفة الحكومات عددها ، وأشكالها ، ومعرفة الظروف التى تلائمها ، والعوامل التى تؤدى إلى فسادها ، سواء أكانت هذه العوامل داخلية أم خارجية ، (موجهة من الأعداء) ونعنى بفساد العوامل الداخلية التساهل والعسف اللذين يفسدان كل الحكومات ، أما الحكومة المثلى فهى بمعزل عن هذا طبعاً (١) فالديموقراطية مثلاً تضعف لا بالترأخى فقط حينما تتحول إلى حكم أقلية ، ولكنها تضعف بالتعسف والتشدد : فالأنف المقوس أو الأفطس إذا تعدل كان من كل منهما أنف أقنى . أما إذا كانت الأنوف مفرطة التقويس أو الفطس أدى هذا الإفراط المشوه إلى أن تفقد الجارحة شكل الأنف (حاسة الشم) .

١٣ - ولا يفيد التشريع إذا اقتصرنا على معرفة ماضى الحكومات

(١) يشير إلى أن مدينة أفلاطون انفاضلة لاجابة بها إلى مثل هذه النصائح .

واختيار ما هو أصلي للمدينة ، بل لابد من معرفة الحكومات المسيطرة في الشعوب الأخرى ، ومعرفة أى أشكالها يأتلف مع طبائع سكانها . وإذن تكون كتب الرحلات ذات فائدة عظمى للتشريع إذ بها نتفهم قوانين الشعوب المختلفة . وفائدة هذه الكتب لا تقل عن الفائدة التي نلج منها من بحوث العلماء الذين يفتون بدراسة السلوك الإنساني غير أن جميع هذه البحوث من شئون السياسة لا الخطابة .

تلك هي أهم المسائل التي يجب أن تكون مقدماتها موفورة لدينا إذا أردنا أن نكون جديرين بالمشورة وإسداء النصيح .

ونعود فترجع إلى الوسائل الواجب التزامها في النصيحة والتحذير في مثل هذه الموضوعات وفي غيرها .

الفصل الخامس

ماتخص الفصل

في هذا الفصل يذكر أرسطو الغايات التي يهدف إليها الخطيب في الخطب الاستشارية التي ترمى إلى النصيحة وإلى التحذير، وبهذه المناسبة يتكلم على السعادة ومصادرها ومظاهرها، لأن النصيح والتحذير ينصبان على ما يجلب السعادة، وعلى ما يباعد بينها وبين الإنسان. فهو يعرفها تعرفات تسائر الفضيلة وتوصل إلى الحياة الهادئة الآمنة، ثم يشرح المصادقات التي تشتمل عليها هذه السعادة. فهي في شرف المنبت، ونبالة الأصل وصراحتها، وهي في الثراء ووفرة الفضل، وكثرة الصديق وصداقة الفضلاء، وهي في النسل الصالح، والشيخوخة الصالحة. وكما تكون في هذه الصفات النفسية والخلقية تكون أيضا في الصفات المادية من الصحة والجمال والقوة والفراهة والاستعداد الرياضي، وتكون في الصفات الاجتماعية من طيب الأحدوثة وألقاب الشرف، فزاي السعادة داخلية تتصل بجسم الانسان وبنفسه، وخارجية كالصداقة وألقاب الشرف ومظاهر التكريم.

يحدثنا عن كل أولئك ليتخذ منه الخطيب مقدماته إذا خطب وأشار، ونصح وحذر وأنذر. فشرف المواطن في صلته بالوطن وعراقة آبائه وأجداده في العمل على مجده، ويشرف الوطن والمواطن بكثرة الولد، وقوة النسب، وكرم الآباء والأمهات، وفضائلهما النفسية والجسمية من الجمال والفراهة والعفة وحب العمل، والعمل في غير تبذل ولا امتنان. وهو يطلب تقوية هذه الصفات إن كانت طيبمية وتنميتها إن كانت مكتسبة للجنسين على السواء والأمة التي لا تعنى بخلق المرأة تضيع نصف سعادتها كما أضاعه أهل د لاسيديونيا.

والثروة الحرة في يد الرجل الحر ، إنما تهدف إلى الاستثمار والتمتع « فليس الغنى من يملك ، إنما الغنى من ينتفع بما يملك » وهو يرى أن من السعادة أن يهب الإنسان المشروعات العامة ، ومؤسسات العون : فالهبة دليل على الثروة ودليل على الكرامة لذلك يرجوها الجشع والطموح ، فالجشع يجري وراء التملك ، والطموح يجري وراء التكريم . والسعادة الجسمية في الصحة ، وليس معناها الخلو من المرض ، وإنما يقصد بها القدرة على العمل والقدرة على انتفاع الشخص بنفسه ، فما أكثر أصحاب الأجسام المحرمين حرمان المرضى ! ومن المزايا الجسمية الجمال ، والشباب جمال إذا كان الشاب قادراً على مواصلة الأعمال الشاقة محابى من من الطبيعة بالقوة والحركة . وفي الشيخوخة جمال متى استطاع الشيخ أن يؤدي عمله مع المرح . وإذا كان الشيخ غير محتاج إلى الغير فليس عنده أى عارض من عوارض الشيخوخة .

هذه هي المسائل العامة التي يجب أن تدرس حتى يسهل على الخطيب الذي يتحدث في الخطب الاستشارية أن يملأ موقفه ، ويملى على سامعيه ما يريد .

الغاية التي نهدف إليها في النصيحة والتحذير - السعادة ومظاهرها .

١ - يمكن القول بأن لكل إنسان غاية ، بل ويمكن أن يقال بأن لجميع الناس غاية يتطلعون إليها فيما يحبون وفيما يكرهون ، وهذه الغاية - في كلمة واحدة - هي السعادة في جملتها وفي أجزائها .

٢ - فلنعرف السعادة إذن تعريفاً عاماً يشملها ويشمل المصادر التي تستمد منها أجزاؤها . والحقيقة أن النصيح والتحذير ينصبان دائماً على الأفعال التي توصل إلى السعادة ، وعلى الموانع التي تحول دون الوصول إليها ، فإيجب عمله هو ما يوفر لنا السعادة ، أو ما يزيد بها في جملتها ، أو في ناحية منها ، وما يجب تركه هو ما يفسد السعادة ، أو يعوقها ، أو يؤدي إلى ضدها .

٣ - السعادة إذن هي الحياة المعتدلة الموفقة التي تسير الفضيلة ، أو هي كفاية العيش ، أو هي الحياة الآمنة ، أو هي رفاهية الإنسان بما يملك (من عقار أو ماشية أو موال) مع استغلالها والاحتفاظ بما يمكن الاحتفاظ به منها ، والناس يكادون يتفقون على أن السعادة لاتخرج عن واحد من هذه الأشياء أو عن مجموعها كلياً أو جزئياً .

٤ - وإذا كانت السعادة ما بيننا فأجزاؤها لاتخرج عن شرف المنبت ، وكثرة الصديق ، وصداقة الفضلاء ، والثروة ووفرة الفضل ، وزيادة النسل الصالح ، وجمال الشيخوخة .

وإلى ذلك الصفات الجسمية الحسنة من الصحة والجمال والقوة وطول القامة ، والاستعداد الرياضي للالعاب القوة ، وحسن السمعة ، وألقاب

الشرف ، ويمن النقية ، والفضيلة في جملتها أو في تفصيلها من حزم وشجاعة وعفة وعدالة . وفي الحق أننا نصل إلى غاية ما نصبو إليه لو أننا أحرزنا المزايا الداخلية والخارجية معاً ، لأنه ليس وراء ذلك وراء ، ونقصد بالمزايا الداخلية ما يخص النفس والجسم ، وبالمزايا الخارجية الصداقة والثروة وكرم المنبت ، وألقاب الشرف والتكريم ؛ ويحسن أخيراً أن نضيف إلى ما تقدم المواهب والحظوظ ، فيها تحصل الحياة على نصيبها الأوفى من الطمأنينة والأمان . وكما عرفنا السعادة في عمومها ستعرض لها في أجزائها واحداً واحداً .

هـ — إن شرف الأمة وشرف المدينة (الوطن) في العراق ، ونباهة الآباء والأجداد . وكثرة العدد ، وكثرة المشهورين من الرجال ، وفي إظهار مفاخر الأمة والوطن . ويشرف الفرد بشرف منبته من ناحيتي الرجال والنساء ، وبالنسب المحض الصريح في كل ناحية من هاتين الناحيتين . ويشرف الفرد كما يشرف الوطن بأصالة الأجداد في الكرم والفضيلة ، وما لهما من الثروة ، وسامى الفضائل ، وكثير العدد في الرجال والنساء والشيب والشبان .

٦ — وكثرة الولد وقوة نسبه لها أهميتهما للجماعة ولل فرد ، فأثرهما الجماعي ، أن يكون للأمة شباب كثير قوى ، يستمد قوته من المزايا الجسمية كالطول والجمال والقوة ، ومن الفضائل النفسية ، كالعفة والشجاعة . وتلك هي ثروة الجماعة . أما ثروة الفرد فهي في الكثرة من الجنس الواحد أو من الجنسين ، والمزايا الجسمية للنساء ، هي الجمال والفراة ، والفضائل النفسية لمن هي العفة وحب العمل في غير تبذل ،

والأفراد والجماعات سواء في ضرورة تنمية هذه الصفات بين الجنسين على السواء ، لأن الأمم التي لا تعنى بخلق المرأة تفقد نصف السعادة كما فقدوا اللاسيديميون Les Lacédémoniens .

٨ - أجزاء الثروة هي النقود الوفرة ، والأراضي الممتدة ، وسعة التملك للجيد والجميل منها ، وملك المتقول من الخدم والماشية تملكاً أساسه السكثرة والجمال . كل هذه الملكيات ثابتة ونافعة وجديرة بالرجل الحر ، ونفعها في إثمارها وفي غلتها ، وجدارتها بالرجل الحر ، أنها مخصصة للتمتع ، وأقصد بممتلكات التمتع هذه التي لا فائدة لها إلا فيما يستعملها فيه صاحبها ، كما أقصد بالملكية الثابتة تلك التي في متناول اليد حتى يسكون الانتفاع بها خاضعاً لرغبة صاحبها .

ومعنى التملك حرية التصرف بالانتقال ، وأقصد بالانتقال حرية الهبة والبيع . وجملة ما أقول أنه ليس الغنى من يملك إنما الغنى من ينتفع بما يملك . فما الثروة في الحقيقة إلا التصرف والاستعمال . (١)

٨ - ومن السعادة بعد الصيت ونياهة الذكر ، ومعناها أن يكون الإنسان مستقيماً في نظر كل الناس ، أو أن يكون ممتعاً بما يرغب فيه جميع الناس أو معظمهم أو الفضلاء أو الحزمة منهم .

٩ - وألقاب الشرف تدل على أن صاحبها موسوم بالخير ، وهي تمنح بحق لمن قاموا بأعمال البر ، وتمنح أيضاً لمن في قدرته عمل الخير . إن عمل الخير يتصل بحفظ بقاء الإنسان ، ويتصل أيضاً بكل أسباب الحياة ، كما يتصل بالثروة ، أو بأي خير آخر يصعب الحصول عليه في ذاته أو في ظروفه

(١) يقرر أرسطو هنا ما قرره في كتابه « السياسة » من التفرقة بين الملكية وبين الانتفاع بها وبين علم الاكتساب وعلم الاستغلال .

الزمانية والمكانية : فكثير من الناس يحصلون على ألقاب الشرف لأسباب تبدو تافهة ولكن الظروف وملابسها الزمانية والمكانية أرادت ذلك .

وسمات الشرف أنواع : تكون بتقديم القرابين ^(١) وتكون بتخليد الذكر نثرا وشعرا ، وتكون بالمزايا الخاصة ، وتكون بالتصدي في المجالس ، وبالهبات العقارية وإشادة المقابر ، وإقامة التماثيل ، ومؤسسات المعونة ، وتكون أيضا ببعض التقاليد الهمجية ، كالركوع والسجود للكبار أو بالتخلي لهم عن المسكن ، وتكون بالهدايا التي تعز بها بعض الأمم . وفي الحقيقة ليست الهدية لإلهة الإنسان لما يملك ، وهي عنوان على التكريم ، وذلك من الأسباب التي تحمل الجشعين وذوى الطموح على الحصول على الهبات ، يجد فيها كل من الطامع والطموح غنيته ، لأن الطامع يجرى وراء المال ، والطموح يجرى وراء التكريم .

١٠ — ومن الفضائل ما يتعلق بالجسم ، فزينة الجسم الصحة ، والمراد بها هنا ما يقرره الناس من أن من يستطيع أن ينتفع بجسمه لا يعد مريضا ، لأن كثيرا من صحاح الاجسام ، لا يخطون على هذه الصحة إذ ليس في مقدورهم أن يستمتعوا بكل أو بمعظم المطعومات والملذات الإنسانية ، وهذا هو ما يتحدثون به عن هيروديكوس ^(٢) Hérodikos

١١ — ومن المزايا الجسمية الجمال ، والجمال يتبع السن : فجمال الشباب في جسم ينتفع به في الأعمال الشاقة المتعبة ، كمسابقات الرياضة العنيفة ، والشباب نفسه متعة للنظر ومصدر للإعجاب ، وهذا ما جعل رياضي «البناتال»

(١) كما كانت قرينس تعد البيت وسداته الكعبة من ألقاب الشرف التي حفظت في قرينس

(٢) طيب يوناني ورد ذكره فيما كتبه أفلاطون وبلوتارك . رويل ص ١٠٤ هامش (١)

Pentathle^(١) أحسن الرياضيين وأجملهم لأنهم محابون من الطبيعة بالقوة والقدرة على العدو .

وجمال السكهل^(٢) في قدرته على الأعمال الحربية وفي أن يكون ابن الجانب مرهوبه . وجمال الشيخ في مقدرته على القيام بالأعمال الضرورية في الحياة مع المرح (وفي غير احتياج إلى المساعدة ، ومن غير أن يكون هالة على غيره)^(٣) لأنه لا يحس بأى عرض من أعراض الشيخوخة .

١٢ — أما الفتوة فهي القدرة على تحريك جسم شخص آخر حسبما يريد القوى (المصارعة) وتحريكه يكون بجذبه أو بدفعه أو برفعه أو خفضه أو ضغطه ، وما الفتوة إلا القدرة على القيام بكل هذه الحركات أو ببعضها .

١٣ — وفضل فاره الطول من الرجال هو تجاوزه الحد الأوسط للرجال في الطول والعرض والامتلاء بشرط ألا يعوق هذا التجاوز سرعة الحركة .

١٤ — والمجاهدة مزيج من الفتوة وطول القامة وسرعة العدو^(٤) لأن العداء قوى البنية . ومن في قدرته أن يدفع ساقيه دفعا خاصا وأن يحر كهما بسرعة وأن يوسع خطاه كان أهلا للعدو ، والمصارع هو من يأخذ عدوه فلا يفلته ، ومن يستطيع أن يزلزل قدمه بضربة واحدة . فالقوى إذن هو

(١) البنتال هي خمسة التمرينات الرياضية : المصارعة والعدو ، والقذف والسباق وقذف الاسطوانات .

(٢) السكهل قبل الشيخوخة وهي مرحلة تلى الشباب وتليها الشيخوخة على غير ما هو شائع . والسكهل هنا ترجمة الرجل الناضج الذي قصده أرسطو .

(٣) ما بين القوسين غير موجود في نصوص « رويل » وموجود في نصوص « دوفور » قارن بين ص ٩٣ « دوفور » وبين ص ١٠٥ « رويل » الفقرة الحادية عشرة .

(٤) يحتفظ ابن رشد بكلمة « مجاهد » لمن يجمع بين الضخامة والقوة والخفة ويطلق كلمة « مصارع » على من جمع بين الضخامة والقوة . ص ٥٣ مختصر

من يتقن لعبتي « البنسكراس » ، Pancrace (المصارعة أو الملاكمة)
ويتقن « البانتاتل » ، (الألعاب الخمسة لمتقدمة) .

١٥ — وجمال الشيخوخة في التقدم البطيء في السن ، بحيث لا يكون
الشيخ عالة على أحد ، لأن الشيخوخة لا تتصف بالجمال إذا تقدمت بها السن
سريعا ، ولا تجمل إذا كان الشيخ عالة على غيره ، حتى ولو أبطأت
به شيخوخته .

والشيخوخة التي نصفها بالجمال ترجع إلى الحظ وإلى المزاي الجسمية ،
لأن السقيم والضعيف يتعرضان للألام . وإذا لم يسعد الحظ احتاج الشيخ
إلى غيره وأسرع هذا الاحتياج في هدمه .

ونرجع فنقول بعد الكلام على الفتوة والصحة والحظ أن هناك استعدادا
إذا وجد عمر صاحبه ، فكثير من غير الممتعين بالمزاي الجسمية يعمر
طويلا . غير أن التعمق في مثل هذه البحوث قليل الجدوى فيما نحن بصدد (١)
١٦ — ولا سبيل لنكران الفائدة من صداقة عدد كبير من الناس
معروفين بالشرف وبلاستقامة ، ما دمتنا قد عرفنا الصديق « بأنه هو الذي
يقدم للغير ما يعتقد أنه نافع لذلك الغير . »

وإذا وجد هذا الاستعداد من كثيرين بالنسبة لشخص واحد أمكن
أن يقال إن هذا الشخص له أصدقاء كثيرون ، فإذا اتفق وكانوا متصفين
بالفضل ، أمكن أن يقال بأن هذا الشخص له أصدقاء شرفاء .

١٧ — السعادة في الإنتاج أوفى التملك - سواء أكان هذا التملك للكل

(١) يلاحظ هنا جومبرس Gompers في كتابه « المفكرات » — الجزء الثالث
ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ Pensuers I. 111 أن أرسطو تنحس في طبيعته من حبه للتقسيمات
والتعربات وأحيانا يهمل هذه الطريقة فيعرض للموضوع ثم يلاحظ أن البحث فيه قليل الجدوى .

أم للجل ، أم للجزء المهم من الممتلكات — قد تكون من أفاعيل الحظ إذا كانت الملكية بمحض الصدفة ، وأكثر تتعلق الصدفة بالأشياء التي تجدد سببها في الفنون لافي الطبيعة ، وجزء كبير منها قد يكون مستقلاً عن الفنون ، كما أن الأشياء التي تكون الطبيعة سبباً في ملكيتها تأتي أحياناً مستقلة عن الطبيعة :

فمثلاً الصحة سببها الفن (فن الطب أو الرياضة) أما الجمال وطول القوام فأنهما يتعلقان بالطبيعة (من وراثته أو خلقه) . وعلى العموم فالمزاي (من الممتلكات وغيرها) التي تأتينا عرضاً عن طريق الحظ والمصادفة تثير الحسد بطبيعتها ، لأنها مزاي لا تدخل للعقل فيها . كأن يكون في أسرة من الأسر أخ متمتع بالجمال والآخرين ظلمتهم الطبيعة في خلقهم فكانوا دميمين ، وكان يعثر واحد من الأخوة على كنز لم يعثر به الباقون . وكان يصيب سهم طائش رجلاً مسالماً واقفاً أمام داره ولا يصيب أحداً غيره ، أو كأن يكون من عادة إنسان أن يكون في مكان ما كل يوم وفي اليوم الذي يليه تعرض آخرون لخطر في هذا المكان ولم يكن من عاداتهم المرور به أبداً .

١٨ — أما ما يختص بالفضيلة فأنها لما كانت مناط المدح والتنويه أثرنا أن نتعرض لها بشيء من التفصيل في باب المدح (١) هذا ما يجب أن نعرضه أمامنا في خطب النصيحة أو في خطب التحذير في المستقبل أو في الحاضر لأن البراهين تختلف باختلاف الغرض من الخطبة .

الفصل السادس

ملخص الفصل:

في هذا الفصل يتكلم عن الخير والشريف والنافع، فمنها تتكون الأدلة في الخطابة حينما يتقدم الخطيب بالمشورة محفزا أو محذرا، مغريا أو منفرا، فيعرف الخير أولا بأنه « ما يختار لذاته » (وهو تعريف قريب من السعادة) أو هو « ما يتطلع إليه الناس الممتعون بالحساسية والذكاء . » أو هو « ما نشعر بالرضا والارتياح في عمله » ، أو هو « ما يحول بيننا وبين ما لا يتفق ومصالحنا »

وربط الأشياء بعضها ببعض يقتضيها أن نبحث عن موضوعين من « المواضع المعية » ، « والتتابع » ، فالدرس والعلم مرتبطان « بالتتابع » ، والصحة والخلو من المرض مرتبطان بالمعية ، وبعد أن يقرر هذه التعريفات وهذه المبادئ التي سيسير عليها يأخذ في سرد أنواع الخيور ويبين أن منها ما هو خير حقيقي (أى في ذاته) وما هو خير بالدليل أى تثبت خيريته متى أقمنا الدليل عليها .

فمن الخيور الحقيقية السعادة والعدالة والشجاعة والعفة والسخاء والعظمة والثروة والصدقة وألقاب الشرف والقدرة على الخطابة والقدرة على إدارة الأعمال . والفضيلتان الأخيرتان وسيلتان لكسب كثير من الفضائل .

والخيور الاحتمالية لا بد من إقامة الدليل عليها ولا يستغنى بسردها ، وهنا يعرض المؤلف كمعادته لعدة تفصيلات دقيقة : خير كل ما يثبت أن ضره ضار ، وخير كل ما يكبت الأعداء ويغيظهم ، ومع ذلك فقد يكون ما يضر الأعداء ضارا لنا إذا وقفنا معا أمام عدد مهاجم . وخير كل ما لم يصل إلى حد المغالاة « وإذا زاد الشيء عن جده انقلب إلى ضده » ، وخير أيضا ما يبحث عنه معظم الناس ،

وخير ما يمتدحه الأعداء ، وما يمتدحه السفلة من الناس ؛ وجملة ما يقال إن خير الأشياء ما نؤثره على غيره ، وجميع ما تقدم يؤثر على غيره .

يتحدث بعد ذلك عن « مواضع الايثار » فيسبغ أنسبا نؤثر الأشياء الممكنة وهي ما يمكن عمله مطلقا ، وما يمكن يعمل بسهولة ، وسهولته في أنه يؤدي في قليل من الزمن ، ومن غير جهد ومشقة ، فالصعوبة في الألم والملل ؛ وهناك عنصر نفسى في السهولة هو الرغبة ، ورغبتنا تتوجه بطبيعتها إلى ما ليس فيه ألم ، أو ما كان الألم فيه أقل من الفائدة التي نجنحها منه ، وكالرغبة دافع آخر نفسى ، هو الإعجاب فاننا نؤثر أن نقوم بالأعمال التي نجذب فيها مواهبنا وأنفسنا ، والتي تدل على عظيم تجربتنا في الحياة ، ومن الرغبة المألحة الميل والهواية فما نقوم به مندفعين بهذين الدافعين لا نشعر فيه باللذة فحسب ، بل بالميل نحو الأحسان والإتقان .

وأخيرا يؤثر كل إنسان ما يتفق واستعداداته النفسية ، فطلاب الغلبة يبحثون عن مواقع النصر ، وطلاب المال يبحثون عن أمكنة الجمع واللم ، وطلاب المجد يردون موارد الشهرة ويندفعون نحو الصعاب ، وهكذا الأمر في بقية الميول والدوافع . تلك هي المقدمات التي تتألف منها الأدلة والبراهين في موضوع الخير والشريف والنافع . فليحذر الخطيب أن يمارى أو يقال في الخيور الحقيقية فإن المغالطة فيها سوفسطائية محضة .

(٦)

في الخير (الشريف والنافع)^(١)

١ — علمنا الأغراض المستقبلية والحاضرة التي نهدف إليها حينما نتقدم بالمشورة ، ورأينا إلى أى الأغراض نهدف إذا تقدمنا بالتحذير ، فالتفرقة ضرورية مادامت الأغراض الثانية مضادة للأغراض الأولى . ومادام غرض الناصح والمشير هو النافع ، ومادامنا لا نتشاور في الغاية بل في الوسائل المؤدية إليها ، ومادامت هذه الوسائل موجودة في الأحداث نفسها مرتبة حسب وقائعها ، ومادام النافع هو الخير ، فلا بد إذن من تعريف عام لوجهات الخير ووجهات النفع .

٢ — الخير هو الذى يختار لذاته وفي حد ذاته ، وهو الذى نرجع إليه كمقياس إذا أثرنا شيئاً على آخر ، وهو أيضاً ما يتطلع إليه كل الناس ، وأقصد بالناس هنا هؤلاء الممتعين بالحساسية والذكاء ، أو هؤلاء الذين يمكن أن تكون لهم هاتان الموهبتان . والخير هو كل ما يوحى به الذكاء (العقل العام) إلى كل فرد ، وكل ما يثير حضوره في نفوسنا استعداداً طليئاً نرتاح إليه ، والخير أيضاً ما نشعر بالرضى حينما نعمله أو نميل إليه ، وإنه الخير الذى يحقق الفوائد العديدة ويبقى عليها لأنها نتائجه ، وإنه الخير الذى يحول بين المرء وبين ما يتضاد مع منافعه ، وإنه الخير الذى يهدم كل ما يضر وكل ما يتعارض مع المنفعة .

(١) في ترجمة Ruelle عنوان الفصل السادس « الشريف ، والنافع » وفي ترجمة Dufour الفصل السادس معلنون بعنوان « الخير » فقط .

٣ - وترابط الأشياء بعضها مع بعض بعد ذلك له نوعان : « المعية » و « التتابع » حسب وقوعها معا أو بالتتالي ، فالتعلم تابع للدراسة (ونوع الترابط هنا التتابع (١) والحياة مصاحبة للصحة) (ونوع الترابط هنا المعية) والعلل المنتجة (أى للصحة) أنواع ثلاثة ، فالخلو من الأمراض يتبع الصحة ، والتغذية تنتجها أيضاً ، والرياضة البدنية تتبعها الصحة غالباً .

٤ - وإذا تقررت هذه المبادئ ، تبعها بالضرورة أن الحصول على خير الأشياء خير في ذاته ، وأن التخلي عن شر الأشياء خير في ذاته أيضاً . ففي الحالة الثانية (التخلي عن الشر خير) يكون الترابط بالمعية ، وفي الحالة الأولى (الحصول على خير الأشياء خير يتبعه الامداد بالخير) الترابط بالتتابع .

٥ - ومن الخير أيضاً أن نحصل - إذا خيرنا بين خيرين - على أكثرهما نفعاً ، - وإذا خيرنا بين شرين - على أخفهما ضرراً . ونسبة زيادة الأكبر على الأصغر هي مقياس الرجح في الحالة الأولى ، ومقياس الخسارة في الحالة الثانية .

٦ - والفضائل بطبيعتها خير ، فالتخلي بها يعد صاحبها للسعادة ، والفضائل تولد فضائل ، وهي فوق ذلك تغرى صاحبها بعمل الخير ومن اولته وستتكم عليها واحدة واحدة من حيث نوعها وطبيعتها .

٧ - واللذة أو السرور خير أيضاً ، لأن كل الكائنات الحية تبحث عنهما كل حسب ما تقدره له طبيعته ، ولهذا كانت الأشياء اللطيفة المقبولة

(١) بمعنى أن العلم لا يحصل إلا بعد الدرس .

والأشياء الشريفة أو الجميلة ^(١) خير أيضاً فإن الأولى تحدث سروراً في النفس ، والثانية منها ماله هذا الأثر ، ومنها ما يؤثر على غيره لذاته .

٨ — الخيور الحقيقية يمكن سردها فيما يأتي :
السعادة وهي أثر ما يتطلع إليه الإنسان ، ويقصده لذاته ، وهي في الحقيقة تسكتفي بنفسها ، ويكتفي بها صاحبها ، لأنها الغاية التي إذا أدركناها عدلنا عن كثير غيرها من أنواع الخير ^(٢) .

٩ — والعدالة و الشجاعة و العفة و السخاء و العظمة وغيرها من الاستعدادات الأخلاقية الأخرى التي من سنخها وطبيعتها ، فضائل نفسية ، لها ما للسعادة من الأثر النفسي .

١٠ — والصحة والجمال — وما إليهما من الصفات المتصلة بهما فضائل جسمية ، ويتولد منهما فضائل أخرى كثيرة : فالصحة مثلاً تولد اللذة ، وتشعر صاحبها بالحياة ، ومن هنا نظر إليها كأثمن ما يملك الإنسان ، وهي في الحقيقة أصل الخيرين ، يقدرهما عامة الناس ، أكثر مما يقدرون غيرها من أنواع الخير . اللذة والحياة ^(٣) .

١١ — والثروة ثمرة المملكية ، وهي قوة يعتمد عليها فيما يقوم به الإنسان من أعمال (كما أنها دافع كبير من دوافع الخير ^(٤)) .

(١) في نسخة Dufour «الأشياء الجميلة» Choses belles وفي نسخة Ruelle «الأشياء الشريفة» Choses honorables .

(٢) في كتاب الأخلاق عرف أرسطو السعادة أول ما عرفها بأنها «فيما يظهر شيء»
نهائي يكتفي بنفسه لأنها أيضاً غاية أنواع السلوك الخلقية «Eth.Nic. 1.5. 1907»
(٣) استغل قدامة هذا الفصل استغلالاً واسعاً وقد نبهنا على ذلك في كتابنا «بلاغة أرسطو بين العرب واليونان» .

(٤) هذه العبارة موجودة في نسخة Dufour وليست موجودة في نسخة Ruelle

١٢ - والصديق خير يبحث عنه لذاته ، وهو معوان على كثير من أنواع الخير .

١٣ - وألقاب الشرف وذيوع الصيت فضائل أيضاً ، تبعث السرور في النفس وتؤدي غالباً إلى الحصول على خيرات أخرى تعود على صاحبها بالفخر وترفع من قدره .

١٤ - والمقدرة على الكلام ، والقدرة على إدارة الأعمال ، من الفضائل أيضاً ، وهما وسيلتان لجلب كثير من المنافع .

١٥ - وهناك فضائل أخرى نفسية هي في الحقيقة استعدادات طبيعية مثل قوة التذكر ، وسهولة التعلم ، وحيوية النفس ، وما إلى هذه الصفات مما يتصل بها ، فكل هذه المواهب تستطيع أن تدفع بالإنسان إلى نواح كثيرة من الخير والفضيلة كتعلم العلوم والفنون .

١٦ - والحياة نفسها خير ، فانها تنتج خيراً ، ولو فرضنا أن مجرد الحياة لا يستلزم الخير ، فان ذلك لا يمنعنا من أن نقرر أن الحياة خير في ذاتها .

١٧ - والعدالة خير لأنها قوام الحياة الجماعية . هذه تقرّبها كل أنواع الخيور المعترف بها أنواعاً حقيقية لا يشك شك في فائدتها للفرد وللمجتمع .

وهناك خيور احتمالية تأتي من الاستدلال بعد عرضها في معرض الدليل .

١٨ - خير كل شيء يثبت أن ضده ضار .

١٩ - وخير أيضاً كل شيء يمكن أن يكون ضرره مفيداً للأعداء : فثلاً إذا ثبت بالاستدلال أن الجبن مفيد لأعداء الدولة ، كان من المؤكد أن الشجاعة مفيدة لأبناء الوطن .

والفكرة العامة أن كل ما يطلبه الأعداء وما يريدونه ، وكل ما يعود عليهم بالفائدة والمسرة يكون ضده هو ما يجب أن يعاملوا به . والأمركا قال الشاعر ^(١) : « نعم ! حقا ! ^(٢) إن بريام ^(٣) سيكون مسرورا ، وليست هذه الفكرة مطردة واسكنها تجرى في الأغلب والأعم ، فليس هناك ما يمنع من أن الشيء الواحد يكون في بعض الأحيان نافعا للطرفين المتعادين على السواء ، وهذا ما يجعلنا نقول إن الآلام توحد بين الناس ، حينما يثبت أن شيئا واحدا ضار بهم جميعا

٢١ - وخير أيضا كل شيء لا يصل إلى حد المغالاة ، أما ما يتجاوز الحد ويكون أكبر وأعظم مما يجب أن يكون عليه ، فذلك هو الشر بعينه .
٢٢ - وكذلك كل ما سبب كثيرا من الآلام ، وكل ما سبب كثيرا من النشقات فهو شر . وإن كان يبدو في مظهر من مظاهر الخير لأنه يظهر في مظهر الغاية والنهاية التي لا يتوصل إليها إلا بعد جهود مضيئة ، والغاية خير ! ومن هنا قول الشاعر : « سيكون لبريام ما يتمدح به ، ^(٤) أو دأى مجد سيد كر به بريام ، ^(٥) وكقول هوميرو : « إن الإقامة بعد هذه المدة الطويلة ستكون مخجلة ، ^(٦) . ومن هنا أيضا هذا المثل السائر « كسر جرتة حينما وصل إلى

(١) الشاعر المقصود هو هوميرو Homère في الإلياذة II 1, 255

(٢) كلمة حقا وجدت مزيدة في نسخة Ruelle .

(٣) بريام هو ملك طرواده والدباريس الذي نشبت الحرب بين اليونان وطرواده بسبب إغرائه زوجة ملك أسبرطه .

(٤) الإلياذة الكتاب الثاني أو الأغنية الثانية ص ١٧٦ . Iliade II P. 176.

وترجمة هذه العبارة هي ما نقلناه عن Dufour

(٥) هذه العبارة ترجمناها حسب نص Ruelle . وكلا البيتين يشير إلى انسحاب الآثينين

في حرب طرواده . ومجد بريام صاحبها في أن اليونانيين عجزوا عن فتحها حربا .

(٦) الإلياذة ص ٢٩٨ من الكتاب الثاني .

بيته . ، فالغاية أو النهاية تكون أحيانا من الشر الذي يظهر في مظهر الخير .
٢٣ - وخير أيضا ما يبحث عنه معظم الناس ، وما يبدو أنه محل
مناقشتهم فقد رأينا ^(١) أن ما يتطلع إليه الناس ويرغبون فيه هو الخير ،
ومعظم الناس يعملون ما يعمل سائرهم .

٢٤ - وخير أيضا ما يقبل المدح والاستحسان ، فالناس لا تمدح
إلا ما هو خير . وخير أيضا ما يمدحه الأعداء والسفلة من الناس .

ويكاد يكون من المجمع عليه أن من يمدحون ما يألمون منه - لأن
الحقيقة هي التي أرغمتهم على هذا المدح - يلحقون بسفلة الناس وبهؤلاء
الذين يذمون الأصدقاء (الشرفاء) . وبهؤلاء الذين لا يذمون الأعداء .

ولذلك عد الكورنثيون Les Corinthiens بيت سيمونيد Simonide
ليس لدى طرواوه ما تأخذه على الكورنثيين ، من أقذع أنواع الهجاء
(لأن الكورنثيين امتدحوا ما يألمون منه والشاعر يقول لهم ليس على
العدو ما يأخذه على عدوه) ^(٢)

٢٥ - وكذلك من فضله واختاره واحد من أهل الفضل (رجل حكمة
أو رجل أخلاق أو امرأة متصفة بالفضيلة) فهو فاضل ، وهو خير من غيره .
وهذا هو إشار أتنا ^(٣) Athéna لأوليس ^(٤) Ulysse وإشار تيزيه ^(٥)

(١) يشير إلى مافره في الباب الرابع في الفقرة الثانية .

(٢) يشير إلى موقف الكورنثيين من الطرواديين والآثينيين فقد كانوا يتظاهرون
بالصدقة لكلا الطرفين المتحاربين وهوام مع اليونانيين . وقد كتب L. Spengle عن هذا
الموضوع بتوسع فيما كتب عن كتاب الخطابة Rhétorique, rar L. Spengle
Collection Teubner 1. II. p. 109. 1867 .

(٣) اسم إلهة من آفات اليونان هي عند اليونانيين مثل منيرفا Minerve عند الرومان

(٤) أوليس أو أوديسوس هو بطل الأوديسى (٥) بطل من أبطال اليونان .

Thésée لهيلين^(١) Hélène وإيثار الآلهات الثلاثة^(٢) Les Trois Deesses
للأسكندر (باريس) وإيثار هومير^(٣) Homère لأخيل Achille من بين
أبطال الألياذة .

٢٦ - ويعتبر من الخير كل الأشياء التي تؤثرها على غيرها ، وما تقدم
هو من الأشياء التي تؤثر . وجماع القول في الخير هو : « كل ما يضر الأعداء
وينفع الأصدقاء . »

٢٧ - وفي غير ذلك نحن نحابي بإيثارنا الأشياء الممكنة وهي نوعان : منها
ما يمكن عمله (مطلقا) ومنها ما يمكن عمله بسهولة ، والأشياء السهلة هي التي
نعملها في غير مشقة ولا جهد ، أو هي التي نقوم بها في قليل من الزمن ، لأن
الصعوبة في عمل من الأعمال تأتي إما من الألم والململ الذي يسببه ، وإما من
الوقت الطويل الذي يتطلبه . وأخيرا إنا نحابي بإيثارنا كل الأعمال التي تؤدي
حسب رغبتنا ، ورغبتنا تتوجه إما إلى ما ليس فيه ألم ، وإما إلى ما يكون
الألم فيه أقل من الخير الذي نجيئه ، وإنا نتقبل كل ما يحدث وما سيحدث
إذا كان نتيجته الضارة مغيبة عنا أو قليلة الأهمية .

٢٨ - ونؤثر أيضا الأشياء التي تقع في حوزتنا ، والأشياء التي ننفرد
بملكيتها ، والأشياء النادرة الغريبة لأن مثل هذه المملكية التي ننفرد بها

(١) زوجة مثلوس ملك أسبرطه التي أقرها باريس بن بريام ملك طرواده وبسببها نشبت
الحرب بين أثينا وطرواده .

(٢) الآلهات الثلاث حورا ومنيرفا وفيينوس وقد تحاصمت في أيهن يستأثر بتفاحة الجمال
وارتضين حكم أول قادم عليهن فكان باريس فقضي لمنيرفا بالتفاحة ولذلك ذكر Ruelle اسم
باريس بدل الاسكندر الذي وجد في المخطوط اليوناني الذي ترجمه Dufour

(٣) هومير أو هوميروس صاحب الألياذة والأوديسي وأخيل بطل الألياذة .

تزيد في كرامتنا ، ولأن الأشياء التي تتناسب مع مراکزنا أى التي ورثناها من نبل الميلاد ومن المجد التليد فيها . منفعتنا وقوتنا ، وكذلك تؤثر الأشياء التي نعتقد أننا في حاجة إليها حتى ولو كانت قليلة القيمة ، ففي نفوسنا ما يحملنا على رعايتها أو حيازتها (١)

٢٩- ونحاي بأشارنا أيضا الأشياء سهلة الإنجاز، لأنها ممكنة وإمكانها في سهولتها ؛ والأشياء سهلة الإنجاز هي التي في مستطاع كل الناس ، أو في مستطاع أكبر عدد منهم بما فيهم المبرز والمقصر ، وتؤثر الأشياء التي يتمتع بها أصدقاؤنا ، ويكتب لها أعداؤنا ، وتؤثر القيام بما يثير الإعجاب ، أى القيام بالأعمال التي نجد أنفسنا ومواهبنا فيها ، أو التي تدل على عظيم تجربتنا لأننا نشعر بالنجاح في القيام بها .

وتؤثر القيام بالعمل الذي لا يستطيعه الوضيع ولا يخطر بباله ، لأن مثل هذه الأعمال لها حظها في المدح والإطراء ، وتؤثر القيام بالأعمال التي نرى أنفسنا مندفعين إلى عملها بميل أو هواية ، لأننا لا نشعر إذ نقوم بها باللذة فقط ، بل بالميل والرغبة في إحسانها وإتقانها .

٣٠- وكل واحد منا يؤثر الأشياء التي تتفق واستعداداته النفسية ، فمثلا هؤلاء الذين يحبون التغلب ، يندفعون إلى مواقع النصر ، وهؤلاء الذين يغرمون بالألقاب والرتب ، يندفعون إلى ما ينيلها ، والذين يميلون إلى اللوم والجمع ، يندفعون إلى حوز الثروة، وهكذا الأمر في بقية الميول والدوافع . ذلك هو ما يجب أن تقوم عليه البراهين التي تدل على الخير والنفع .

(١) هذه القيم التي ذكرها أرسطو للأشياء ليست كلها قيما مادية أو خلقية بل فيها قيم لها تقديرها الآن في عالم الاقتصاد فالندرة والغرامة وفنية الأشياء وقدمها والحاجة إليها أو الشعور بهذه الحاجة مما يزيد في تقديرها وقيمتها . وعلماء الاقتصاد الحديثون يقررون أن الشيء النادر والشيء المحتاج إليه ، فمنهما في الندرة وفي الحاجة لافئ دأتهما .

الفصل السابع

ملخص الفصل :

هذا الفصل في درجات الخير والنفع وفيما يؤثر من أنواع الخيور المختلفة التي تتردد بها أفكار الخطباء حتى يختار الخطيب منها ما هو عدل مطلقاً ، وما هو عدل بالاحتمال ، فهو يبحث أولاً في «الموضع» ، كالصغر والكبر ، والقلة والكثرة للحاجة إلى هذين الموضعين في تقدير أنواع الخير المختلفة : فالعدد الأكبر من صنوف الخير أرقى من العدد الأصغر ، وأرقى بالطبع من الخير الواحد . والأطول في جنس إذا كان أرقى من أطول فرد في جنس آخر لزم أن يكون الطول في الجنس الأول أرفع من الطول في الجنس الثاني ، ومن «الموضع» التي قررها أن «ما هو صحيح مقدم على ما هو مقبول أو مستحسن» فالصحة خير ، وخيرها أثر من خير اللذة والسرور ، وأن ما هو «غاية مقدم على ما هو وسيلة» فالصحة أيضاً خير من الألعاب الرياضية . وأن الشئيين يحوج اقتناء أحدهما إلى الآخر لا العكس » فما لا يحتاج اقتناؤه إلى شيء آخر خير مما يحوج ، فالبنون يحوجون إلى اقتناء المال ، والمال لا يحوج إلى اقتناء البنين ، فاليسار أجزل خيراً . « وأن الشئيين يكون أحدهما مبدءاً أو سبباً ، والآخر ليس كذلك » فالخير في تقديم ما هو مبدءاً وسبب ، ولكن إذا كان الشيء المقابل ليس مبدءاً وليس سبباً ولكنه غاية فيقدم هذا المقابل لغائيته ، واتباعاً لهذا «الموضع» أيعاقب المجرم الذي فعل الجريمة ووصل إلى غايتها؟ أم يعاقب الذي أغرى بها وهماً أسبابها؟ فإذا أخذنا بالمبدء والسبب عاقبنا المغري بالجريمة ، وإذا أخذنا «بالغاية» عاقبنا الفاعل . نظريتان لا يزال لهما تقديرهما في القضاء الحديث . وتفاضل الأشياء في باب «الخيرية» و«النفع» يكون بالقلة (الندرة) فالذهب أفضل من الحديد ،

ولكن للخطيب أن يأخذ بالنفع والسيوع فيفضل أحيانا الحديد على الذهب
« وبتدار » يقول « الماء أنفع الأشياء وأفضلها » ، ويكون التفاضل بالصعوبة
لأن الصعب فيه قلة وندرته ، ولكن لا ننسى أن السهل له قيمته في الإجابة السريعة
على رغائبنا ، ويكون التفاضل بالنتائج فالأشياء التي تصحبها نتائج حسنة (في باب
الفضيلة) أو التي تصحبها نتائج سيئة (في باب الرذيلة) عظيمة في خيرها وشرها .
ويكون التفاضل بالزيادة في الفروق التي تؤثر في الجمال ، والتي تتصف بالدمامة والحسن .
فحدة البصر أفضل من حدة الشم ، ومن فقد الحاسة الأولى ، أصابه ضرر أبلغ
من فقد الحاسة الثانية ، فالبصر يؤثر على الشم ؛ ويكون التفاضل بالدوافع النبيلة
والجميلة ، فمثل هذه الدوافع لا يتصل إلا بعمل نبيل عظيم ، والعلم ومادته
متناسبان ، فالمعرفة التي تتصف بالرق والجمال (ومنها الأدب) تتصف موادها
أيضاً بهذه الصفات ، والشعوذة والسفسطة لا تتصف بالرق ولا بالجمال ، ولذلك
اتصفت موادها بالخسة . ويكون التفاضل بحكم الفضلاء ومن في طبقتهم ومن
يلهم فما قدره هؤلاء بأنه خير وحسن فهو حسن . فاذا قال فاضل حكيم « إن
الشجاعة أفضل من القوة » وأن « تحمل الظلم خير من ارتكاب الظلم » كان هذا
القول خيراً ولو أنه صادر عن فرد ، إلا أن حكم هذا الفرد لا يدركه جميع الناس
بطباعهم . ويكون التفاضل بالسبق ، فما يستبق إليه الناس يعملونه لأنفسهم ،
أو لأصدقائهم فهو خير ، لأن الأشياء التي يرغب عنها الناس ، والتي يباعدون
ما بينها وبينهم شروء كلها . ويكون التفاضل بالدوام فأفضل الأشياء أدومها وأثبتها
فإرادتنا مستعدة لعمل الخير الدائم الثابت ، ويكون التفاضل بمراعاة القانون
فالأشياء الخيرة هي التي إذا ارتكبتنا ما يحالفها استأهلنا أشد العقاب . ويكون
التفاضل بالتحليل بمعنى أن الأشياء فاضلة إذا كان كل جزء من أجزائها عظيمًا
في حد ذاته ، وكلما يكون بالتحليل يكون بالتركيب فيبدو الموضوع كأنه أصل

وسبب وعلة وغاية ، ويكون التفاضل بالظروف والملايسات من زمان أو مكان أو سن أو موهبة ، فالصغير إذا خطب كان فاضلاً ، ومن يعمل عملاً عظيماً في وقت قليل فهو فاضل ، ومن يقوم بعمل الشباب في الهرم فهو فاضل ، ومن يقوم بعمل الصحيح وهو سقيم فهو فاضل . ويكون التفاضل بالطبع والصفة فالطبعي أرقى من المكتسب لأنه يأتينا من أعماق أنفسنا ، والطبعي صعب الحصول عليه ، وهو مير لما أراد مدح فيميوس لم يزد على أن قال على لسانه « علمت نفسي بنفسى » ويكون التفاضل بالامكان والاستحالة فالممكن ينفع به من هذه الناحية أو تلك ، أما المستحيل فلا . ويكون التفاضل بالحقيقة وبالرأى فالخطيب (أو الأديب) إذا توجه إلى الحقيقة وأصابها كان فاضلاً ، وإذا توجه إلى موضوعه بالرأى كان عرضة للخطأ والجهل ، فقبول الشيء الجميل والاعتراف به أفضل من أن يقال في الممدوح انه فعل الجميل لأن فعله إذا كان عن جهل أو خطأ لا يكون مدحاً ، أما الانفعال بالجميل في حد ذاته وعرضه للاغراء به ، فلا يكذبان بجهل أو خطأ . ويكون التفاضل بتعدد النواحي فالصحة والثروة فيهما الحياة واللذة والسعادة والجمال وما يعمل مع اللذة خير من غيره فاللذة في ذاتها خير ، وغنية الألم منها خير آخر . والأشياء التي تدل على وجودها خير من التي تمر ولا يشعر بها الإنسان ، ففي الأولى معنى الحقيقة ، وفي الثانية التظاهر ، والثروة الحقيقية خير من الثروة التي لاتعدو المظاهر . والشيء يعتز به الإنسان أكثر من غيره ، أو لأنه لا يملك سواه خير من غيره ، فآلم فقد العين للبصير والأعور غير متساو . فقد فجع الثاني في أعز ما يملك .

هذه هي المقدمات التي يجب أن تصنع منها الآلة والقضايا في الخطابة ، فيها خطب الترغيب والتحذير ، وخطب المدح والهجاء .

(٧)

فيما يؤثر من الخير والنفع (درجات الخير والنفع^(١))

تحديد النسبة الإضافية بين الخير والنافع :

- ١ - كثير أ ما يتفق شيان في منفعة واحدة ، ولكننا نناقش في أيهما أكثر نفعاً ، وهذا يقتضي أن نتعرض لتحديد الخير الذي يعتبر أدخل من غيره في باب الخيرية ، ونتعرض لتحديد النافع ، والأكثر نفعاً .
- ٢ - لنقرر إذن أن الزائد على شيء ، يشمل هذا الشيء ويشمل الزيادة ، وأن هذا الشيء داخل في الزائد . ولنقرر أن كل كيفية أو كمية أكبر من غيرها ، لا تكون إلا بالمقارنة إلى شيء أصغر ، فالكبر والصغر ، كلمات أو مصطلحات تتعلق بالسعة أو بالعدد ، فتجاوز إحدى النسبتين فهو الكبير ، وما تجوز فهو الصغير ، وكذلك الأمر في الكثرة والقلة .
- ٣ - فالأمر إذن كما قررنا سابقاً^(٢) ، من أن الخير هو ما نقصده لذاته لالشيء آخر ، وهو أيضاً ما تتطلع إليه كل الناس ، وما يمكن أن يتطلع إليه هؤلاء الممتعون بالذكا وصدق الحس ، وهو المقدرة التي نعمل بها على تكميل أنفسنا ، وعلى إبقائنا عليها ، وهو أيضاً ما ينتج عن هذه المقدرة ، وهو ما يحدد الغاية من أعمالنا ؛ وبما أن الخير غاية في ذاته فإن أعمالنا تتم باسم هذه الغاية ؛ وخير الفرد هو ما اتصل بعمل من هذه الأعمال بماله علاقة بهذا الفرد .

ويتبع ذلك بالضرورة أن أكبر عدد من صنوف الخير أرقى من

(١) هذا العنوان آثره Dufour . (٢) الفصل السادس - الفقرة الثانية .

أصغر عدد ، وأرقى من الخير الواحد ، بشرط أن يشمل العدد الكبير ماتحته من الكميات ، لأن العدد الكبير شامل وما عداه يدخل في مفهومه .

٤ - لو أن أطول فرد في جنس ، كان أطول من أطول فرد في جنس آخر ، لزم أن الطول في الجنس الأول أعلى منه في الجنس الثاني . وكذلك لو أن الجنس الأول أطول من الجنس الثاني ، لزم أن يكون الأطول في الجنس الأول أفرع طولا من الأطول في الجنس الثاني ، فمثلا لو أن أطول رجل في الرجال ، أطول من أطول امرأة في النساء ، كان الرجال في العموم أطول من النساء . وإذا كان الرجال في العموم أطول من النساء ، كان أطول رجل في الرجال أطول من أطول امرأة في النساء ، فعلى الأنواع وعلى ما يمثلها (أى على مصادقاتها) من المسائل النسبية .

٥ - وكذلك إذا كان هذا نتيجة لذلك لا يلزم أن يكون العكس صحيحا ^(١) لأن الترابط قد يكون مصاحبا للصحة والحياة وقد يكون متتابعا كالدراسة والعلم ، وقد يكون بالقوة أو بالامكان كالتعدي على الحرم والسرقه ^(٢)

فالحياة نتيجة مصاحبة للصحة ولكن الصحة ليست نتيجة مصاحبة للحياة ، والعلم هو النتيجة التابعة للتعليم ، والنهب والسلب نتيجة بالقوة للتعدي على الحرم المقدسه لأن من يتعدى على هذه الحرم لا يبعد عليه أن يسرق وينهب .

(١) فالفقر يلزم عنه البخل ولا يلزم عن البخل الفقر .

(٢) التلازم بالقوة معناه أن يفعل أحدهما فعل الآخر ولا عكس فالسرقه فيها تعمد على الحرم وليس في التعدي على الحرم سرقة دائما ولكن التالى بالقوة معناه أن من يتعدى على الحرم لا يبعد أن يسرق .

٦ - إذا كان هناك شيئان يكبران ثالثا كان الأكبر فيهما هو الذي يتجاوز به بالأكبر ، لأنه أكبر من الثاني (١)

٧ - وتعتبر كبيرة هذه الأشياء التي تنتج خيرا كبيرا ، لأن معنى هذا كما أسلفنا أن هذه الأشياء قادرة على إنتاج أكبر خير ، ومثلها هذا الشيء الذي تكون قوته الإنتاجية أكبر من غيرها . وما دام الصحيح مقدما على المقبول ، فالصحة خير وأثرها أكبر من أثر اللذة والسرور .

٨ - وما يفضل لذاته كان خيره أكثر مما لا يفضل لذاته ، فمثلا القوة في ذاتها أفضل مما يساعد على الصحة ، لأن هذا لا يطلب لذاته ، في حين أن القوة مطلب في ذاته ، وهذه النظرة كما سبق أن نبهنا إليها هي الخاصة المميزة للخير .

٩ - وما هو غاية أى مقصود لذاته أرقى ، مما ليس بغاية ، فأن ما ليس بغاية لا يبحث عنه إلا كوسيلة لشيء آخر . فمثلا عمل التمرينات الرياضية ليس بغاية بل الغاية فيه هي الصحة .

١٠ - ويكون الخير أرقى في بابه إذا كان قليل الحاجة إلى شيء غيره أو إلى أشياء آخر (٢) لأن حاجته القليلة إلى غيره دليل على اكتفائه بذاته ، وحق الحاجة القليلة (أو حد القلة في الحاجة) أن يكون المحتاج إليه قليل العدد أو سهل التناول .

(١) لفهم هذه الفقرة نفرض أن هناك خطين طول أحدهما (١) $3\frac{1}{2}$ سم وطول ثانيهما (ب) ٣ سم وهما أطول من خط ثالث (جـ) طوله $2\frac{1}{2}$ سم فـ كل من الخطين أ ، ب أطول من جـ . ولكن الأكبر الحقيقي هو (١) لأنه أكبر من ب الذي هو أكبر من جـ .
(٢) الفرض في هذه الفقرة وفي غيرها عرض شيئين أو جزءين أو عملين متساويين أو موضوعين وضعا متوازيًا حتى يمكن المقارنة والاختيار .

١١ - وكذلك الأمر أمام شيئين أحدهما يوجد أو يستحيل وجوده من غير الآخر ، في حين أن هذا الآخر يمكن أن يكون من غير الأول ، لأنه يكتفى بنفسه ولا يحتاج إليه ، ومن هنا يكون الثاني أدخل في باب الخير من الأول ، أو فيه خير أكثر من الأول . (١)

١٢ - وعندما نجد أنفسنا بين شيئين أحدهما أصل ومبدأ والآخر ليس كذلك ، أو أن أحدهما سبب وعلة والآخر ليس كذلك ، - ومعلوم أنه إذا لم يوجد سبب وأصل استحالة حصول شيء أو وقوعه - وجب الفرز والاختيار ، فأمام المبدئين يكون الشيء ذو المبدأ الأقوى هو الأقوى (٢) وأمام السببيين يكون الشيء الناشئ عن السبب الأقوى هو الأقوى ، ويكون بالطبع مبدأ أقوى الأشياء هو المبدأ الأقوى ، ويكون سبب أقوى الأشياء هو السبب الأقوى .

١٣ - إذا تقرر هذا فمن الواضح أن الشيء يمكن أن يظهر بأنه أكثر أهمية من غيره في شكلين : (أولاً) إذا كان الشيء أصلاً ومبدأً ، والشيء الآخر ليس كذلك ، فأن الأول يبدو أنه أكثر أهمية ، و(ثانياً) إذا كان هذا الأول أصلاً ومبدأً وكان الثاني غاية ونهاية فإن الغاية أعلى من الأصل والسبب .

(١) هذه الفقرة في مختصر ابن رشد أدبت بالعبارة الآتية :

« إذا كان شيئان أحدهما يحوج اقتناؤه إلى الثاني ، والثاني لا يحوج اقتناؤه إلى الآخر ، فإن الذي لا يحوج اقتناؤه إلى الآخر هو آخر . مثال ذلك اليسار واليمين فإن اليمين يحوجون إلى اقتناء المال ، واليسار ليس يحوج إلى اقتناء اليمين ، فاليسار أفضل منهما .

فالسكونية والاستحالة ترجت بالحاجة والقنية ولعل هذا من تصرف ابن رشد ، ودليله أن مثل اليسار واليمين غير موجود في هذه الفقرة . قارن مختصر ابن رشد ص ٦٨ مع ترجمة رويل ص ١١٦ ، فقرة (١١) ثم قارن النصين بعبارة دوفور ص ١٠٠

(٢) بقطع النظر عن أن أحدهما أصل للآخر فأرادة الخير أصل لفعل الخير وهذه الأصالة لا تنفي أن فعل الخير أقوى من إرادته :

وجريا على هذا اتهم ليوداماس ^(١) Léodamas كالليسترات ^(٢) Callistrat وقال إن من أشار ونصح بالجريمة كان ذنبه أكبر من ذنب مرتكبها ، لأن الجريمة ما كانت تقع لو أن المشورة لم تتم .
وليوداماس نفسه لما أراد أن يتهم شابرياس ^(٣) Chabrias قال إن الفاعل للجريمة أكبر ذنبا من الذى أشار بها لأن وقوع الجريمة ما كان يحدث لو لم يوجد من يقوم بها . فوقوع الجريمة غاية وغرض وهو ما يجب أن تتوجه إليه المرافعة القضائية ^(٤) .

١٤ — الشيء النادر مفضل على الشيء الكثير ، فالذهب أفضل من الحديد على كثرة استعمال الحديد ، لأن الذهب من الأغراض التى يسعى لها ولا يحصل عليه إلا بمشقة . وإذا نظرنا إلى الأمر من ناحية أخرى آثرنا الحديد لأن الشائع أفضل من النادر ، وكثرة الاستعمال لها تقديرها ، ومن هنا قول الشاعر ^(٥) : « الماء أنفع الأشياء وأحسنها » ^(٦)

١٥ — الصعب فى العموم له قيمة أكثر من السهل لأن الشيء الصعب نادر ، وإذا نظرنا إلى المسألة من ناحية أخرى قلنا إن الشيء السهل له قيمة أكبر من الصعب ، لأنه يجيب رغائبنا بسهولة ولأننا نجده عند الحاجة إليه .

(١) ليوداماس خطيب يونانى كان من تلاميذ إيسقراط Isocrate وأستاذا لأشين Eschine

(٢) كالليسترات خطيب يونانى .

(٣) شابرياس قائد يونانى .

(٤) مبدءان فى الجريمة : قررها أولا باعتبار المبدأ والأصل فبين أن من أشار بالجريمة أشد إجراما ممن نفذها . وقررها ثانيا باعتبار الغاية فكان من نفذها لا من أشار بها هو المجرم وما وجهها نظر لا يزال لها تقديرها فى التشريع الحديث .

(٥) الشاعر هو « بندار » .

(٦) أي فملى الخطيب أن يدير وجهات النظر المختلفة الى الناحية التى يريد بها .

١٦ - يكون الشيء عظيماً إذا كان مقابله أو ضده عظيماً ، ويكون الشيء عظيماً إذا كنا نحس بالحاجة إليه عند الحرمان منه ، والفضيلة أعظم من غيرها (أى من سائر العادات التى لا تتصف بالفضيلة) والرذيلة أكبر من غيرها (أى من سائر المخالفات التى لا تصل إلى درجتها) لأن الفضيلة والرذيلة من النهايات والغايات ، وما ليس بفضيلة ولا رذيلة لا يصل إلى حد النهايات .

١٧ - الأشياء ذات النتائج الحسنة وذات النتائج القبيحة عظيمة فى ذاتها فى الخير والشر ، ولها أهميتها حسب تفاوتها فى الحسن والقبح ، وكذلك الصواب والخطأ (الفضائل والرذائل) إذا عظمت عظمت أهمية الأعمال التى أبرزتها مادامت النتائج مساوية للأسباب والمبادئ (العلل والأصول) وما دامت الأسباب والمبادئ مساوية للنتائج .

١٨ - قد تؤثر فى الأشياء فروقها (بالزيادة) وبخاصة الفروق التى تتصف بالحسن والجمال ، فمثلاً حدة البصر تفضل حدة الشم ، والبصر يفضل الشم نفسه ، فلو خیرنا بين فقدان البصر وفقدان الشم لاخترنا الثانى فالبصر يؤثر على الشم ، كذلك الزيادة فى حب الأصدقاء أجدى وأجمل من الزيادة فى الثروة ، والرغبة فى الأصدقاء خير من الرغبة فى المال :

فزيادة الأشياء الحسنة حسنة أيضاً ، وزيادة الأشياء الجميلة جمال ، وزيادة ألقاب الشرف شرف .

١٩ - وكذلك الأشياء التى نتوجه إليها برغائب ودوافع نبيلة وجميلة . لأن هذه الدوافع القوية لا بد أن يكون اتصالها بأشياء مهمة ، والرغبة التى تدفع للأشياء الحسنة أو الجميلة ، هى أيضاً حسنة وجميلة .

٢٠ - كيفما تسكن المعرفة تسكن موادها ، فالمعرفة التى تتصف بالرقى

والجمال ، تتصف موادها أيضاً بهذه الصفات ، فمن يقرر معرفة يقرر حقيقة ، وكيفما يكن العلم يسكن تشكيل الحقيقة التي تعتبر مادة له ، وكل علم يتحكم بنظمه في منطقة نفوذه ، والعلوم التي تعالج مواد راقية وجميلة ، تتصف هي أيضاً بالرقى والجمال . فالعلم ومادته متناسبان ^(١) .

٢١ يعتبر خيراً وحسناً أيضاً هذا الذي يحكم عليه أو حكم عليه أناس متمعون بصدق الحس ، أو أجمعوا عليه ، أو أجمع عليهم معظمهم ، أو قال به أناس لهم قيمتهم وقدرهم بأنه خير وحسن ، ولا بد إذن أن يكون كذلك ، سواء أكان حكمهم في ذلك بشكل قطعي ، أم كان حكمهم شخصياً لما لهم من صفة التخصص . وهذا المقياس يمكن أن تقاس بها مسائل أخرى ^(٢) .

وفي الحقيقة إن طبيعة شيء بعينه وكيفيته وكميته ، تجدد بما تقرره العلوم ، وما يقرره الحس الصادق ، ولسكننا هنا نتكلم فيما هو خير وفيما هو أصح لأننا عرفنا الخير ^(٣) بأنه الذي يختاره الناس الممتعون بصدق الحس ، فمن الواضح إذن أن يكون الأصح والأحسن هو ما يقرر الحس الصادق أنه أحسن من غيره .

٢٢ — كذلك الأصح هو ما يكون الحكم فيه من خاصة الفضلاء

(١) لا يقصد أوسطو هنا المواد النظرية ولكنه يقصد المواد الشعرية وفي كتاب الجدل نقرأ له هذه العبارة « يجب أن يتوجه كل ما يقال على كل ما هو نافع . وفي العموم العلم الجلي *La meilleure science* يقرر بأفضل العبارات وأحسنها وإذا كان مجال العلم خاصاً يقرر بعبارة الخاصة . *Dufour* ص ١٠٣ هامش (١)

(٢) غير هذه المسائل الذي يتحدث فيها من معرفة الخير والأصلح .

(٣) الفصل الرابع الفقرة الثانية .

الخيرين سواء أكان حكيماً مطلقاً ، أم حكماً روعى فيه وصفهم بالفضلاء ،
فمثلاً الشجاعة أفضل من القوة . هذا ما يختاره الرجل الفاضل بالأطلاق
أو بوصفه فاضلاً ، ومثلاً تحمل الإنسان الظلم في نفسه خير من أن يظلم
غيره ، وهذا الحكم هو ما يختاره الرجل العدل . (أى هو حكم فردى
لا يدركه كل الناس بطباعهم) .

٢٣ - كذلك الشيء الذى يسر أكثر من غيره ، يكون أفضل وأصلح ،
لأن كل الناس تطالب المسرة وتحتاج إلى المنفعة لذاتها ، والخير محدود بهذه
العبارة . ويسر الشيء أكثر من غيره ، إما لأنه يكلف فى الحصول عليه
ألماً أقل من غيره ، وإما لأن المسرة فيه تدوم أكثر منها فى غيره .

٢٤ - والأجمل أفضل وأصلح من الجميل (مع التفاوت فى درجة
الجمال) لأن الجميل هو السار والسرور يؤثر لذاته .

٢٥ - كل الأشياء التى يرغب الناس فى أن يكونوا السابقين للقيام بها
لأنفسهم أو لغيرهم من أصدقائهم خير يؤثر ، لأن الأشياء التى يرغب عنها
الناس ولا يريدون لأنفسهم أن يتدخلوا فيها شروط كلها .

٢٦ - كذلك الصوالح الدائمة من الأعمال خير من الأقل دواماً ،
والمؤكد خير من غيرها ، لأن فوائد الأولى فى دوام الانتفاع بها ، وتنفوق
الثانية فى شدة الرغبة فى الانتفاع بها ، وفى الحق الرغبة المدفوعة بالإرادة
تجعلنا نميل إلى الخير الدائم الثابت .

٢٧ - أمام المعانى التى يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً منطقياً ، وتؤدى
بعبارات متقاربة تمتد إلى نواح أخرى غير هذه المعانى ، يختار أفضلها ، فمثلاً
إذا كان من الأكرم أن نعمل بشجاعة ، بدلاً من أن نعمل بحرص ، كانت

الشجاعة خيراً من الحرص ، ويتبع ذلك أن العمل الذى يتطلب الشجاعة
خير من العمل الذى يتطلب الحرص .

٢٨ — ما يختاره كل الناس أفضل مما يمتنع الناس عن اختياره ،
وما تختاره الأغلبية ، أفضل مما تختاره الأقلية . وقد سبق أن قلنا ^(١) إن
ما يبحث عنه كل الناس هو الخير . وخير ليس وراءه خير هذا الذى
تشتعل الرغبة فى طلبه والحصول عليه . كذلك هو خير ما يريده المحتجون
والمعتضون وما يريده الأعداء (لأنهم يطلبون الخير لأنفسهم) ، وما يريده
القضاء الممتازون ، ومن يختارهم هؤلاء القضاة ، فحكم القضاة طبعى
وعادل ، وحكم من يختارونه عادل أيضاً لأن القضاة مختصون ويعرفون
حقيقة الحال .

٢٩ — وتكون أهمية الخير إما بانسكاب كل الناس على الاشتراك فيه ،
إذ يكون من النقص أن يبتعد الإنسان عما يندفع إليه الناس ، وإما بعدم
الاندفاع إليه ، أو باندفاع عدد قليل من الناس للاشتراك فيه لأنه قليل نادر .
٣٠ — الأشياء الجديرة بالمدح والثناء خير ، لأنها نادرة . وكذلك
ما يرفعنا فى مدارج الشرف ، لأن الشرف امتياز وسمو ، وكذلك الأشياء التى
نستأهل — إذا ارتكبنا ما يخالفها — أشد العقاب .
٣١ — أضف إلى ذلك الأشياء العظيمة المعترف بعظمتها ، أو التى لها
مظاهرها من العظمة .

والأشياء التى إذا حملت إلى أجزائها يبدو فيها الشيء الواحد متكاثراً ،
لأن هذا التحليل يظهرها فى أشكال عديدة . وهذا ما فعله الشاعر الذى

(١) أول الفصل الخامس .

سرد لزوجته « ميلياجر » Méléagre ^(١) — وقد حاولت إقناع البطل بالذهاب إلى المعركة — كل المصائب أتت عاناها سكان بلدة منكودة : « لقد هلك الناس — وحولت النار المدينة إلى رماد — وسي الأعداء الأطفال » ^(٢) .

ومن الممكن أيضاً جمع الأفكار وتركيبها وتجميعها على النحو الذى كان يعمل « ايشارم » Epicharme للسبب عينه الذى قدمناه فى التحليل والتقسيم ، لأن سمو التركيب آت من التجمع ^(٣) ومن هنا يبدو الموضوع كأنه أصل وسبب ^(٤) لعدة أشياء مهمة .

٣٢ — وكما أن السهولة والقلة (الندرة) لها قيمتها فى تقدير قيم الأشياء ، فإن الظروف والملابسات من السن والأزمة والأمكنة والمواهب ، تزيد فى قيم الأشياء وتجميعها : فالعمل الذى يتجاوز حدود الطاقة ولا يتفق والسن ، والعمل يتجاوز مقدرة أمثالنا من الرجال ، إذا عملا على رغم هذه العقبات فى ظروف معينة ، وفى مكان وزمان معينين عدا فى الأعمال العظيمة العادلة المشرفة أو فى نقائضها (أى ولا يمنع ذلك من أهميتها) ^(٥) ومن هنا هذه العبارة التى قيلت عن أحد المنتصرين فى الألعاب الأولمبية .

(١) ملك خالديونيا Calydon .

(٢) الألياذة : Iliade ix, 292, 94

(٣) عبارة « دوفور » : « سمو التركيب يأتى من التحليل إلى أجزاء » ص ١٠٤ . وقد

ذكرنا هذه العبارة لأنها مما اعتمد عليه عبد القاهر ونقضها فى الكلام على تشبيه التمثيل .

(٤) فى ترجمة « رويل » توجد كلمة Source ومعناها الأصل أو المنبع .

وفى ترجمة « دوفور » توجد كلمة Cause ومعناها السبب والعلة وهى المرادة هنا .

(٥) مثل كون المرء طالماً وهو صبي ، ومثل من يعمل عملاً كثيراً فى وقت قليل ، ومثل أن

يعمل المضعوف عمل القوى ، وأن يقوم المريض بما يقوم به الصحيح .

« قديما كنت أحمل على كتفى عصا غليظة مثقلة بالأحمال ،
 « وكنت أحمل السمك من أرجوس إلى تبجيه .
 وكذلك مدح « إفيكرات ، Ephicrate نفسه بنفسه حينما قال :
 « ما أعظم البداية إذا نظرنا إلى الحالة الراهنة ، ^(١)
 ٣٣ — الطبيعى أرقى من المكتسب ، وما يأتينا من أعماق نفوسنا
 أقوم وأثمن مما نكتسبه ، والسبب فى ذلك صعوبة الحصول على الطبيعى ،
 (وقد علمنا أن الصعوبة من مقومات القيمة) والشاعر يقول : « علمت
 نفسى بنفسى » ^(٢)

٣٤ — والجزء المهم فى الشئ المهم له تقديره أيضا كما قال بركليس
 Périelès فى خطبة رثائية عندما قارن الشباب بالربيع :
 « إن انتقاص الشباب من المدينة كانتقاص الربيع من فصول السنة » ^(٣)
 ٣٥ — والأشياء النافعة عند الحاجة القصوى قيمتها أكثر من غيرها ،
 مثل ما يحتاج إليه فى الشيخوخة أو المرض . ^(٤) وأنفع الشئين ما كان أدنى
 إلى الغاية التى تقدر له ، وما هو نافع لشخص بعينه أجدى مما هو نافع
 مطلقا . ^(٥) والممكن يؤثر على المستحيل لأن الأول يمكن الانتفاع به من
 هذه الناحية أو تلك ، أما المستحيل فلا . وتفضل الأشياء غيرها إذا كانت

-
- (١) سبرد اسم « إفيكرات » فى الفصل التاسع وفيه مدحه لنفسه .
 (٢) الاوديسى لهومير الجزء ٢٢ ص ٣٤٧ قالها هومير على لسان فيميوس Phémios .
 (٣) هيرودوت فى الجزء السابع ص ١٦٢ ينسب هذا التشبيه إلى جيلون Gélon .
 « دوفور » ص ١٠٤ هامش (٧) .
 (٤) الصحة فى الشيخوخة نعمة لأنها جاءت وقت الحاجة إليها . والمرضى فى الشيخوخة
 نقمة لأنه جاء والمرء أحوج ما يكون الى الصحة .
 (٥) أرسطو بهذه العبارة يدنو من السوفسطائيين .

مفيدة في آخر العمر ، فما وصل إلى النهاية أفضل مما هو في طريقه إليها ، وما كان قريباً من الغاية يعتبر إلى حد كبير غاية .

٣٦ — ما يتفق والحقيقة أرق مما يتفق والرأى ، والخاصة المميزة للشيء التابع للرأى هو أن الإنسان لا يجد في نفسه الاستعداد لإبداء الرأى إذا كان العمل الذى أبدى الرأى فيه مجهولاً ،^(١) ولذلك نؤثر أن نتقبل فائدة أو منفعة على أن نعطيها ، لأن فينا استعداداً لقبول هذه الفائدة ولو بطريقة سرية ، ويظهر أنه ليس فينا استعداد للعطاء إذا لم يعلم الناس ما نعطي . (٢)

٣٧ — الأشياء التى نريد أن تكون حقيقتها أكثر من مظاهرها أفضل ، لأن هذه الأشياء لها كبير اتصال بالحقيقة ، ومن هنا هذا المثل السائر « هذا شيء قليل كالعدالة ، أو « هذا شيء أقل من العدالة » ما دامت الناس تتظاهر بالعدالة أكثر من أن تكون لهم حقيقتها . والأمر هنا على غير ما قررناه في الصحة . (أى أنها لا يكتفى فيها المظاهر .)^(٣)

٣٨ — وهناك النافع الذى يفيد من نواح متعددة ، أى النافع

(١) يريد بالحقيقة الفضائل التى إذا ذكرت كانت حقيقتها في مجرد ذكرها ويريد بالرأى تعتمد المدح ، فلو أتى المدح عن جهل أو خطأ لا يسمى مدحاً بخلاف ذكر الفضائل الحقيقية فلا مجال فيها لخطأ أو جهل .

(٢) يريد أن قبول الشيء الجليل أثر لدينا من فعل الشيء الجليل ، لأن فعله إذا كان عن جهل أو خطأ لا يقبل ولا يمدح ، أما قبوله وحسن الانفعال به فلا يتأثران بجهل أو خطأ منا .

(٣) هذا المثل غير موجود في ترجمة « دوفور » ولدت تعرض لمعناه . أرسطو في هذه الفقرة والتي قبلها يظهر أنه يخالف ما قررره في مثالية الخلق ، لذلك يقرر في الفقرة السابقة أن العطاء السري لا تندفع إليه النفس ، ويقرر في هذه الفقرة اكتماء العدالة بالمظاهر . ولكن — كما هو معلوم عنه في كتاب الأخلاق — يضع الحقيقة العالمية الثابتة فوق الرأى والفكرة المتصفين بالقلب . ولا يغيب عن ذهننا أنه بصدد الخطابة التى تعتمد على الجدل !

للحياة ، وللحياة السعيدة ، ولجلب المسرة ، وللمساعدة على الاتجاه في نواح متعددة في الجمال . ومن هنا أيضاً تكون الصحة والثروة من أفضل النعم بل أفضلها ، لأنهما ينتظمان كل ما تقدم .

٣٩ — كذلك ما يمكن عمله في وقت واحد مع اللذة وقليل العناء .

(أى فهو أفضل من غيره) وهنا شيان في الحقيقة لشيء واحد : فاللذة خير ، وغيبة الألم خير آخر .

٤٠ — والشيطان يضاف إليهما ثالث ، والمؤثر منها هو الذى يتجاوز المجموع ويكبره . وكذلك الأشياء التى تدل على وجودها خير من التى تمر ولا يشعر الإنسان بوجودها ، لأن الأولى معنى الحقيقة ؛ وكذلك الثروة الحقيقية أكثر قيمة من الثروة التى لاتعدو المظاهر .

٤١ — كذلك الشيء يعتز به الإنسان من بين ما يملك ، أو يعتز به لأنه لا يملك غيره . ولهذا السبب كان ألم الفقد غير متساو فى عين الأعور وعين المبصر ، فالأول هو المفجوع فى أعز ما يملك .

وبهذا نكون قد سردنا كل المقدمات تقريباً التى يجب أن تصطنع منها الأدلة فى الخطابة ، وسواء فيها خطب الترغيب والتحذير والحمل والاقناع والمدح والذم .

الفصل الثامن

ماتخص الفصل

بعد أن عدد صنوف الخير ، وبعد أن بين النسب والفوارق فيها لكسب الإقناع ، ولإسداء النصح والمشورة ؛ رجع على الخطيب ليلزمه معرفة السياسة ، وأقل ما يجب معرفته منها في الخطابة أن يكون الخطيب ملما بقوانين بلده ، وبشكل الحكومات فيها ، وبالنظم التي تحكمها ، ولكل حكومة من الحكومات المختلفة نظم مختلفة من الضروري الإلمام بها . والحكومات أربعة الحكومة الديمقراطية أو «السياسة الجماعية» كما يسميها ابن رشد وهي «حكومة الشعب» التي تكون وظائفها موزعة بالاتفاق إذ لا فضل لأحد على أحد في مثل هذه الحكومة . والحكومة الأوليغارشية أو «الحكومة الخسيسة» في تسمية ابن رشد هي ما كان الأمر فيها للأقوياء يسלטون على المدنيين بالأتاوات في غير رعاية للصالح الحقيقية في الحماية والقوة والحفظ . والحكومة الارستقراطية أو «سياسة جودة التسلط» في رأى ابن رشد، معناها أن يكون الحكم في أيدي أناس يتمتعين بمزايا خاصة . والحكومة المونارشية ويسميها ابن رشد «سياسة الوجدانية» أي سياسة الفرد . فالسلطة في يد المواطنين دائما ، ومرد الأمر فيها إما لجزء من المواطنين وإما لهم جميعا .

فالحكومة الأولى تساوى بين المواطنين ، والثانية يكون الأمر فيها تابعا للثروة والضريبة ، والثالثة يرجع الأمر فيها إلى المثقفين المتفهمين في القانون ، والرابعة استبدادية أو قريية منها ، فهي إما أن تسير على نظم ثابتة حتى تكون ما يسمى بالمملكة ، وإما أن تكون سلطة الحاكم فيها غير محدودة فتكون هي والاستبداد بمنزلة سواء .

ولكل حكومة غاية ، فغاية « الديمقراطية » الحرية ، وغاية « الأوليغارشية »
الثروة ، وغاية « الاستقرائية » التربية والتشريع ، والاحتفاظ بالسلطان هو
غاية الحكومة « الاستبدادية » . وواجبنا بعد ذلك في إيراد المقنعات من البراهين
أن نلم بهذه النظم ، مع معرفتنا التامة بالأخلاق والعادات وصحتها بالقوانين ،
وللخطيب أثره في كل أولئك وفيما يظن به من صفات الفضيلة أو الحرص أو هما
معا ، حتى يسمع الناس ما يقول ، وحتى يصدق المستمعون ما يقال .

وإلى هنا يمكن أن نقول إننا عرفنا : إلى أى غرض نرى في خطب المشورة
والتحذير ، ومن أى المقدمات تؤخذ أدلة هذه الخطب ، وكيف نستمد الأدلة
من الأخلاق والعادات ، أما تفصيلات هذا كله ففي كتابنا « السياسة » .

(٨)

في النظم^(١)

في عدد الحكومات المختلفة وطبيعتها والغاية من كل حكومة^(٢)
١ - هناك ما هو أهم مما تقدم ، وما هو أبعد أثرا في كسب المقدرة
على الاقتناع وفي إسداء النصيح والمشورة ، ذلك هو معرفة النظم المقررة في
الدولة ، ومعرفة طبقات المواطنين وعاداتهم ، ومعرفة القوانين ، وفوائد كل منها
ان كل الناس يخضعون لفكرة الفائدة والمنفعة ، ولكل ما يحفظ كيان
الدولة من النافع ؛ وأكثر من هذا أن السلاطة هي مظهر الهيئة الحاكمة ،
ومظاهر السلاطة تتغير بتغير النظم ، وتختلف باختلاف أشكال الحكومة ،
وعلى قدر أنواع الحكومات المختلفة تكون النظم المختلفة في الدولة .
٣ - وهناك أربعة أنواع للحكومة : الحكومة الديمقراطية
Démocratique^(٣) والحكومة الأوليجارشية Oligarchique^(٤)

(١) هذا العنوان الجمل من ترجمة « دوفور »

(٢) هذا العنوان المفصل من ترجمة « روبل »

(٣) كلمة ديمقراطية Démocratie تتألف في أصلها اليوناني من كلمتين :

Démos ومعناها الشعب ، Kratos ومعناها السلطة ، فالحكومة الديمقراطية هي
« حكومة الشعب » . ويسمى ابن رشد « السياسة الجماعية » وهي التي تكون السياسة
فيها بالاتفاق والبيخت لا عن استئصال ، إذ كان في هذه المدينة لا لأحد على أحد فضل .
مختصر ، ص ٨٠

(٤) كلمة « أوليجارشي » Oligarchie تتألف في أصلها اليوناني من كلمتين :

Oligos ومعناها العدد القليل ، ومن كلمة archê ومعناها الأمر ، فهي حكومة الأمر
فيها بيد بعض الأقوياء . ويسمى ابن رشد « سياسة الحسة » « وأما حسة الرئاسة فهي التي
يتسلط فيها المتسلطون على المدنيين بأداء الأناوة والتقديم لا على جهة أن تكون نفقة
للحماة والحفظة ، ولا عدة للمدينة .. » ص ٨٠

والحكومة الاستقرائية Oristocratique (١) والحكومة المونارشية
Monarchique (٢) .

وإذن تكون السلطة الحاكمة أى السلطة التى يرجع إليها مرد الأمر فى
النهاية مؤلفة دائماً إما من جزء من المواطنين ، وإما من المواطنين جميعهم .
٤ — الحكومة الديمقراطية هى ما كانت الوظائف فيها موزعة حسب
الاقتراع (اتفاقاً) والحكومة الاوليجارشية هى ما كانت السلطة فيها تابعة
للثروة والضرية . والحكومة الارستقراطية هى ما يرجع الأمر فيها إلى
التربية والتعليم (٣) وأقصد بالتربية هنا التربية المحددة بالقانون ، فهو لاء
الذين يقيمون على إخلاصهم للقانون والنظم هم الذين يتولون الحكم
والوظائف فى هذه الحكومة فهم بالطبع طبقة « الارستقراط » Aristos
أى العطاء المختارون الذى ينسب إليهم هذا النوع من الحكم ؛ والحكومة
« المونارشية » هى ما ينفرد فيها واحد بالسلطة ، كما يدل اسمها عليها ، غير أن
هناك نوعين لهذه الحكومة ، الأول أن تسير هذه الحكومة الفردية على
قواعد (ثابتة) لتكون منها « المونارشية » المنظمة أو المملكة ، والثانى

(١) كلمة ارستقراطية Aristocratie أصلها اليونانى من كلمتين Aristos ومعناها
عظيم و Kratos ومعناها السلطة والقوة فالحكم فيها بيد الممتعين بمزايا خاصة . ويسمى
ابن رشد « سياسة جودة التسلط » « وأما جودة التسلط الذى يكون على طريق الأدب
والاقتداء بما توجهه السنة (التشريع) ص ٨٠ ٤ ٨١ .

(٢) كلمة مونارشى Monarchie من كلمتين فى الأصل اليونانى Monos ومعناها
الفرد وكلمة Arkhien ومعناها الأمر فهى حكومة الفرد الأمر . ويسمى « ابن رشد »
« سياسة الوحدةانية وهى الكرامية » يقصد كرامة الرئاسة . ص ٨٠ ٤ ٨١

(٣) لأن غرض التربية تكوين المواطن الصالح لأن يكون عضواً فى الجماعة ، فالواجب
إذن أن يكون التعليم فى نظر أرسطو موحد المنهاج ، مراقباً فلا يترك للأفكار الخاصة .
« كتاب السياسة » . « دوفور » ص ١٠٦ هامش (١)

أن تكون سلطه الحاكم فيها غير محدودة ، وهى «المونارشية» غير المنظمة ، أو هى الاستبداد عيئه .

٥ - لا يجب أن نجعل الغاية لكل نوع من هذه الأنواع الأربعة للحكومة ، فإن الغاية التى نضعها أمامنا هى التى تحددها دائماً ، وبعد فالحرية غاية الحكومة «الديمقراطية» ، والثروة غاية الحكومة «الاوليجارشية» ، والترية والبصر بالقوانين غاية الحكومة «الأرستقراطية» ، والاحتفاظ بالسلطان غاية الحكومة «الاستبدادية» (١)

وبما تقدم يتضح أنه يجب أن نفرق بين الغايات والمنافع وبين القوانين التى تتصل بغاية كل نوع من أنواع هذه الحكومات ، ما دام التحديد الذى سنسير عليه سينظر فيه إلى هذه الغايات .

٦ - وبما أن «المقنعات» لا تتصل بالبرهان وحده ، بل تتصل أيضاً بالعادات والتقاليد ، فأول واجباتنا الاستيثاق من الصفات التى يتمتع بها الخطيب ويظهر بها من فضيلة أو حرص ، أو منهما معاً : والواجب علينا (على الخطباء) (٢) أن نعرف حق المعرفة الصفات الخلقية لكل حكومة . وأحسن طريقة للأقناع هى ملاحظة التقاليد والعادات الخاصة بكل حكومة والخاصة بالبلد الذى نتكلم فيه ، وإذن توضع أدلتنا فى أشكال لها اتصال بعاداتنا ، والحقيقة أن العادات تظهر فى السلوك (والأحداث التى تصدر عنها)

(١) لاحظ «دوفور» أن أرسطو فرق فى الفقرة الرابعة بين المملكة Royauté وبين الحكومة الاستبدادية Tyranie ، وعند تحديد الغايات لم يذكر إلا ما ينطبق على النوع الاستبدادى من نوعى «المونارشية» . ويحمل «دوفور» على «كتاب السياسة» لنقرأ العبارة الآتية : نطلق عادة كلمة مملكة Royauté على الحكومة الفردية التى تعنى بالجماعة . «دوفور» ص ١٠٧ هامش (١)

(٢) هذه الزيادة من زبادات Barthélemy saint-Hilaire رويل ص ١٢٦

ومبدأ السلوك له اتصال بغاية كل حكومة . (هذه التقاليد تعرف بنفس
الوسيلة التي تعرف بها الأخلاق الفردية ، لأن الأخلاق تظهر بالإيثار وهو
الدافع إلى التزامها لأنه آثرها على غيرها ، والإيثار يتحدد بالغايات) (١)
٧ - وبعد فآلى أى غرض حاضر أو مستقبل نرمى فى خطب المشورة؟
ومن أى المقدمات تلتزم هذه الخطب أدلتها فى موضوع النافع ؟ وبأى
وسيلة نستطيع أن نمسد أنفسنا بالأدلة الخاصة بالأخلاق والعمادات ونظم
الحكومات ؟ هذا هو ما أجملناه ، وهو ما سمحت به الفرصة الحاضرة ، لأن
ذلك كله قد شرحناه بدقة فى كتابنا السياسة (٢)

(١) هذه العبارة بين القوسين من زيادة « دوفور » لتوضيح الفقرة قارن بين الفقرتين
« دوفور » ص ١٠٧ ، « روبل » ص ١٢٥ ، ١٢٦ الفقرة السادسة .
(٢) Politique, liv 111.

الفصل التاسع

مخصص الفصل :

في هذا الفصل يتعرض أرسطو للفضيلة والنقيصة وما إليهما مما تتخذ منه الأدلة والمقدمات في الخطب الاستدلالية (خطب المدح والذم) وبهذه المناسبة يتحدث عن الجمال والقيبح الخلقين ليستخذ من هذه الفروع الكثيرة التي سيعرض لها عناصر المدح والهجاء. فالجمال يستأهل المدح لذاته ، والفضيلة جمال لأنها غاية تستأهل المدح لذاتها ، والفضيلة قوة تمدنا بخيرات كثيرة . وللفضيلة أجزاء أو مظاهر ، هي العدالة والشجاعة والمروءة والسخاء والعظمة والتسامح وصدق الحس أو « اللب » حسب تسمية « ابن رشد » والحكمة . وهذه الفضائل متدرجة في الفضل ، فأعظمها أكثرها نفعا للناس ، ومن هنا تعلو العدالة والشجاعة على سائر الفضائل ، لأن العدالة تؤثر في الحرب والسلم ، ولأن الشجاعة فاصلة في الحرب . ويأتي بعدهما الكرم والسخاء ، لأن الكرماء يعطون ثروتهم ، أو منها ، وغيرهم يطلبون المزيد أبداً ، والعفة فيها عدالة لأنها عدم تجاوز القانون فيما يتعلق بشهوات النفس ولذا نذ الجسم ، وأرسطو بعد هذا يفرق بين الكرم والسخاء على خلاف المشهور من ترادفهما ، ويفرق بينهما تفريقاً فلسفياً في باب الأخلاق فالأول هو الفضيلة الدافعة إلى مواطن المروءة مستعينة بالمال ، والسخاء هو الفضيلة التي تدفعنا إلى الجود بأكثر ما نملك . أما صدق الحس أو اللب ففضيلة عقلية تسمح لمصاحبها أن يناقش الفضائل والشرور بقصد الوصول إلى السعادة . وما دامت الفضائل متصفة بالجمال فكل ما يتعلق بها متصف بالجمال أيضاً ، فكل عمل يتصف بالشجاعة جميل ، وكل عمل يتصف بالعدالة جميل ولكن حذار فتوقيع العقوبة على المجرم الحقيقي عدالة ولكنها لا تتصف بالجمال ومن

هنا كانت العقوبة المستحقة عدلاً أقبح من العقوبة التي ضربت ظلماً . والأشياء التي تتصف بالكرامة جميلة وتؤثر على الأشياء المتصلة بالمال ، وما يجازى عليه بالكرامة والمال وفعل من أجل الكرامة كان خيراً مما فعل من أجل المال . وما فعل من أجلهما معا .

كذلك يؤثر من الفضائل المآثر البعيدة عن المنفعة الخاصة فما عمل من أجل الغير أثر مما فعل من أجل النفس . وما فعل من أجل الموت ومن أجل الأموات أثر مما فعل من أجل الحياة ومن أجل الأحياء ، ودليل الفضيلة أن يندى جبيننا بالعرق أمام الخجل ، ولكن حذار أيضاً فقد يتسبب الجبن عرقاً ولا يدل ذلك على الفضيلة بل على رذيلة أثرت في النفس أو أثرت ذكرياتها ، وهكذا كان موقف « ألسيه » مع الشاعرة « سافو » فقد قال لها « كنت أريد أن أقول شيئاً فأصمتي الخجل » فردت عليه « إن الشريف لا يستحي مادام يعبر عن رغبة صريحة مشروعة » والاتصارات وإحراز غايات الشرف من الفضائل التي تتصف بالجمال . والذكريات جميلة وبخاصة إذا كانت مقرونة بما يسر ويشرف . وللخطيب (أو للأديب) ألا يقتصر على ذكر الصفات الحقيقية بل له أن يتجاوزها إلى ما هو قريب منها فيقلب الفضائل رذائل ، وبالعكس إذا كان بينهما اتصال وقرب يسمح بالمغالطة ، فله أن يظهر الحريص بمظهر الخائف ، والرجل الطيب القلب بالمضعوف المغفل . والرجل المتساهل بالشريف ، وبطئ الإحساس بالرجل سهل الحياة ، وقد يكون الشجاع مهوراً والمسرف كريماً ، فالأدلة الخطابية (والأدبية) تؤخذ مما يعرفه الناس ويتعارفون عليه أيضاً لا من الحقائق الخلقية وحدها . وفي المدح والهجاء يراعى السامعون فهم عنصر مهم في الخطابة ، وعنصر له تقديره في الأدب عامة حينما يحل القارئون للأدب محل السامعين للخطابة ، فيتوجه المدح أمام من يعتقد الخبر في الممدوح ، والأمر كما قال سقراط « امدح الاثنين في أثينا » ويكون المدح بذكر الآباء والأجداد إلى جانب عمل الأبناء ، لأن زيادة الميراث في

الشرف ، أجدى من الميراث وحده ، ومن الشرف وحده ، وإن خبرت بين
الأمريين فاختر الشرف بنفسك وبعملك . وفي المدح والهجاء يراعى عنصر آخر
نفسى هو عنصر الاختيار ، فالعمل الصادر عن الإرادة بمدوح والصادر عن الاتفاق
والمصادفة لا يمدح عليه صاحبه أو لا يستأهل الإشادة بالذكر . والأطناب من
خصائص المدح كما هو من خصائص الخطابة ، فلا بد من دراسة الطرق المختلفة
لتوسعة الموضوع كأن يكون الممدوح هو أول من فكر فيما مدح من أجله ،
أو هو الوحيد الذى قام به ، أو أن من قام بمثله قليل ، أو أنه عمل فيه ما عجز عنه
السابقون . والنجاح المتكرر للعمل الواحد دليل على الإرادة وهو موضع من
مواضع الأطناب ، فالأطناب أليق ما يكون بالخطابة الاستدلالية (خطابة المدح
والذم) لأن موضوعات هذا النوع من الخطابة يكاد يكون الإجماع عليها ، فهمة
الخطيب الشرح والأطناب والتجميل .

هذه هي العناصر التى يستمد بها المدح والهجاء ، وهذه هي الاعتبارات التى
توضع نصب أعيننا حينما نتوجه بمدح أو ندفع إلى ذم ، وهى بعينها الروابط بين
المدح والهجاء ، فما الهجاء إلا مواطن الأضداد فى المدح .

في النوع الاستدلالي^(١)

في الفضيلة والنقيصة - في الجمال والقيبح (الخلق) في عناصر المدح والهجاء^(٢)

١ - سنتكلم بعد ذلك عن الفضيلة والرذيلة ، وعن الجمال والقيبح ، لأنها كلها غايات^(٣) أمام من يريد المدح أو الهجاء . وسنبين في أثناء معالجتنا لهذه الموضوعات الطريقة التي نحدد بها كل فكرة من هذه الأفكار الخلقية ، وهذا هو النوع الثاني للبراهين كما بينا .^(٤) وسنبين بنفس الطريقة أننا وغيرنا أهل للثقة في صلتنا بالفضيلة .^(٥)

٢ - وبما أنه قد يحدث كثيراً أننا نمدح جادّين أو هازلين إنساناً أو إلهاً ، وقد يحدث أيضاً أن نمدح كائنات جامدة ، وحيوانات تصادفنا في طريقنا^(٦) وجب أن نعرف على هدى الطريقة التي سلكناها المقدمات

(١) هذا هو عنوان الفصل كما وضعه «دوفور» .

(٢) هذا العنوان المفصل «لرويل» .

(٣) لا يريد من الغايات هنا الغايات الفلسفية التي سبق أن عرف الفضيلة والسعادة بها ولكن يريد بها أنها مواد للأدلة والاستدلال .

(٤) الفقرة الثالثة من الفصل الثاني .

(٥) لاحظ «دوفور» من هذه العبارة أن أرسطو واثق من نفسه حينما يتعرض لموضوع الفضيلة فهو يريد أن يقنع سامعيه بأنه متمتع بها ، وهو برهان نقى يجيزه أرسطو في طريقة الاستدلال . ص ١٠٨ هامش (١) .

(٦) هذا المدح الغريب للحيوانات . والمجرمين كان يدع السوفسطائيين في القرن الرابع قبل الميلاد . ومن هذا القبيل مدح لوسيان في القرن الثاني بعد الميلاد للذباب . دوفور ص ١٠٨ هامش (٢) .

اللازمة للاستدلال في مثل هذه الموضوعات . وسنتحدث عنها ولو على سبيل التمثيل .

٣ — الجليل هو ما يستأهل المدح لأنه يؤثر لذاته ، وما يؤثر لذاته يمدح . أو هو المقبول والمستحسن ، واستحسانه لأنه غاية . وإذا كان هذا هو الجليل ، لزم طبعاً أن تكون الفضيلة شيئاً جميلاً ، لأنها تستأهل المدح ولأنها غاية .

٤ — الفضيلة في رأينا قوة تستطيع أن تمدنا بخيرات كثيرة ، وتقدرنا على الاحتفاظ بها . والفضيلة قادرة أيضاً على إيجاد كثير من الأعمال الطيبة المهمة النافعة في كل شيء وفي وجوه كثيرة . (١)

٥ — وأجزاء الفضيلة (مظاهرها) هي العدالة والشجاعة والمروءة والعفة والسخاء والعظمة والتسامح وصدق الحس (اللب) والحكمة .

٦ — كبريات الفضائل هي بالطبع ما كانت أكثر نفعاً للناس ، مادمنّا قد عرفنا الفضيلة بأنها القوة التي تستطيع أن تمدنا بأطيب الأعمال ، ومن هنا تعلق العدالة والشجاعة سائر الفضائل . لأن العدالة تؤثر تأثيراً كبيراً في السلم والحرب (٢) ولأن الشجاعة تؤثر تأثيراً كبيراً في وقت الحرب . ويأتى بعد هاتين الفضيلتين السكرم ، لأن هؤلاء الممتعين بهذه الفضيلة

(١) يعرف ابن رشد الفضيلة بأنها ملكة مقدرة لكل فعل هو خير من جهة ذلك التقدير ، أو يظن به أنه خير ، أعنى الحافظة لهذا التقدير والفاعلة له . ولذلك كانت موجدة لكل فعل يقصد به نحو غاية ما جليل القدر عظيم الشأن في حصول تلك الغاية عنه (مختصر كتاب الخطابة ص ٨٤ .

(٢) كلمة « الحرب » مزبدة في طبعة « دوفور » .

يعطون بلا حساب ، ولا يفكرون في مسائل الثروة ، يجادلون فيها غيرهم
بيننا يريد غيرهم المزيد منها .

٧ — العدالة هي الفضيلة التي تسمح لكل إنسان أن يتملك
مالا يتعارض مع القانون ، والظلم هو الرذيلة التي تدفعنا إلى التناول على
مال للغير على خلاف ما يريده القانون .

٨ — الشجاعة هي الفضيلة التي تدفعنا إلى الأعمال الطيبة وقت
الخطر ، وتجعلنا خاضعين لسلطة القانون فيما يأمر به . وضدها
رذيلة الجبن .

٩ — العفة (الاعتدال) هي الفضيلة التي تجعلنا لا نتجاوز حدود
ما يسمح به القانون خاصاً بلذائذ الجسم وشهواته والاندفاع (الفجور)
رذيلة ضدها .

١٠ — الكرم هو الفضيلة التي تدفعنا بمعاونة المال إلى مواطن المروءة
وصالح الأعمال والبخل ضد .

١١ — عظمة النفس (كبر الهمة) هي الفضيلة الدافعة إلى جلائل
الأعمال وضدها صغار النفس .

١٢ — السخاء هو الفضيلة التي تدفعنا إلى الجود بأكثر مما نملك
وضدها الحقارة .

١٣ — صدق الحس (اللب) Labon sens هو فضيلة الفسك التي تسمح
لصاحبها أن يناقش الفضائل والشروط التي سبق أن تحدثنا عنها ، بقصد
الوصول إلى السعادة . (١)

(١) أغفل « روبل » الكلام على الحكمة La Sagesse ولعله اكتفى بتعريف
صدق الحس . ولكن « دوفور » في ترجمته ذكر الحكمة وقسمها قسمين =

١٤ — أبتأحي الآن بما فيه الكفاية مسألة الفضيلة والرذيلة في عمومها وفي مظاهرها ، وليس من الصعب أن يفهم الإنسان ما وراء ذلك (من الفضائل والرذائل التي لم نحددتها) فمن الواضح أن كل ما ينشأ عن الفضيلة ، وكل ما يأتي من ناحيتها جميل (الجمال يتصل بطبيعة الفضيلة) وتلك هي علامة الفضيلة وهذا مجالها .

١٥ — مادامت العلامات الدالة على الفضيلة تتصف بالجمال ، ومادامت الأعمال الخيرة والصفات التي توصف بها هذه الأعمال جميلة ، لزم طبعاً أن كل عمل يتصف بالشجاعة ، وكل علامة أو دلالة على هذه الشجاعة ، وكل صنيع يقوم به صاحبه بشجاعة يتصف أيضاً بالجمال . كذلك صنائع العدل والأعمال التي تقدر بالعدالة يجب أن تتصف بالجمال أيضاً ؛ ولكن هذه النظرة تختلف فيما يتعلق بالمعاقب وبالعقاب ، فالعدل وتطبيق العقاب العادل لا يتصفان بالجمال دائماً : إن العقوبة التي حققت عدلاً أقبح من العقوبة التي ضُربت ظلماً ، ومن المخجل أن يجر الإنسان على نفسه عقوبة عادلة ، أما العقوبة الظالمة فلا يخجل الإنسان منها . وهناك ما يشبه هذه النظرة في كثير مما ذكرناه من الفضائل .^(١)

= الحكمة العملية La sagesse pratique ، والحكمة النظرية La sagesse théorique ، وذكر ضد صدق الحسن رذيلة « الغفلة » L'imprudence في حين أن « رويل » أغفلها أيضاً ثم شرح « دوفور » رذيلة الغفلة فيما يأتي :
 « إنها رذيلة الفكر وسببها بؤس الحياة ... وتظهر خطأ في الحكم على الأشياء ، وفي الجهل بال مناقشات ، وفي عدم الانتفاع بالظروف التي يعيش فيها الإنسان ، وفي الحكم الخاطيء على الأشياء الجميلة والنافعة » ثم يذكر « دوفور » بعد ذلك الحكمة النظرية ويعرفها على نحو ما في كتاب الأخلاق لأرسطو بأنها أعلى أنواع السعادة العقلية . راجع « دوفور » ص ١٠٩ هامش (١) وقابلها بترجمة « رويل » للفصل التاسع ، فقرة ٧ وما بعدها .
 (١) يريد أن يقول إن العدل لا يتمدح به دائماً ، فالعدالة ممدوحة في حد ذاتها أما قبول العدالة ، أي قبول العقاب الذي تقضي به فهو مهانة وضمير .

١٦ — الأشياء التي يكافأ عليها بالكرامة (فقط) أشياء جميلة أيضاً ،
ومثلها ما يتصل بالكرامة بالمقايضة إلى ما يتصل بالمال . وكذلك يعد جميلاً
كل ما يعمل بإخلاص مجرد عن الغاية) . (١)

١٧ — الجميل بالأطلاق (أى بقطع النظر عن الغاية) جميل . والأشياء
التي تقدم لخير الوطن في غير رعاية للمصلحة الذاتية جميلة ، والأشياء المفيدة
بطبيعتها وليست مفيدة لمن قام بها جميلة ، إذ لو كانت مفيدة له لعد مدفوعاً
إليها بدافع من الدوافع الذاتية .

١٨ — وجميل أيضاً كل ما يمكن أن يفيد ميتاً ولا يفيد حياً ، لأن
ما يعمل للمنفعة الذاتية يرتفق به حتى لا ميت .

١٩ — وكذلك أيضاً كل الأعمال التي تعمل لمنفعة الغير ، لأن المنفعة
الذاتية هنا في المرتبة الثانية ، وكذلك كل الأعمال ذات الفائدة ، سواء
أكانت فائدتها للغير مطلقاً — لا للشخص نفسه — أو لمن قدم إلينا عملاً
محسناً يتطلب الجزاء ، ففي هذه الحال يكون ما نقوم به نحوه شكر وعدالة معاً .
وكذلك صالح الأعمال (أى الأعمال ذات المنافع العامة) لأنها لا تتصل
طبعاً بصاحبها وحده ولا ترجع إلى ناحيته .

٢٠ — كل ما تحمر له وجوهنا يكون ضده من الفضيلة ، فإنما تحمر
وجوهنا مما نخجل قوله أو فعله ، أو الاستعداد لقوله أو فعله (٢) .

(١) يريد أن يقول إن ما يجازى عليه بالكرامة فقط خير مما يجازى عليه بالمال ،
وما يجازى عليه بالأمرين جميعاً ففعل من أجل الكرامة كان خيراً مما فعل من أجلهما ، وكل
ما يعمل بإخلاص بعيد عن الغرض فهو جميل .
(٢) أى إن جباهنا تندی خجلاً عند ذكر المنكرات لأننا نحس من أنفسنا أننا عملناها ،
أو أننا مستعدون لعملها . أما إذا كنا برءاء فلا نخجل منها .

وهذا ما أرادت سافو Sapho ^(١) في شعرها وهي ترد على شعر
« ألسيه » Alcée الذى يقول فيه :
« كنت أريد أن أقول لك شيئاً ولكن الخجل أسكتنى » ^(٢) .
فقال له سافو :

« إذا كانت رغبتك متوجهة نحو الشريف الكريم — وإذا كان لسانك
لم ينحني تحت طياته كلاماً بغيضاً — لا يظهر الخجل فى عينيك لأنك تعبر
عن رغبة مشروعة » ^(٣)

٢١ — والأشياء التى ننافح عنها فى غير رهبة ، جميلة ، لأننا نحس بأن
العاطفة التى نعانينا وتعترينا أمام هذه الأشياء هى من عواطف الشهرة
والمجد وحسن السمعة .

٢٢ — الأعمال الفاضلة أدخل فى باب الجمال إذا صدرت من أشخاص
وضعتهم الطبيعة فى مكانة سامية : فضائل وأعمال الرجال مثلاً أجمل من
فضائل وأعمال المرأة .

٢٣ — الفضائل التى يمكن أن تمتد متعبها إلى الغير أجمل من التى تكون
قاصرة علينا ، ومن هنا تتصف بالعدالة ، والعدالة جميلة .

(١) شاعرة يونانية كانت معاصرة للشاعر ألسيه Alcée المشهور بالشعر الغنائى ،
القرن السابع — السادس ق . م .

(٢) هذه ترجمة عبارة « رويل » أما « دوفور » فيوردها بالنص الآتى : « كنت أود أن
أعترف لك بشيء ولكن يمنعني الخفا »

(٣) هذه ترجمة عبارة « رويل » وقد أوردها « دوفور » بالنص الآتى وفيه بعض
التعريف ولكن المؤدى واحد . « لو كانت رغبتك نبيلة جميلة ، ولو كان لسانك لا يلف
عبارتك ليفطى منها ما لا يجوز ، فإن الخجل لا يملأ عينيك وتستطيع أن تتحدث بهراحة
مادمت تتحدث عن شيء حقيقي . »

٢٤ - عقاب الأعداء أجمل من التساهل معهم ، لأن مقابلة المثل بالمثل عدالة وكل ما هو عدل فهو جميل ، والشجعان لا يرضون الهزيمة .

٢٥ - الانتصار وإحراز الشرف من الأشياء الجمالية . إنها أشياء مشتهة ولولم تعد علينا بفائدة مادية ، وهي مظاهر عالية للفضيلة . والذكريات جميلة أيضاً ، وأجملها ما كان خليقاً بالتذكر (أى ما اتصف بصفة خاصة) . والأعمال الباقية عزيزة علينا . ومثلها الذكريات المقرونة بحفلات التكريم (القرابين والأعياد) . والذكريات التى تنازع عن غيرها بأهميتها جميلة أيضاً ، وأجمل الذكريات ماتوجه إلى شخص بعينه لأن هذه الذكرى أظهر من غيرها . والذكريات التى لاتعود علينا بفائدة أدخل فى باب الإخلاص من غيرها . (١)

٢٦ - وكذلك التقاليد الخاصة بكل أمة ، والعلامات المميزة لبعض الناس الدالة على فضل فيهم ، كالشعور الطويلة التى يرسلها سكان لاسيديمونيا Lacédémone فى عندهم من علامات الحرية والشرف ، فليس من السهل مع هذه الشعور الطويلة أن يقوم صاحبها بمهنة حقيرة .

٢٧ - وجميل أيضاً عدم امتهان مهنة خسنة ، فالحر لا يعيش من عمله للغير وإنما الحر من يكتفى بنفسه .

٢٨ - وقد ينبغى فى أدلة المدح والذم ألا تقتصر على ما يتفق تمام الاتفاق مع الصفات الحقيقية . بل تعالج أيضاً ما هو قريب منها من فضائل تنشأ عنها أفعال النقيصة ، ومن نقائص تنشأ عنها أفعال الفضيلة : فلا بأس

(١) العبارة الآتية مزيدة فى ترجمة دوفور « الذكريات النادرة والغريبة » والذكريات التى تتعلق بأشخاصنا لأنها أكثر تعلقاً بنفوسنا ص ١١١ .

من إظهار الحريص في مظهر الخائف أو المراوغ ، وإظهار الرجل الطيب بمظهر الغفلة والبله . وعلى العكس يمكن إظهار الرجل السهل بمظهر الرجل الشريف ، وبطء الإحساس بالرجل سهل الحياة .

٢٩ — وفي كل حالة تختار من بين الصفات المتقاربة أقربها وأجداها على صاحبها : فمثلاً يشبه الرجل الغضوب الذي يشور لأدنى مشير ، بالرجل الخالص ، والمنفوخ بالعظيم المتسلط ، ونظر من نجدهم في حالة انفعالية غير عادية بمظهر من يملك الصفات المتصلة بهذه الانفعالات ^(١) فمثلاً يكون المتهور شجاعاً ، والمصرف كريماً ، وذلك هو ما يعتقده معظم الناس ، وفي الوقت نفسه يمكن أن نستنتج من هنا نتائج احتمالية أو ظنية ؛ لأنه إذا كان في طبيعة إنسان الاستعداد للتعرض للخطر ، وهو يتعرض له في غير داع ، فإن استعداده — فيما يظهر — يكون أكثر اندفاعاً إذا دعاه الداعي ، وإذا كانت يد إنسان مبسوطة للعابر وان السبيل ، فطبيعي أنه لا يقبضها عن أصدقائه ، لأن الفضيلة في أعلى درجاتها هي في سد حاجات الناس .

٣٠ — وتجب مراعاة السامعين فيما نعرضه من المدح (فيمدح الممدوح أمام من يحبه كما قال « سقراط » « من السهل أن نمدح الآثيين في أثينا » ^(٢))

(١) المعروف عن أرسطو أن « الفضيلة وسط » *in medio stat virtus* فالتطرف والانفعال في الناحية الفاضلة التي هي التهور يطلق عليه شجاعة ، أما التطرف في الحد الآخر وهو الجبن فلا يمكن إطلاق الشجاعة عليه .

(٢) عبارة « دوفور » ليس من الصعب أن نمدح الآثيين في أثينا .
أرسطو يتذكر هنا قالة « أفلاطون » « لسقراط » : « إذا كان الآثيون يريدون الكلام الجيد أمام البيلونيزيين ، وهؤلاء أمام الآثيين ، فالواجب أن يختار الخطيب ممن يجيدون الكلام حتى ينجح ويقنع ، فإذا تكلم الإنسان أمام من يمدحهم فمن السهل أن يجد ما يقول » « دوفور » ص ١١١ ، ١١٢ ، هامش (١) .

وينبغي أن يمدح كل إنسان بما هو معروف به عند قومه وعشيرته من السامعين إذا كانوا « سقيين » مثلاً ^(١) Scythes أو « لاسيديسين » ، Lacédémoniens ^(٢) أو فلاسفة . وفي العموم يجب أن نرتقي بالصفات التي نمدحها إلى مرتبة الأشياء الجميلة مادام المدح فيما يعتقد الناس قريبا من الجمال .

٣١ - كما يمدح الإنسان بما يجب له يمدح بالمتصل بما يجب له ، وبالشئ المعروف عنه ، كأن يكون العمل الذي يقوم به مثلاً جديراً بآبائه وأجداده ، وجديراً بمصدر عنه وعنهم من الأعمال السالفة ، فزيادة ميراث الشرف شرف ، وهو أيضاً يتصل بالجمال . ويمدح المرء أيضاً إذا كان ما عمله أحسن وأكرم مما كان ينتظر منه ، كأن يكون معتدلاً إذا واتاه الحظ ، ومتجعلاً إذا لم يواته ، وإذا كان كلما ارتفع به حظه كان أكثر مسالمة ومجاملة ، ومثل هذا هو ما قصده الشاعر « افيكرات » Iphicrate لما قال :

ماذا كان منبئى ! وماذا كان مرأى ! ^(٣)

ومثله ما كان يقال على لسان المنتصر في الألعاب الأولمبية :

« كنت قبلاً أحمل العصا الغليظة المثقلة بالأحمال على كتفى ،

ومن ذلك ما قاله « سيمونديد » Simondide ^(٤)

« بنت من كان أبوها ظالماً ، وزوجها ظالماً وإخوتها ظلمة ،

٣٢ - وبما أن المدح يستخلص من الأعمال ، وأن العمل المقصود

(١) السقيون هم سكان الشمال الشرقى لأوروبا والشمال الغربى لآسيا ، وكانوا بدوا يطلق

عليهم اليونانيون كلمة « بربر » Barbares

(٢) سكان « اسبرطة »

(٣) « دوفورا » يوردها بهذا النص « من أين جئت ومن أين نشأت ؟ »

(٤) شاعر غنائى عاش في القرن الخامس ق . م .

الصادر عن إرادة صاحبه دليل الرجل الشريف وأخص ما يتصف به ، فالواجب أن يظهر المادح بمدوحه بمظهر المختار الصادر عمله عن إرادته . والواجب أن يبرهن على أن بمدوحه كثيرا ما يقوم بمثل هذا الذي عمله ، ومن هنا كانت الأعمال التي تصدر عنا عرضا واتفاقا ومن محض المصادفة ، بعيدة عن أن تكون أعمالا إدارية . على أن هذا لا يمنع أن تكرر الأعمال المتشابهة ، وتكرر الأعمال التي ترجع إلى طبيعة واحدة ، دليل على صدورها عن الإرادة ، ودليل على فضيلتها .

٣٣ — المدح تعبير يوضح الفضيلة ويظهر عظمتها ، فيجب أن تكون الأفعال المحمودة عظيمة وبارزة ، وبما أن الثناء يوجه إلى الأعمال كما يوجه إلى الأشخاص وجب أن يضاف إلى هذه الأعمال ما يقوى المدح وينزله منزلة الكلام الثقة الصحيح ، مثل أن يضاف إلى الممدوح كرم المنبت وحسن التربية ، لأن الأجداد ينجبون الماجد ، وكلما حسنت التربية ، حسنت أخلاق من يتلقاها ، ومن هنا يتوجه المدح إلى الأعمال . والأعمال دليل العادات الطيبة ، ولذلك نشيد أحيانا بمدح من نريد بقطع النظر عما إذا كان قد عمل ما يمدح عليه أم لم يعمل متى كنّا واثقين من أن أخلاقه تسمح له بالقيام بهذا العمل .

٣٤ — استنزال البركة والتهنئة شيء واحد بالقياس إلى من يستحق البركة أو التهنئة ، ولكنهما يفترقان عن الأنواع السابقة ، فكما أن السعادة تشمل الفضيلة كذلك التهنئة تشمل كثيرا من الفضائل السابقة (١)

(١) أرسطو يقرر في كتاب الأخلاق : « إنا نقدر (نبارك) الآلهة ونهنئها (نشكرها) ونبارك أيضا القديسين من الرجال فالبركة — وهي المرحلة العليا من السعادة — من خصائص الآلهة ، ولكن الشعراء أمثال «هومير» و «هزود» يستعملون هذه الكلمة =

٣٥ - المدح والنصيحة التشاورية يشتركان في الشكل العام. فما تتناقش فيه كمبدأ من مبادئ المشاورة إذا أصابه قليل من التحوير صار مدحا .

٣٦ - وبعد أن عرفنا الواجب والرجل المكلف بأدائه ، يجب أن نبحث في عبارة الخطبة وفيما يعتورها من تحوير وتغيير (بالنسبة للمشورة أو المدح) فمثلا إذا قلنا « لا يجب أن نفخر بما حصلنا عليه اتفاقا وعرضا ، ولكن بما أدركناه بأنفسنا ، كنا بصدد نصيحة ومشورة ، ولكن إذا قلنا « الفخر لا يكون بالحظ والاتفاق بل بما يحصل عليه الإنسان لنفسه ، تحولت المشورة إلى مدح . وإذن ، إذا أردت أن تمدح فانظر كيف تتمثل الحكمة والمشورة أمامك ، وإذا أردت أن تشير فانظر إلى أية ناحية تريد أن توجه مدحك .

٣٧ - وستتحول الخطبة حتما إلى معنى مضاد (إما للمشورة وإما للمدح) على حسب ما نريد من التحويل الذي يكون بقلب شيء ممنوع إلى شيء مباح أو بقلب شيء مباح إلى شيء ممنوع .

٣٨ - والواجب في المدح استعمال الطرق المختلفة لتوسعة الموضوع (الأتطاب) فيذكر مثلا أن الممدوح هو الأول الذي فسكّر في هذا الصنيع ، أو أنه الوحيد الذي قام به ، أو أن من قام بمثل ما قام به قليل من الناس ، أو أنه هو الذي عمل فيه ما لم يعمله الآخرون الذين تناولوه ، لأنها كلها

== (البركة) وصفا المحظوظين من الرجال . « دوفور » ص ١١٣ هامش (١)

أما تعليق « رويل » على هذه الفقرة فيختلف عن تعليق « دوفور » قليلا ولو أن مصدر التعليق واحد (كتاب الاخلاق) لذلك آثرنا إنباته أيضا : « إنا نقدر الآلهة وتهنئها ، وإنا لنبارك أيضا من الرجال الأقربين الى القداسة ، كما نبارك الأخيار لأننا لانمجّد العمادة كما نمجّد العدل ، ولكننا نهنيء ونشكر بنفس الصنيع التي نتقدم بها الى الآلهة وإلى الأبرار » رويل ص ١٣٤ هامش (١)

ظروف جمالية ، وكذلك تذكر الاعتبار المستمدة من الأوقات والفرص ، وتظهر قيمة هذه الاعتبار حينما يتبين ما أحاط بالعمل المقصود من ظروف غير متوقعة . وما يذكر أيضاً (في باب المدح) النجاح المتكرر للعمل الواحد ، لأن إنجازه في المناسبات المتكررة دليل على أن عمله لم يكن من محض المصادفة ، بل جاء عن تفكير صاحبه ورويته فيه . وتذكر المشجعات وأمارات الشرف إذا كانت قد منحت له وحده دون سائر الناس ، ويذكر كذلك ما إذا كانت المدائح صيغت لأول مرة من أجله . وهذا هو ما كان بالنسبة « لأبولوخوس »^(١) Hippolochus ، و « هارموديوس »^(٢) Harmodius ، و « أرسطوجيتون »^(٣) Aristogiton .

فإنهم الأول الذين أقيمت لهم التماثيل في « أجورا » Agora . فإذا كانت الاعتبار على العكس من هذا ، أى إذا كانت غير كافية في المدح ، فلا أقل من عمل موازنات ومقارنات بين الممدوح وبين أشخاص آخرين لهم قيمتهم وتقديرهم وهذا ما عمله « إيزوقراط » Esocrate^(٤) لما استشعر ضعفه في موقف الدفاع . والواجب وضع الممدوح في مستوى

(١) شخصية غير معروفة . « رويل » ص ١٣٥ هامش (١) . « دوفور » ص ١١٤ هامش (١) .

(٢) أثيني عاش في آخر القرن السادس ق.م .

(٣) صديق هارموديوس .

(٤) « كان بعض السوفسطائيين ينكرون ثقافتى ، ويدعون أنه ليس لى إلا فن كتابة المرافعات . ولم أكن أهتم بأن أدفع عن نفسى هذا الأنكار ، لأن هذه الحقايق لا قيمة لها فى نظرى ، والناس يعلمون تماماً قيمة أعمالى ، ويعلمون أننى أؤثر شيئاً آخر غير الكتابة والسلام فى العقود ذلك هو معالجة مسائلها قيمتها وهوها لا يستطيعها غيرى ماعدا تلاميذى ومن يتطلعون إلى الاقتداء بهم » دوفور ص ١١٤ هامش (٣) Isocrate Antidose

العظام والاختيار ، فالتعظيم له قيمته هنا إذا كان في الممدوح ما يتصل به مع هؤلاء الرجال .

٣٩ — هذه الزيادات الأطنابية تدخل منطقيا في المدح ، لأن المدح بيان التفوق والسمو ، وكل تفوق جميل ، فإذا لم تمكن مقارنة الشخصية الممدوحة بالعظام ، فلا أقل من وضعه في مستوى مواز للآخرين ، مادام التفوق ينم عن الفضيلة .

٤٠ — وفي العموم كثير من الأطناب — من بين الأشكال العامة لكل أنواع العبارة — أليق ما يكون بالخطابة الاستدلالية (المدح والذم) لأن هذا النوع من الخطابة يتجه إلى أعمال متفق عليها اتفاقا تاما (في باب الأخلاق) فليس لنا أمامها إلا الشرح والأطناب والتجميل . أما الأمثلة ، فهي أليق ما يستعمل في الخطابة الاستشارية لأننا في هذا النوع من الخطابة بصدد أحكام متعلقة بالمستقبل نقررها معتمدين على الماضي .

أما الخطابة القضائية فأليق ما يكون لها الأقيسة المضمرة ، لأن الأمر الذي وقع غامض أو متصف بالغموض فهو قابل للتسيب والاستدلال .

٤١ — هذه هي العناصر التي تستمد منها كل أنواع المدح والهجاء تقريرا ، وهذه هي الاعتبارات التي يجب أن نضعها نصب أعيننا حينما نريد مدحا أو ذما ، وهي بعينها الأسباب والدوافع التي تكون وصلة بين صنوف المدح وصنوف الذم ، ومتى تقررت فهمنا بوضوح مواطن الأضداد فيها فليس الهجاء إلا فيما نعرض له من نقائص المدح في عناصره وأسبابه واعتبارات .

الفصل العاشر

ملخص الفصل:

في هذا الفصل يدخل أرسطو في النوع الثالث وهو « الخطابة القضائية » وقبل أن يسرد المقدمات التي تتركب منها الأقيسة المضمرة اللازمة للخطابة يعني بثلاث نقاط الأولى في معرفة دواعي الجريمة أو دوافع الظلم وعدد هذه الدوافع . والثانية في استعدادات مرتكبي الظلم وبينان طبيعتها والنقطة الثالثة في ظروف وحالات من يقع عليهم الظلم ، بعد ذلك يحدد الظلم ويحدد القانون ويحدد المسؤولية . فالظلم هو الضرر الذي يرتكبه إنسان ضد الغير وضد القانون ويفهم القانون الذي تسنده الأدلة الخطابية فهماً عاماً ليشمل القانون الموضوع والقانون المتواضع عليه ، ويفرق بينهما بأن الأول مكتوب والثاني غير مكتوب ولكن سلطانه لا يقل نفوذاً وشمولاً عن سلطان الأول مادام يستمد قوته من التقاليد والعرف العام . ويحدد المسؤولية بالإرادة والاختيار ولكنه يحتفظ في الاختيار ، فما نعمله مختارين لا يكون دائماً بأصرار وتعمد ولكن ما نعمله بأصرار وتعمد نكون مختارين له ، نريده وينجاز به إشارتنا .

يأخذ بعد ذلك في شرح دوافع القصد والاختيار ، وعدم الاعتداد بالقانون ، فالدوافع التي تغرينا بمخالفة القانون هي الرذائل بعينها ، والمتصف بالرذيلة متصف بالظلم أو متصف بمجانبة العدل ، والظالم هو الذي لا يعرف العدل فيما يتصل بالرذيلة ، فالبخيل لا يعرف العدل فيما يتصل بالثبوت ، وكذا الدني فيما يتصل بالذائدات الجسمية ، والخنث فيما يتصل بالطراوة ، والجبان فيما يتصل بالشجاعة ، والطامع فيما يتصل بمظاهر الرفعة ، والمحتد فيما يتصل بالغضب ، والغلاب فيما يتصل بالنصر ، والحاقد فيما يتصل بالانتقام ، والغافل فيما يتصل بالعلم والجهل ، والدليل فيما يتصل بالسمعة والكرامة ، ومثلهم كثيرون ممن

تدفعهم رذائلهم وتحجب أبصارهم عن مواطن العدالة فيما يندفعون إليه .
يأخذ بعد ذلك في شرح الأسباب التي تنشأ عنها الأعمال الصارة أو الجائرة ،
فبعض هذه الأسباب خارجي وبعضها داخلي ، وواجب الانتهام أن يحدد الدوافع
ويثبت أنها داخلية كما أن واجب الدفاع أن يثبت أنها خارجية بعيدة عن القصد
والتعمد ، والأسباب الخارجية هي ما كان فاعلها ليس سبباً مباشراً للظلم كأن يقع
الظلم (الجريمة) عن طريق الاتفاق والصدفة ، أو تحت تأثير الحاجة ، وهذه
الحاجة تأتي أحياناً من الضغط وأحياناً من الطبيعة ، أما الأسباب الداخلية فسببها
في الفاعل نفسه ، وهذه تنشأ من العادة ، وكل الأعمال بعد ذلك تجد أسبابها في
الدوافع السبعة الآتية : الحظ - الطبيعة - الجبر - السعادة - التقدير - الغضب -
الحاجة ، وقبل أن يشرح هذه الدوافع يبين أن هناك دوافع وأسباباً ظاهرة
سطحية ، كالشباب والميول المندفعة معه ، والغنى والفقر ، فهذه ليست دوافع
حقيقية فليس الشباب وحده يحافز إلى الظلم بل الحافز الحقيقي هو الغضب وسرعته
والتأثر بالميول والرغبات ، وليس الغنى والفقر يحافزين على الفضائل أو الرذائل
فالحوافز الحقيقية في الميول والاتجاهات ، وكثير من الناس يعملون تحت تأثير
طبائعهم غير ناظرين إلى قلة المال أو كثرته ، على أن الاستعدادات الواحدة
قد يكون لها نتائج مختلفة ، فالمسرة إذا عرضت أمام الرجل العفيف أهاجت في
نفسه سائر الأفكار وعاليها ، وهي نفسها إذا عرضت للدني دفعته إلى أفكار
مضادة للأولى ، والفروق العرضية والفروق العارضة لا تفرق بين الناس فليس
هناك من فرق بين أن يكون مرتكب الظلم أو محب العدل أبيض أو أسود ،
قصيراً أو طويلاً ، فسلكها فروق لا تؤثر على طبيعة العمل ، والمهم معرفة الفروق
الحقيقية والظروف التي تظهر فيها صفات الرجال وأخلاقهم فاعتقاد المرء أنه غني
أو أنه فقير جدير بالانتفاذ أكثر من معرفة أنه فقير حقاً أو غني حقاً .

يأخذ بعد ذلك في شرح الدوافع السبعة فيقرر أن الحظ أو المصادفة يقع

تحتة الأفعال التي لا تحديد لسببها ، أو التي تعمل من غير غاية ، أو من غير غاية معينة ، أو من غير غاية في الأغلب ، أو ما ليست له غاية منتظرة ، ويعرف الأعمال الطبيعية بأنها التي تحمل سببها معها ، أو التي يضطرر سببها ، ويعرف العمل الجبري بأنه الذي يقوم به الإنسان ضد إرادته ، والأعمال العادية بأنها الأعمال التي تتم بكثرة المزاولة والمرانة ، والأعمال الغاضبة بأنها التي تهدف إلى الانتقام ، والأعمال المرغوب فيها بأنها الأعمال التي تنصل بنا وتجرى في عاداتنا ونقابها بالقبول والاستحسان .

وقد سبق أن تحدثنا عن النافع والضار في الخطب التشاورية فلنتحدث إذن عن المقبول والمستحسن ، وفي كل حال لا ينبغي أن تقبل من التعريفات إلا الواضح المفهوم مع الدقة والتحديد .

في الاتهام والدفاع - في طبيعة مصادر القياس وأنواعها^(١)

في النوع الخطابي^(٢)

١ - الموضوع الذي نعالجه الآن خاص بالاتهام والدفاع ، وسنعرض له لنبيين طبيعته ، ولنسرد المقدمات التي يتحتم تركيب الأقيسة منها .

٢ - وهنا ثلاث نقاط جديدة بالنظر والاعتبار : الأولى معرفة وعدد الأسباب الدافعة إلى الظلم . والثانية استعداد مرتكبيه . والثالثة حالة وظروف الأشخاص الذين يقع عليهم الظلم .

٣ - وقبل الدخول في هذه التفصيلات سنعرف الظلم^(٣) بأنه الضرر الذي يلحق عمداً بأنسان على خلاف ما يقضى به القانون . والقانون نوعان خاص وعام ، وأعني « بالقانون الخاص » ما كانت صيغته مكتوبة وصادرة عن حكومة (من الحكومات) . كما أعني « بالقانون العام » كل ما اعترف به الجميع على رغم أنه غير مكتوب .

(١) العنوان كما في ترجمة « رويل »

(٢) » » » » » « دوفور »

(٣) هذه الحدود والتعريفات يعرضها أرسطو هنا ، خطابية كلها ، فهو يعرف العدالة والجور لا من الناحية النظرية التي تتصل بالخلق الفردي أو الخلق الاجتماعي التي قصد إليها في كتاب « الأخلاق » ، ولكن أعمال الجور هنا تختلف باختلاف العقوبة المتصلة بها ، فالمكلمات التي استعملها هنا غايتها مراعاة القانون في أوسع معانيه ليشمل التقاليد ، وقانون الأسرة ، وقانون المدينة ، وهي تعني العقوبات التي تطبق على من يتناول على هذا القانون الشامل . وهو لا يقصد « العدالة التوزيعية » التي تقر لكل فرد حقه ، إنما يهدف إلى العدالة التي غايتها رد المظلمة والتي ترد إلى القانون المستطال عليه اعتباره وتقديره... « دوفور » ص ١١٥ ، ١١٦ هامش (١) .

٤ - (والظلم تتبعه المسؤولية ، والمسئولية أساسها الإرادة) والأعمال الإرادية هي كل الأعمال التي نزاولها ونحن عاقلون لما نعمله في غير ضغط أو إجبار . وكل ما نعمله مختارين لا نعمله دائماً في إصرار أو تعمد . ولكن الذي نعمله في إصرار أو عمد نعمله دائماً عارفين سببه ، لأننا لا نجعل ما وجهنا إليه اختيارنا ، وانحاز به إيثارنا .

٥ - وهناك دوافع تحفز صاحبها لقصد الضرر والأذى ، وتجعله غير عاقل بالمقانون ، وهذه الدوافع ليست شيئاً آخر غير ما يسمى بالرديلة وعدم الاعتدال ، لأن هؤلاء المتصفين بشيء من الرذائل (واحدة أو أكثر) يتصفون بالظلم . أو بعدم معرفتهم العدل بالنسبة لدافع الرديلة : فالبخيل مثلاً لا يعرف عدالة فيما يتعلق بالنقود ، والدنيء لا يعرف عفة فيما يتصل بشهوات الجسم ولذائذه ، وكذلك الخنث في الأفعال التي يصحبها طراوة أو تكسر ، والجبان في كل ما يتصل بمواطن الخطر ، لأنه يترك أصدقاءه للهلاك لما يحس به من الخوف ، والطامع فيما يتصل بأسباب الرفعة ، والمحتد فيما يتصل بالغضب ، والغلاب فيما يتصل بالنصر ، والحاقد فيما يتصل بالانتقام والغافل فيما يتصل بالعلم والجهل ، لأنه لا يفرق بين الظلم والعدل ، والدليل فيما يتصل بالسكرامة . ومثل هؤلاء غيرهم ممن يدفعون بالدوافع التي تتصل برذائل نفوسهم .

٥ - كل هذه حقائق سهل فهمها ، بعضها قد وضح بما سبق الكلام عليه ، حينما تحدثنا عن الفضائل ^(١) وبعضها سنتحدث عنه عند الكلام على الميول ^(٢)

(١) ألف أرسطو كتاباً في الفضائل والرذائل انظر ص ٢٤٩ من طبعة Bekker .

(٢) ستكون الميول والمواظف موضوع الكتاب الثاني من كتاب الخطابة من فقرة ١

الى فقرة ١٧ .

فلم يبق إلا أن نوضح لماذا يسبب الإنسان الضرر لغيره؟ وماهى استعداداته وأخلاقه حين يتسبب فى الضرر؟ ولمن يصل هذا الضرر؟

٦ — ولنفرق أولاً بين الدوافع التى تغرينا ، وبين المضار التى نتمثلها ، ونود تجنبها حينما نرتكب أى عمل ظالم ، لأنه بما لاشك فيه أن واجب « المتهم » هو البحث فى عدوه عن عدد ونوع الدوافع التى تحمل على إساءة الناس لغيرهم من القريين منهم ، وأن واجب « المدافع » أن يبين نوع وعدد الدوافع الأجنبية عنه (أى عمن يدافع عنه) (١) .

٧ — وأسباب الأفعال الإنسانية كلها لا تخرج عن أن يكون بعضها خارجي ، وبعضها الآخر داخلي . فإذا لم يكن الفاعل نفسه هو السبب فى فعله كان الفعل ناشئاً إما عن طريق المصادفة والاتفاق ، وإما عن طريق الحاجة ، وهذه الحاجة تأتى من الضغط أحياناً ، ومن الطبيعة أحياناً أخرى وإذن فكل الأفعال التى يكون سببها خارجاً عن فاعلها ، يأتى بعضها عرضاً واتفاقاً ، ويأتى بعضها من الطبيعة ، كما أن هناك أفعالا ماأناها الضغط والاضطرار .

أما الأفعال التى يكون سببها داخلياً فى الفاعل نفسه ، ويكون الفاعل مسئولاً عنها فتأتى بعضها من العادة ، ومأتى البعض الآخر من الحاجة ، وهذه الحاجة ، تكون معقولة أحياناً ، وغير معقولة أحياناً أخرى .

٨ — إن الإرادة تدفع نحو الخير (لأننا لا نريد إلا ما نعتقد أنه خير) فالعمل الناشئ عن الإرادة معقول ، أما الدافع غير المعقولة ، فهى الغضب

(١) الأعمال الخارجية هى ما كانت الفكرة فيها عند كل الناس . أما الداخلية فهى من تفكير صاحبها خاصة .

والحاجة . وكل الأفعال (المعقولة وغير المعقولة) تجد أسبابها في الدوافع السبعة الآتية :

الحظ — الطبيعية — الجبر — العادة — الفسكرة (التقدير)
لغضب — الحاجة الملحة .

٩ — وهناك أفعال تختلف عن الأفعال المتقدمة بأن دوافعها ظاهرية وسطحية كالشباب والميول المندفعة به ، فإذا كان الشباب يعملون تحت تأثير الغضب ، أو تأثير الميول والرغبات ، فإن الحافز لأعمالهم لا يتصل بالشباب بل يتصل بالغضب ، ويتصل بالعاطفة ،^(١) كذلك الغنى والفقر لا يحسبان في الدوافع إلى العمل : فمن الممكن أن يحتاج الفقراء إلى النقود لأنها تنقصهم^(٢) ومن الممكن أن يرغب الأغنياء في الملذات والمسرات التي لا ضرورة لها ، لأنهم يستطيعون شراءها بنقودهم^(٣) فالفقر والغنى ليسا حافزين على العمل ، وإنما هي الرغبة التي توجه نفوسهم إلى ما يفعلون كما توجه العدول وغير العدول من الناس . فكل هؤلاء الذين يعملون حسب طبائعهم واستعدادهم ، كما يقال عنهم ، إنما يعملون تحت تأثير الأسباب التي قدمناها ، وتحت تأثير تقدير وميل ، وغاية ما يقال أن البعض

(١) السن والفقر ليست أسباباً أساسية للسلوك ، بل هي أسباب ثانوية ، وغاية الأمر أنها تساهل الأسباب الأساسية . « دوفور » ص ١١٧ هامش (١)

(٢) أي أنهم إذا اندفعوا إلى العمل فما يندفعون بالفقر وإنما يندفعون لأنهم في حاجة إلى المزيد ، فدافع الفقر سطحي .

(٣) أي فليس الدافع لهم الاستجابة إلى لذة أو مسرة ملحة وإنما يفعلون ما يفعلون لكثرة نقودهم ، أي فليس لهم دافع حقيقي وإذا كان الغنى هو المحفز فهو سطحي ويمكن أن قليلا من الارادة ترد هذه الرغبة التي دفع اليها كثرة النقود .

مدفوع بأخلاق وميول شريفة ، والبعض الآخر مدفوع بأغراض وميول على الضد من ذلك .

١٠ - ويلاحظ أنه من الممكن أن هناك استعدادات يكون لها نتائج خاصة ، وهناك استعدادات أخرى تنتج نتائج مضادة (أى أمام العمل الواحد) : فالرجل العف مثلاً إذا عرضت له فرصة من ملذة أو مسرة ، دفعته إلى الأفكار العالية لسبب عفته ، وقد يخرج غيره أمام هذه الفرصة بأفكار مضادة للأولى .

١١ - فلنترك إذن هذه الفروق ، ولنبحث عن العلاقات الحقيقية بين الناس وبين أعمالهم ، فليس من المهم أن يكون فاعل الفعل أبيض أو أسود ، وليس بهم أن يكون طويلاً أو قصيراً ، فتلك فروق لا تؤثر على طبيعة الفعل . والمهم فى الأمر هو معرفة أن يكون الفعل صادراً عن شاب أو شيخ ، عن عادل أو جائر ، والمهم أيضاً معرفة الظروف التى نرى فيها أن صفات الرجال وأخلاقهم تؤثر على أعمالهم ، هذه هى الظروف الجديرة بالمعرفة مثل أن يعتقد الرجل أنه غنى أو فقير مجذود أو بائس ، فمثل هذه الفروق تحدث فروقاً فى الأخلاق وتقديرها . وسنعرض لهذه المسألة فيما بعد ، ولنكتفى الآن بذكر ماسبق الكلام فيه :

١٢ - الحظ فى كل الأعمال التى لا تحديد لسببها ، وفى كل الأعمال التى تعمل من غير غاية معينة ، وفى كل مالاغاية له أصلاً ، أو مالاغاية لها فى معظم أوقاته ، وفى كل مالىس له غاية منتظرة .

ذلك هو مايفهم بوضوح من تعريف الصدفة (أو الحظ) (١)

(١) عرف أرسطو الصدفة أو الحظ فى كتاب الطبيعة 11 Physique .

١٣ — الطبيعة . الأعمال التي يضطرر سببها ويكون سببها فيها هي أعمال طبيعية ، لأنها تتكون دائماً ، أو في معظم الأحيان بشكل واحد ^(١) وإنما نرى أن الأعمال التي لا تدخل للطبيعة فيها لا تسمح لنا بتحديد واضح طبيعي أو غير طبيعي . ومثل هذه الأعمال قابلة لأن تكون الصدفة من أسبابها .

١٤ — الجبر (الإلزام) تكون الأعمال جبرية إذا قام بها الإنسان ضد ميله وضد تقديره وحسابه . ^(٢)

١٥ — العادة . تكون الأعمال عادية (من العادة) إذا كان تمامها مدفوعاً بكثرة المزاولة .

١٦ — الحساب . (التقدير) الأعمال المقدرة هي التي يرى أربابها فائدة من وضعها في نظام خاص على نحو ما سردنا أنواع الخير المتقدمة سواء أكانت غاية أم وسائل مؤدية إلى غاية ، مادامت الفائدة هي الداعية إلى مثل هذا العمل ، فان كثيرين ممن لا يعرفون الاعتدال ، يقومون بعدة أشياء نافعة ولكنهم لا يعملونها لما فيها من الفائدة ، بل لما فيها من المسرة واللذة .

١٧ — الغضب . الأفعال المؤدية للانتقام تعمل تحت تأثير الغضب ، والغضب أو الاندفاع سببها . وهناك فرق بين الانتقام والعقاب ، فالعقاب

(١) حدد أرسطو في كتاب الطبيعة ما هو طبيعي بقوله « كل الأشياء التي لها من طبيعتها مبدأ للحركة وللثبوت أما بعلاقة « المكان » أو « الزايد » أو « النقص » أو « التغيير » 11 Physique . « دوفور » ص ١١٨ هامش رقم (١) .
(٢) بين أرسطو في كتاب « الميتافيزيقا » معنى الضرورة والألزام « الضروري هو ما ينشأ عن الجبر . والجبر كل ماعوق أو منع لإرادتنا وميلنا . » Métaphysique 1^{re} « دوفور » ص ١١٨ هامش (٢) .

غايته المجرم ، أما الانتقام فإن الشخص الذى يقوم به هو الذى يبحث عن راحة نفسه . أما ما يختص بالغضب والاندفاع فذلك ما سنبذكره . بجلاء عند ما نتكلم على الميول والانفعالات (١) .

١٨ — الرغبة . كل ما كان مستحسنا مقبولا نعمله برغبة ، وكل ما كان متصلا بنا ، وكل ما يجرى فى عاداتنا نعدّه من الأشياء المستحسنة المقبولة ، لأن كثيرا من الأشياء غير السارة بطبيعتها نقوم بعملها فى سرور ولذة إذا دخلت فيما تعودناه .

وجملة القول أن ما نرغب فيه هو ما عملناه بمحض إرادتنا ، وكل ما هو حسن ، أو يظهر فى مظهر الحسن ، وكل ما هو مقبول ، أو يظهر فى مظهر المقبول ، (نقوم به فى سرور ولذة أيضا) .

وبما أننا نعمل راغبين كل ما صدر عن إرادتنا ، ونعمل راغبين كل ما لم يصدر عنها ، فكل ما صدر عن الإرادة خير ، أو يبدو خيرا ، وكل ما صدر من الإرادة مقبول ، أو يبدو مقبولا .

ولقد قررنا أيضا أن انقطاع الآلام ، أو انقطاع ما نحسبه آلاما ، أو استبدال ألم صغير بألم كبير ، يعد من الخير ، لأنها كلها أشياء أوثرت على غيرها (والإيثار والتفضيل عمل إدارى) من بعض الوجوه .

١٩ — واجبنا إذن أن نبين الأشياء النافعة والأشياء المقبولة ، وأن نراعى فى تبيانها طبيعتها وعددها . وقد سبق الكلام على النافع حينما تعرضنا للأدلة الاستشعارية (٢) فليكن حديثنا الآن عن المقبول والمستحسن ، وفى كل حال يجب ألا نقبل من التعريفات إلا ما كان مفهوما غير مغرق فى الدقة . (٣)

(١) فى الكتاب الثانى وفى الفصل الثانى من كتاب الخطابة .

(٢) فى الفصول : الرابع والسادس والسابع . (٣) Topique VI .

الفصل الحادي عشر

ملخص الفصل:

يتعرض في هذا الفصل للأشياء المستحسنة والمقبولة (اللذة والآلم) فيعرف اللذة (السرور) ابتداء بأنها حركة نفسية من نوع خاص ورجوع كلي أو عاطفي إلى الحالة الطبيعية ، ويكون الآلم ما ليس كذلك على حد تعبيره ، وإذن يكون المستحسن والمقبول ما يثير هذه الحركة النفسية ويكون مؤلماً ما يضيع هذا الاستعداد أو ما سبب استعداداً مضاداً ، ويتبع ذلك أن رجوع الإنسان إلى حالته الطبيعية يكون في معظم الأحيان من المستحسن ، ورجوع الإنسان إلى عاداته مستحسن مقبول لأن العادة تقرب من الطبيعة ، والكلمتان « كثير » و « دائماً » متقاربتان ، والكثرة هي المنطقة التي تعمل فيها العادة ، والديمومة هي المنطقة التي تعمل فيها الطبيعة ؛ ولا يكون جبر واستحسان لأن القسر ضد الطبيعة .

وما نعمله مضطرين مؤلم « وإفينوس » Evénus يقول :
« ما ألزمت به الضرورة مكروه بطبعه »

وإذن تكون الهموم والمتاعب ومزاولة الصعاب مؤلمة لأن أساسها الضغط والإلزام ما لم تتعوّدها وإلا رجع بها الاستحسان إلى منطقة نفوذه . وبعد العمل مقبولا إذا كان الدافع إليه رغبة وحاجة .

وهنا يقسم الرغائب إلى عقلية وغير عقلية فالثانية هي كل ما يتطلع إليه الإنسان غير مدفوع بفكرة ، فهي رغائب طبيعية كحاجة الجسم إلى الغذاء ورد العطش والجوع وما إلى هذه الرغائب من الاستجابة لمطالب الحواس .
والأولى هي الرغائب المصحوبة بالتفكير ، ومنها ما نحس بالميل إليها حتى عند سماعنا بأنها مستحسنة أو مقبولة .

وبما أن اللذة إحساس تأثرى، وبما أن الخيال إحساس أيضا إلا أنه ضعيف،
 وبما أن أساس الإثارة الخيالية هو «التذكر»، أو «الأمل»، يكون من الواضح
 أن اللذائذ والمسرات مصطحبة بتذكر أو أمل فالتذكر سرور، والأمل سار.
 وإنما لا نستحسن من الذكريات ما كان حسنا وقت وقوعه فحسب، بل ما كان
 مؤلما ثم أعقبه ما جعله محببا، وهذا ما جعل «أوريبيد» يقول «من اللذة أن
 يتذكر الإنسان مخاوفه التي نجا منها»، وما جعل هو مبروس يمجّد هذا الألم
 اللذيذ فيقول «إن الإنسان يستمتع بألامه ويستعذبها إذا تذكر ما قام به من
 جهد، وما عانى من محن». يأخذ أرسطو بعد ذلك في تعداد المسرات واللذائذ
 فيذكر أن الأشياء المأمولة سارة حينما نتخايلنا بما سيكون فيها من مسرة، فالحق
 سار، والغضب سار أحيانا لأن الإنسان لا يصب غضبه على رأس من ليس أهلا
 للانتقام منه. والرغائب القوية سارة فالظامئ يشعر بلذة إذا تذكر أنه شرب
 أو أمل في أنه سيشرب. «ووجدك بالماء إذا ما منعت رد الشراب» لذة أيضا
 والحب لذة لا في المتعة بموضوعه فحسب، ولكن في تخيل موضوع الحب
 وتذكره أيضا، ولذة الغياب والبين يقدرها الشعراء. وفي المراثى والأحزان شيء
 من اللذة ففي ذكريات المفارق والمفقود شيء من العزاء.

والانتصار لذئذ لا لعشاق المجد وحدهم ولكن لكل الناس لأن فيه تفوقاً،
 والتفوق رغبة كل الناس يندفعون إليها قليلا أو كثيرا.

وبعد أن ذكر المذات الجسمية والعقلية يعود لذكر مآذات أخرى يمكن
 أن تنصف بأنها عقلية وخلقية. فالتعلم لذة، والدهش وحب الاستطلاع يشيران
 الرغبة في التعلم، وفي التعلم ما يرجعنا إلى حالتنا الطبيعية التي تغيرت بالدهشة
 والغزابة، والمنح والأخذ من الأشياء السارة، فأخذ شيء نافع معناه أنك قد
 ملكسته، ومنح خير معناه أنك تملكه، والملكية مكانة، والمنح مما يتطلع إليها
 الناس. وكما أن التعليم سار كذلك ما يشبهه وهو التقليد لحفر أو لنقش أو لشعر
 أو لتصوير.

والتقليد في حد ذاته ليس بشيء ، وإنما السار فيه هو التفكير الذي يجعلك
ويجعل الناس تقول « نعم هذا هو بعينه » .

وإذا سلمنا أن كل ما يتصل بالطبيعة سار ومقبول جاز لنا أن نقرر أن
النوعين والجنسين والمتشابهين يتصل أحدهما بالآخر برابط من الروابط الطبيعية
ساراً أيضاً ، لذلك كانت هذه الانفاقات مستحسنة ، ومن هنا كانت مضارب الأمثال
المشهورة في الأمثال اليونانية « يبحث كل إنسان عن شبيهه ومثله » وفيها « العندليب
يختم بجانب العندليب » (وعندنا في العربية كثير من هذه الأمثال) . ومراعاة
المشابهة في الخلقة أو الخلق حب للنفس ، وأثر من آثار حب الذات ، ويتبع ذلك
أننا نحب من يحاينا أو يتملقنا ، ونحب من نؤثره بل نعشقه .
وفيما أوردناه الكسافية فيما يتعلق بالآشياء السارة . والآشياء المؤلمة ما يفهم
منها بالتضاد .

في الأشياء المستحسنة (١) — في اللذة (٢)

- ١ — لنقرر أن اللذة هي حركة النفس واستعدادها العاطفي السريع للاستجابة للطبيعة . ولنقرر أن الألم ما كان على الضد من ذلك .
- ٢ — وإذا كانت اللذة (السرور) ما حددناه كان من الواضح أن يكون المستحسن (المقبول) هو ما أثار هذا الاستعداد النفسى ، وأن المؤلم هو ما أضره ، أو هو ما سبب استعدادا مضادا له .
- ٣ — ويتبع ذلك ضرورة أن رجوع الإنسان إلى حالته الطبيعية يعد في معظم الأحيان من المستحسن ، وبخاصة إذا كانت الأشياء الناشئة من الطبيعة قد أدركت طبيعتها الخاصة . وكذلك الأمر في العادات لأن الشيء المتعود عليه يظهر بمظهر الشيء الطبيعى . فبين العادة والطبيعة بعض التشابه ، وكلية « كثير » قريبة من كلية « دائم » (أى أن الكثرة قريبة من الديمومة) والديمومة هي المنطقة التى تعمل فيها الطبيعة ، والكثرة هي المنطقة التى تعمل فيها العادة ،
- ٤ — والمستحسن هو أيضا ما ابتعد عن الجبر ، فالقسر ضد الطبيعة ، وما نعمله مضطرين وتحت تأثير الضرورة مؤلم ، وما أحكم ما قيل في هذا :
« كل ما ألزمت به الضرورة مكروه بطبعه » . (٣)

(١) هذا العنوان في ترجمة « رويل » .

(٢) هذا العنوان في ترجمة « دوفور » .

(٣) أرسطو يستشهد بهذا الشعر في كتابه « الميتافيزيقا » وينسبه إلى « افينوس »
Evénu . انظر ما كتبه « سبنجل » Spengel تعليقا على هذا في كتاب =

واهتمامهم والمتاعب والانكباب على الدرس والمجهودات الصعبة مؤلمة ،
لأننا نقوم بها تحت تأثير الضرورة الضاغطة ، ما دمننا لم نتعودها ، وإلا
رجعت إلى مرتبة المستحسن المقبول . ونقائض ما تقدم أشياء مقبولة
طبعاً . ومن المقبول الراحة والفتور والنوم والانقطاع عن العمل
المتعب (١) . لأن كل واحد منها بعيد عن الضغط وإلزام الضرورة .

هـ — وفي غير ما تقدم ، كل ما نقوم بعمله يعد مقبولا إذا كان الدافع
إليه رغبة وحاجة نفسية ، لأن هذه الرغبة تعد من العوامل الدافعة لعمل
المستحسن المقبول .

والرغائب عقلية وغير عقلية (٢) وتطلق عبارة « رغائب غير عقلية » على
كل ما يتطلع إليه الإنسان غير مدفوع إليه بفكرة من الأفكار ، وهو ما نعرف
عنه بالرغائب الطبيعية أو حاجيات الجسم ، كالتغذية والجوع والعطش . وكل
الحاجات التي لها صلة بهذا النوع أو بذلك من صنوف التغذية ، ومن هذه الحاجات
التذوق وسرور الحب (٣) وما يتصل باللبس ، وما يتصل بالشم أو بالسمع
أو بالنظر . أما الرغبات العقلية (المصحوبة بالتفكير) فهي ما نميل إليه على

== « الخطابة » لأرسطو الجزء الثاني ص ١٥٩ . انظر روبل ص ١٤٣ هامش (١) .
في ترجمة «دوفور» تعليق على هذا الشعر جاء فيه: ذكر أرسطو في كتاب «الميتافيزيقا»
هذا الشعر وهو يعرف الضرورة ، ص ١٢٠ هامش رقم (١)
(١) دوفور يعد الألعاب من الأشياء المقبولة (ولو أنها متعبة) لأننا لا نقوم بها تحت
تأثير ضاغط ص ١٢٠

(٢) هذه الفكرة فكرة أفلاطون في كتاب له يسمى (الأدب الكبير)
La grande morale هو الذي قسم الرغائب قسمين يتصلان بالجزئين اللذين يتركب
منهما الإنسان (الجسم والعقل) دوفور ص ١٢٠ هامش (٢)
(٣) غريب أن يعد سرور الحب من الحاجات الجسمية وقد عدها في فقرة (١١) من الحاجات
النفسية ولعله يريد هنا ما يصحب سرور الحب من تغير الحالات الجسمية من أثر الانفعالات

أثر سماعنا ما يستميلنا إليها ، فهناك كثير من الأشياء نحس بالرغبة في رؤيتها
أو في تملكها لأننا سمعنا أنها مقبولة مستحسنة ، وملنا إليها على
هذا الاعتبار .

٦ — وهناك رغائب مصدرها الخيال والتذكر . فاللذة إحساس
تأثري ، والخيال إحساس ضعيف (١) . وما دامت الحركة الخيالية نتيجة
« للتذكر ، أو لأمل ، لمن يتذكر أو يأمل ، فمن الواضح أيضاً أن كل
الذائد والمسرات تأتي مصاحبة للتذكر والأمل . فمن يتذكرون ويأملون
يسرون ، وسرورهم حتى هائج لأن التذكر إحساس ، والأمل إحساس .

٧ — وطبعي بعد ذلك أن تكون كل المستحسنيات (السارة والمقبولة)
أشياء حاضرة في إحساسنا ، ماضية في ذكرياتنا ، مستقبلية في أملنا لأننا
نحس بما هو أمامنا ، وتذكر ما كان ، ونأمل فيما سيكون .

٨ — ونحن لانستحسن من الذكريات ما كان حسناً وقت وقوعه
فقط ، بل نستحسن أيضاً ما كان مؤلماً وقت وقوعه ثم أعقبه ما جعله محبباً
مقبولاً . وهذا ما جعل الشاعر يقول :

« لئذ أن يتذكر الإنسان مخاوفه بعد أن نجا منها . » (٢)

وما جعل الآخر يقول :

« يستمتع الإنسان بآلامه الماضية ويستعذبها »

(١) إذن السرور (اللذة) إحساس تأثري يساعد الخيال ، والخيال وإن كان إحساساً
ضعيفاً إلا أنه يقوى بالتذكر والأمل وهما يخلفان إحساساً أيضاً ، ويكون السرور مجموعة
من أحاسيس الخيال والتذكر والأمل .

(٢) الشعر « لأوريبيد » Euripide , fragment d ' Androméde
virgile Enéide . وقد ذكره فرجيل في ملحته :

« إذا تذكر ما قام به من عمل ، وما عانى من محن ، (١) »
ومرجع ما تقدم أن اللذة هي انقطاع الألم .

٩ — الأشياء المأمولة تكون سارة حينما تظهر لنا في الحاضر بمظهر ما سيمدنا حتماً بأ أكبر ملذة ، أو بأ أكبر فائدة ، أو بأ أكبر نفع في غير مشقة أو ألم . (٢) ويظهر ساراً في العموم كل ما يمتنع في غالب ظروفه ، سواء أكان هذا الإمتاع عند حصوله ، أم كان حين تأمله ونتذكره . ومن هنا كان الخلق فيه شيء من المسرة والقبول . وهذا ما جعل هوميروس يمدح الغضب حينما يقول « إنه أحلى من العسل المصفى يقطر نقطة نقطة ، (٣) » وفي الحق أن الإنسان لا يصب غضبه إلا على رأس من يستحق الانتقام ، وهو لا يصب غضبه على من هم أعلى مكانة منه وأعظم سلطاناً ، وأمام هؤلاء إما أن يتصرف في غير غضب ، وإما أن يغضب ولكن في غير حدة .
١٠ — معظم الرغائب القوية مصحوبة بلذة ما ، لأن هذه الرغائب تكون في تذكر مجد سابق ، وتسكون أحياناً في الأمل في مجد لاحق يسرنا الحصول عليه : فالمحمومون والظمأى يشعرون بلذة إذا ذكروا أنهم شربوا أو إذا أملوا في أنهم سيشربون .
١١ — والمحبون يسرون ويسعدون حينما ينحرفون بعباراتهم

(١) « رويل » ص ١٤٥ هامش (١) . « دوفور » ص ١٢١ هامش (١)
الشعر لهوميروس في الألياذة الجزء الخامس عشر وقد قرر « رويل » أن في النص خلافاً ويطلب لتحقيقه الرجوع إلى طبعة Al. pierrou . و « دوفور » يورد نص الشعر كالآتي : « حينما عانى الخن بعد أسفار مضنية » . قابل بين ترجمة « رويل » ص ١٤٥ هامش وبين ترجمة « دوفور » ص ١٢١ هامش (٢) .
(٢) يظهر هنا جلياً تقديره عنصر الخيال .
(٣) الألياذة الجزء الثامن عشر ص ١٠٧

وبأشعارهم (١) وبأفعالهم ناحية المحبوب : ولذة الحب (في كل المحبين) ليست
في المتعة بموضوع الحب فحسب بل في تخيله وتذكره ، بل هناك لذة في
الغياب والبين (٢)

١٢ - وفي الأحزان والمرائي شيء من اللذة ، لأن الفراق مصدر
الحزن . وفي تذكر المفقود والمفقار شيء من العزاء حينما نراهما على
أية صورة من الصور ، وحينما نتحدث عن أعمالهما وفضائلهما . ومن هنا
قول الشاعر : « إنه يتكلم والكل يحسون من أعماق قلوبهم إحساساً صامتاً
بالحاجة إلى الدموع .. » (٣)

١٣ - الانتقام لذة ، فما يؤلمنا عدم إدراكه يسرنا إدراكه . وهؤلاء
الذين يحسون الحق والغضب ، يعانون شدة وضيقاً ، ويسرون إذا أملاوا
في القدرة على الانتقام .

١٤ - والانتصار أيضاً لذيذ وسار لا لهؤلاء الذين يطعمون في المجد ،
ولهم ذوق خاص في ورود مناهله فحسب ، ولكن لكل الناس : ففي
الانتصار تفوق ، والتفوق رغبة كل الناس يندفعون إليها اندفاعاً قليلاً
أو كثيراً .

١٥ - وإذا كان الانتصار لذة تبسح ذلك طبعاً أن تكون في الألعاب

(١) في ترجمة «دوفور» زيادة «وبرسوم صورهم» بعد «أشعارهم» ص ١٢١
(٢) نقل «دوفور» العبارة الآتية في لذة البين من كتاب الأخلاق «يظهر أن المعروف
هو مبدأ الصداقة والحببة بين الناس . كما أن لذة النظر هي مبدأ الحب ، فلا يكون العاشق
عاشقاً إلا إذا أدرك معنى الجمال . أما الذي يسر بالتفكير والتأمل فلا يكون عاشقاً بالنظر
والتأمل ، ولكن الذي يحسب في العاشقين هو من تؤله غيبة الحب ويحس بالرغبة الملحة
في أن يكون إلى جانبه ، ص ١٢٢ هامش (١) .
(٣) هو مبداء الإلياذة الكتاب الثامن عشر ص ١٠٨ . والأوديسي الكتاب الرابع ص ٨٢ ؛

الرياضية المشتركة لذة . ونستشعر اللذة أيضاً في المسابقات على المعزف ،
وفي المساجلات الخطائية ، فكثيراً ما تكون فرصة للانتصار .
كذلك لعبة « السكب » ، ولعبة الكرة والنرد والشطرنج وغيرها من
الالعب الجدية (التي تستدعي مجهوداً) مجال لذة .

وبعض الألعاب لذيق لتعودنا عليها ، وبعضها لذيق من غير تعود كالصيد
مثلاً ، وكروية المصارعة بين الحيوانات المتوحشة . وفي الحقيقة أن كل
صراع فيه انتصار ، ولهذا كان الحوار الخطابي ، والحوار الجدلي من الأشياء
السارة لكل من تعود عليهما ولكل من له ملكة فيهما .

١٦ — الألقاب وبعد الصيت معدودة في الأشياء المستحسنة ، لأن كل
إنسان يرى لنفسه قيمة وشخصية يعتد بها ، ويزداد اعترافنا بقيم أنفسنا
عندما ننصت إلى سمعنا في أفواه من نرى أنهم يعترفون بالحقائق . ومن
ننصت لهم هم القريبون منا — لأنهم يعرفوننا أكثر من غيرهم — ومن لنا
بهم كبير صلة ، ومن لنا بهم صلة المعرفة ، ومن يشاركنا في الوطن ، ومن
هم على قيد الحياة لا من يجيء بعدهم ، والعلماء لا الجهلاء ، والعدد الأكبر
في ذلك خير من العدد الأصغر . فشهادة هذه الجماعات مظنة الصدق أكثر
من غيرهم من الجماعات التي لا تتصف بهذه الصفات ، لأن من لانتم بهم
ولا بأحكامهم كالأطفال والحيوانات لا يهمننا تقديرهم ، ولا أفكارهم من
هذه الناحية في الأقل ، فاذا اهتممنا بشأنهم فمن نواح أخرى .

١٧ — الشعور بالصديق ومصاحبته سار أيضاً من ناحيتين : إحداهما
أن هبة الصداقة شيء سار ، فليس هناك من يحب النبذ ولا يجد لذة في شربه .
وثانيتهما أن شعور الإنسان بكونه محبوباً سار أيضاً ، لأن في ذلك اعتقاد

الشخص في نفسه أنه خير، وأنه معروف لدى العقلاء . وهذا كل ما يتطلبه المقربون من الناس المحبوبون منهم . ومعنى أن الإنسان محبوب أنه مرغوب فيه لذاته وأنه موضع للحب والعاطفة .

١٨ - الإعجاب بالشخص سار ، لأن السكرامة متصله بالإعجاب ، والمحابي يسر ، والمحابة سارة ، لأن المحابي فيما يظهر معجب وصاديق .

١٩ - تسكرار الشيء وكثرة مزاولته سار أيضا فقد رأينا أن ما تعودنا عليه يسرنا عمله . (١)

٢٠ - التغيير سار . لأن التغيير فيه رجوع إلى الحالة الطبيعية ، والتسكرار المستمر لشيء واحد يحمل صاحبه على الغلو في ثباته على وضع واحد . ومن هنا كانت الكلمة الماثورة : « التغيير محبوب في كل شيء » . (٢)

ولهذا كان ما يظهر من الأحداث وأعمال الرجال الفينة بعد الفينة سار لأن الفاصل (بين الأحداث) يعتبر تغييرا بالنسبة للحظة التي نكون فيها . ويعتبر التغيير أيضا من الندرة ما دأب ظهور هذه الأعمال متقطعا .

٢١ - التعلم والدهشة من السار في الغالب ، لأن الدهشة تثير الرغبة في التعلم وما يسبب الدهشة يسبب الرغبة والحاجة . وفي التعلم ما يرجعنا إلى حالتنا الطبيعية (٣) (التي تغيرت بالدهشة والغربة)

(١) الفقرة الثالثة من هذا الفصل .

(٢) من رواية « اورست » لمؤلفها « أوريبيد » Euripide Orest, V, 234

وقد ذكر رويل في ترجمته أن أرسطو اشتمد بهذه العبارة في كتاب الأخلاق . وقد نقل دوفور هذه العبارة من كتاب الأخلاق :

« إذا اعتبر « أوريبيد » أن التغيير مقبول وسار فأني ذلك نقص في طبيعتنا ، فكما أن الرجل المتقلب ناقص ، كذلك طبيعتنا محتاجة إلى التغيير لنقص فيها ، لأن طبيعتنا لا تنصف بالسهولة ولا بالتعقيد . » دوفور ص ١٢٣ هامش (١) رويل ص ١٤٨ هامش (٢)

(٣) في ترجمة « رويل » كلمة S'étonner ومعناها ما يدعش ، وفي ترجمة « دوفور » admirer ومعناها ما يعجب منه وقد طاوعنا كلمة رويل لأن المعنى يقتضيهما .

٢٢ — الأخذ والعطاء من الأشياء السارة ، فأخذ شيء نافع معناه أنك
ملك ما يحتاج إليه ، ومنحك الناس الخير معناه أنك تملك ، وأنت من
أصحاب المكانة العليا ، وهما شيئان يتطلع الناس للحصول عليهما .

وبما أن الإنسان يسر إذا قدم خيرا لغيره ، كان من الخير أيضا أن
يصلح الإنسان أخطاء مواطنيه ، وأن يتمم ما تركوه ناقصا .

٢٣ — وكما أن التعلم والدهش (الإعجاب) أشياء سارة ، كذلك يكون
سارا ما عملناه مشابها لها . ومن هنا كان التقليد في التصوير والحفر والشعر ،
وكل ما يصلح للتقليد سارا أيضا حتى ولو كان المقلد غير مستحسن ، لأن
السار ليس موضوع التقليد وإنما هو التفكير الذي جعلك تقول « نعم !
هذا هو تماما ! » ومن هذه العبارة يتعلم الإنسان شيئا ما . (١)

٢٤ — نستشعر اللذة أيضا في المفاجئات ، وفي النجاة من المخاطر لأن
كل هذا يسبب الدهش والغرابة .

(١) يقول أرسطو في كتاب « الشعر » « إن كل الناس يجدون لذة في التقليد . . ففي
الأشياء التي يصعب استحضار أصولها ، نستحضر صورها ونماذجها ونقف أمامها معجبين
(مثل صور الحيوانات المفترسة وصور الرفات وبقايا الأموات) ومنتشاً هذه اللذة التعلم فإنه
لذة في ذاته للفلاسفة ولغيرهم من سائر الناس مع فروق في ذلك أقلها لسائر الناس وأكثرها
للفلاسفة . ومنتشاً اللذة في الصور التقليدية أنها تعليمية ، ويستفيد الإنسان وهو يتأملها ،
ويمكن أن نستنتج من تأملها نتيجة كأن نقول « إن هذه الصورة لكندا ، وتلك الصورة
لكندا » فإن كان الإنسان لم ير الأصل ورأى الصورة فإن التقليد يكون سارا ولذلك غاية
الأمر أن اللذة هنا لاتأتي من التقليد بل تأتي من شيء آخر هو تمام الصورة وتلويها
وبروزها وما إلى ذلك مما يتعلق بالتصوير .

دوفور ص ١٢٤ هامش (١) نقلا عن كتاب « الشعر »

٢٥ — وبما أن كل ما يتصل بالطبيعة مستحسن ومقبول، وأن النوعين والجنسين والمتشابهين يتصل أحدهما بالآخر برابط طبيعي، كانت كل الأنواع والأجناس والمتشابهات مستحسنة مقبولة: فالرجل يتفق مع الرجل مثلا، والحصان مع الحصان، والشاب مع الشاب، ومن هنا صحت مضارب الأمثال الآتية:

« تتفق الناس إذا اتفقت أعمارهم. » (١)

« يبحث كل إنسان عن شبيهه ومثله. » (٢)

« لا يتعرف على البهيمة إلا البهيمة، »

« العندليب يحثم بجانب العندليب » (٣) وغيرها مما يشبهها.

٢٦ — وبما أن المتحددين في النوع، المتشابهين في الخلقة، يمتزجون فيما بينهم، وأن كل واحد منهم يشعر بأن هذه العاطفة من نفسه ولنفسه، يخلص من هذا أن كل امرئ يحب نفسه. وهذه الصلة يشعر بها كل إنسان (لأن مراعاة الشبيه حب للنفس).

وبما أن كل واحد يحس هذا الحب الذاتي، يتبع ذلك حتما أن كل ما يتعلق بذواتنا تعلقا مباشرا يكون سارا ومقبولا، فنحن نحب من يحاينا أو يتملقنا، ونحب من نؤثره (نعشقه) (٤) ونحب المدائح التي توجه إلينا،

(١) ذكر هذا المثل أفلاطون في كتابه Le phédre (محاورة لأفلاطون موضوعها الجمال والخطابة وهو إنتاجه الذي ظهر به في شبابه)

(٢) هذا المثل ذكره هوميروس في الأوديسي الكتاب الثامن عشر ص ٢١٨

(٣) ذكر هذا المثل « بلوتارك » المشهور بكتابة حياة عظماء أثينا وروما

Vie des hommes illustres de la Grèce et de Rome.

(٤) في ترجمة روبل Nos favoris ومعناها من « نؤثرهم ». وفي ترجمة دوفور كلمة Amants ومعناها العشاق لذلك أثبتنا الكاهنتين.

ونحب أولادنا لأنهم منا وهم ثمرة مجهودنا .

كذلك نعتبر سارا كل عمل ناقص أكملناه ، لأنه بعد إتمامه يحسب في أعمالنا .

٢٧ - الأمر وإسداء النصيحة ساران . ومن السار أيضا أن يتصرف المرء بالحكمة والتعقل ، فالحكمة العملية ألزم ما يكون للأمر والنصيحة ، والحكمة النظرية موضوع علوم كثيرة جديدة بالإعجاب .

زد على ذلك أن من أخلاق الرجال الطموح في الأغلب ، فمن الطبيعي أن تكون الرقابة على من معك ، أو إسداء الأوامر إليهم من الأشياء السارة . (١)

٢٨ - ومن السار أيضاً أن يندفع الإنسان إلى عمل يعتقد أنه أكبر من طاقته . ومن هنا قول الشاعر :

«إنه ينسكب انكساباً تاماً ، ويخصص معظم يومه للعمل الذي يجده أكبر من طاقته .» (٢)

٢٩ - وكما أن اللعب وغيره من أنواع التفریح عن النفس محسوب في الأشياء السارة ، يكون الضحك سار أيضاً ، ويتبعه كل ما يضحك من الأشخاص والأقوال والأفعال ، وقد تكلمنا عن الأشياء المضحكة

(١) بين هذه الفقرة في ترجمة « روبل » وبينها في ترجمة « دوفور » قبل فرق جاء من التفصيل في الحكمة العملية والحكمة النظرية . لذلك آثرنا ما جاء في ترجمة « دوفور » .
قارن بين « روبل » ص ١٥٠ وبين « دوفور » ص ١٢٥ .

(٢) شعر مأخوذ من رواية « انتيوب » لأوريبيد Antiope d' Euripide وقد ذكره « أفلاطون » في كتابه جورجياس Gorgias « دوفور » ص ١٢٥ هامش (١)

وحددناها في فصل على حدة في كتابنا « الفن الشعري » (١)
وفي هذا القدر ما يكفي في الكلام على الأشياء السارة . أما الأشياء
المؤلمة فتفهم من أصدادها .

(١) علق « رويل » على هذه الكلمة بأن هذا الجزء الخاص بالضحك مفقود فيما عثر
عليه من كتاب أرسطو . ويقرر « دوفور » ما قرر « رويل » ويزيد عليه بأن الضحك
وما يشبهه . موجود في الجزء المفقود من كتاب « الفن الشعري » وفي هذا الجزء عالج
« السكوميديا » بتوسع كما عالج الهجاء والتعريض ويقول بعد ذلك إنه وجدت رسالة مجهولة
المؤلف (يظن أنها من الجزء الثاني لكتاب الفن الشعري) تعدد بواعث الضحك تحت
اسم Anecdota de Gramer ص ١٢٥ هامش (٢) .

الفصل الثاني عشر

ملخص الفصل :

في هذا الفصل يتعرض للمجرمين والمخطئين ، ولنوع الجرائم التي يرتكبونها ولأصناف الناس الذين يقع عليهم الجور والظلم : فمن هم هؤلاء الذين يستطيعون أن يستطيعوا على الناس بظلم ، وأن يكونوا سبياً فيما يلحقهم من بوار ؟ هم أولا المدافعون الذين حببهم الطبيعة بالفصاحة والتيمان ، والذين لهم تجارب عديدة في البغي والطغيان ، وهم الذين يستندون إلى جاه من ثروة وعصية ، وهم كثيرون الأعوان والأنصار والخدم والموالي وقرناء السوء ، فسكلها يغري بالآذى ويساعد على التنصل والفرار من العقاب . وأكثر ما يأتي الأذى من الصديق لأنك لا تحذره ، ويكثر من صديق القاضي لأنه يراعيه ، أو يعاقبه بعقوبة لا تناسب مع الضر الذي سببه . فأرسطو حينما يعرض لهذه الأشياء ولا مثالها إنما يعرض للمجال الحيوي للخطابة ، ومجالها يتسع في الأمور التي لا تتصف بفضيلة ولا برذيلة ، فهو يعرض كثيرا من هذه الأمور Omoralisme Méthodique فالتنصل من الجريمة سهل إذا نسبت إلى مريض مضعوف ، وإذا نسبت جريمة خيانة الزوجية إلى امرأة لا مظهر لها ، أو إلى رجل دميم الخلقة ، فأنت في الخطابة لا تتعرض لفضيلة أو رذيلة إنما تتعرض لأشياء عارضة لا تتصف بفضيلة أو رذيلة في مواقف الدفاع . والجرائم التي تتم في وضع النهار وعلى أعين الناس يمكن التنصل منها ومن شأن المرافعة في مثلها أن تضعف الاتهام .

وهناك جرائم لا يظن في أحد أن يرتكبها لخطورتها ، فهي لا تسمح بطبيعتها لأن يهتم أحد فيها ، والناس تحتاط للمرض العادي أما المرض الذي لم يصب به أحد فلا تتوقاه الناس . كذلك يمكن التنصل من الجرائم التي تقع من لا يعادى

أحدا ، والتي تقع من يعادى عدداً كبيراً من الناس .

فالأول مأمون الجانب ، والثاني مظنة الاتهام . وتسهل الجريمة من يستطيع أن يخفي المسروق مثلاً أو يحيله إلى طبيعة غير طبيعته ، ومن إذا حكم عليه بعقوبة يستطيع أن يؤجل العقاب أو يدفع الغرامة في سهولة لثروته وغناه . ويرتكب الناس الجرائم إذا كان فيها نفع ظاهر ، أو منفعة حاضرة ، أمام العقوبة القليلة أو المؤجلة .

وهناك من تدر عليهم جرائمهم أرباحاً طائلة وعقوبتهم لا تتناسب مع أرباحهم ، وأحياناً لا تتجاوز حد اللوم . وهناك جرائم تضفي على أصحابها المدح والثناء إذا اتقنوا للأب والام معا (جرائم الشرف والكرامة) وأكثر ما تكون الجريمة للكسب والثأر للكرامة وأخلاق الناس متضاربة أمام هذين الدافعين . وتسكثر جرائم من تعودوا الإجرام ، ومن أفلتوا من العقاب فهؤلاء وهؤلاء على استعداد تام لمعاودة خطاياهم . ومن وسائل التنصل من الجريمة الاحتجاج بالمصادفة والحاجة وجبر الطبيعة ، وجبر العادة ، فهؤلاء يمكنهم أن يتظاهروا بالهفوة لا بالخطيئة ويمكنهم أن يحصلوا على التسامح بدل العقوبة . والحاجة دافعة إلى الجريمة إلا أنها تختلف في تقديرها حاجة الفقراء إلى الضروري أشرف من حاجة الأغنياء إلى المزيد . هذه هي طوائف المجرمين وهذا ما يمكن أن يدافعوا به عن أنفسهم في موقف الدفاع .

يأخذ بعد ذلك في عرض المظالم وفي عرض الطوائف التي يقع عليها الظلم . وأكثر ما يقع الظلم على الذين لا يأخذون حذرهم ، وعلى الذين يولون الناس نقتهم ، وعلى الذين يسهل الإيقاع بهم ، وعلى الغافل الذي لا يعرف حقه ، وعلى الهادى الذى يسكره الخصومة ، وعلى من لا يستطيع أن يتعقب ظالمه ، وهذا هو ما يعبر عنه « بفريسة الميسيين » . ويقع الظلم على من لم يقع عليه ظلم أصلاً ، وعلى من تكرر ظلمه ، فالأول يؤخذ من مأمنه ، والثاني ليس فيه موضع لظلم جديد ، وقد سهل الخوان عليه وجرحه لا يؤلم .

ويظلم من سبق اتهامه في كرامته ، فهو يخشى المشول أمام القضاء ، ويخشى
ألا يصدق فيما يقول . وفي العموم يظلم الناس الأصدقاء والأعداء فظلم الأولين
يسير ، وظلم الآخرين سار ، وقد يكون الظلم ساراً أيضاً إذا وقع على من أساء
الينا ، أو أراد الاساءة ، أو فكر في أنه سيسيء . وأحيانا نرتكب الظلم أمام
من نريد أن نتظاهر أمامهم بالقوة ، ومن أجل الأصدقاء ، ومن نحبهم ، ونعجب
بهم ، ومن أجل من ننتظر منهم لفئة كريمة ، ومن أجل من وقفنا حياتنا عليهم .
ونظلم أحيانا من نستطيع بظلمهم أن نقدم لهم خيرات جزيله وهذا ما قاله
« جاسون » ملك « تساليا » يجب ارتكاب بعض المظالم حتى نستطيع القيام
بعدة إصلاحات عادلة .

هذه تقريبا هي الاستعدادات والميول التي يحسها كل من ارتكب ظلما أو تسبب
في ألم ، وتلك هي طبيعة الجريمة ودواعيها .

من المخطئون (أو الظلمة) ؟ - وما نوع الألم الذي يحدثون؟
ومن هؤلاء الذين يصيبهم هذا الألم؟

١ - عرضنا فيما تقدم للأشياء المسيبة للخسارة ^(١) وسنتكلم الآن في استعداد وحالة الناس الذين يسببون هذه الخسارة (أو هذا الظلم). يندفع الإنسان حينما يرى أن الأمر الذي صمم عليه ممكن وفي الاستطاعة عمله، إما لأن هذا الأمر سيظل مجهولاً وإما لأنه إذا اكتشف لا يعاقب عليه، وإما لأن العقاب عليه أقل من الفائدة المرجوة لنا أو لمن يهمنا أمرهم. أما صفات الأمكانية والاستحالة فأنا نتركها الآن لننتحدث عنها فيما بعد ^(٢) لأنها صفات عامة في كل أنواع الخطابة الثلاثة.

٢ - وهؤلاء الذين يستطيعون أن يخربوا (يظلموا) من غير أن يقعوا تحت طائلة العقاب هم من عندهم المقدرة في الفصاحة (على الدفاع) ومن عندهم التجارب العديدة في الصراع إذا كانت لهم عصبية من الرجال وسند من الثروة.

٣ - فإذا رأى الإنسان في نفسه القدرة على الأذى ارتكبه وإذا لم تكن له هذه القدرة في نفسه، أغرته بالأذى كثرة الأصدقاء، وكثرة الموالى والخدم وشركاء السوء، وبفضل كل هذه القوى يستطيع أن يرتكب الأذى، وأن يتستر فيه، وأن ينجو من العقاب.

(١) هي أولى الأشياء الثلاثة التي ذكرها في أول الفصل العاشر.

(٢) في الكتاب الثاني في الفقرة التاسعة عشر.

٤ — كذلك يكون الإنسان مستعداً للأذى إذا كان صديقاً لمن وقع عليهم هذا الأذى ، أو صديقاً للقضاة ، لأن الأصدقاء لا يتحرزون من أن ينالهم شيء من الصديق ، وهم يستطيعون أيضاً أن يوفقوا فيما بينهم قبل الالتجاء للقضاء . ولأن القضاة يراعون أصدقاءهم ، وأحياناً يهملون الشكاوى ضدهم ويبرءونهم ، وأحياناً يقررون عليهم عقوبة خفيفة (لا تناسب مع الضرر)^(١)

٥ — وفرصة التنصل من الجريمة تأتي في أن تكون ظروفها لا تسمح بالاتهام ، كما لو نسبت ظروفها العديدة إلى ضعيف نخيل ، أو إذا نسبت جريمة خيانة الزوجية إلى امرأة مسكينة ، أو إلى رجل قبيح الخلق ، وكذلك إذا كانت الوقائع قد تمت في وضوح النهار ، وعلى أعين الناس ، ففي مثل هذه الحالات يقل الاحتياط ويضعف الاتهام في أن المجرم يرتكب ما يرتكب في مثل هذه الظروف .

٦ — وهناك أشياء بالغة الحد في الخطورة ، وطبيعتها لا تسمح باتهام أحد فيها لأنه لا يتحوط من مثلها ، فالناس تحتاط للضرر العادي ، كما تحتاط للمرض العادي ، أما المرض الذي لم يصب به أحد فلا يتوقاه أحد ، ولا يحتاط منه أحد .

٧ — كذلك تستتر جرائم الذين لا عداوة لهم مع أحد ، والذين لهم أعداء كثيرون ، فالأولون لا يكشف عنهم أحد لأنهم مأمونو الجانب (ماداموا لا يعادون الناس) والآخرين يستتر أمرهم لأن الناس تحتاط

(١) هذا الايضاح من الصفحات التي شرح فيها أرسطو بطريقة منظمة الأشياء التي لاتمس الأخلاق Amoralisme Méthodique وهذه الأشياء تستعمل استعمالاً متعارضاً ، فهي أدلة ذات حدين ، يريد من سردها أن يستعملها الخطيب . دوفور ص ١٢٦ هامش (١)

منهم وهم على علم بما يمكن أن يبيتوه ، ولأنهم يمكنهم أن يدافعوا عن أنفسهم بأنهم لا يستطيعون عمل شيء مادام الناس تهمهم لعداوتهم لهم .

٨ — كذلك الذين يستطيعون أن يخفوا المسروق ، أو يحيلوه إلى طبيعة أخرى . أو يحولوه من مكان لآخر ليسهل بيعه . ومن عزت عليه وسائل الاختفاء وافتضح أمره يستطيع أن يتجنب العقوبة ، أو يؤجلها ، أو يفسد ضمير القضاة . وهناك من إذا حكم عليه بعقوبة استطاع أن يؤجل النفاذ ، أو يكسب وقتاً ، ومن إذا حكم عليه بغرامة لا يخسر شيئاً لأنه ليس في وسعه أن يؤدي الغرامة لفقره .

٩ — كذلك هؤلاء الذين يجدون فيما ارتكبوه نفعاً ظاهراً ، أو أهمية كبيرة أو منفعة حاضرة ، في حين أن العقاب الذي يتعرضون له قليل ، وغير ظاهر ، وبعيد . كذلك الذي لا يدرك من العقوبة بمقدار ما حصل عليه من المنفعة بسبب ما اقترفه ، وتلك هي حالة ما يرتكب باسم الاستبداد .

١٠ — وكذلك هؤلاء الذين تدر عليهم جرائمهم أرباحاً طائلة ، وعقوباتهم لا تتجاوز اللوم . وهناك من تضاف عليهم جرائمهم المدح والثناء إذا استطاعوا بضربة واحدة مثلاً أن ينتقموا للآب وللأم ، مرة واحدة وتلك هي حالة زينون Zénon .^(١) في حين أن عقابهم لا يتجاوز الغرامة أو النفي أو ما يشبههما . وفي الواقع أن الجريمة ترتكب لآمرين : حب الربح وحب الكرامة (الكاذبة طبعاً) وتحت تأثيرهما . ولكن الأشخاص

(١) لاحظ Dufour أن أرسطو لم يبين في هذه الفقرة الأشخاص الذين ارتكبوا هذه الجرائم ولا نوع الجرائم التي ارتكبوها ص ١٢٧ هامش رقم ١

ليسوا سواء ، وأخلاقهم متضاربة أمام هذين الأمرين (١) .

١١ - كذلك هؤلاء الذين أجرموا مراراً ولم تسكتشف جرائمهم ، أو كشفت ولم يعاقبوا ؛ ومثلهم الذين أخفقوا في محاولاتهم كهؤلاء الذين يزاولون الأعمال الخيرية ؛ ومثل هؤلاء وهؤلاء يكونون على استعداد لمعاودة خطاياهم .

١٢ - كذلك هؤلاء الذين يندفعون مع المسرة العاجلة ولا يفكرون في سوء العقبى ؛ والذين يغتيمون الربح العاجل ولا يفسكرون في العقاب الآجل ، فمثل هؤلاء الناس يتصفون بالتهور وعدم الاعتدال ، والتهور يحمل صاحبه دائماً على أن يندفع في رغائبه .

١٣ - وهناك أناس على النقيض من هؤلاء يتحملون الآلام والعقوبة العاجلة ، إذا كانت المسرة والمنفعة الآجلة محققة ، ويستمر الانتفاع بها زمناً طويلاً ، والذين يقصدون إلى هذه الغاية ، هم الممتعون بغير القليل من الفكر والذكاء .

١٤ - وهؤلاء الذين يمكنهم أن يتظاهروا بأن عملهم جاء صدقة وعرضاً ، أو دفعت إليه الحاجة ، أو أجبرت عليه الطبيعة أو العادة . وعلى العموم هؤلاء الذين يمكنهم أن يتظاهروا بأنهم هفوا ولم يخطئوا ، ومثلهم الذين يمكنهم أن يحصلوا على العفو عنهم بالتساع معهم .

١٥ - وهؤلاء الذين يستشعرون الحاجة ، وهم نوعان من يحتاجون إلى الضروري كالفقراء ، ومن يحتاجون إلى الزائد والفاضل وهم الأغنياء .

(١) فهناك أناس يضجون الكرامة في سبيل المنفعة ، وآخرون يضجون بالمنفعة في سبيل الكرامة ، (دوفور ص ١٢٧ هامش رقم ٢) .

١٦ - وهؤلاء الذين لهم منزلة ومكانة ، ومن لا منزلة لهم ، فإن الأولين يعتقدون أنهم بعيدون عن الشبهة ، والآخرون لا يفقدون شيئاً من كرامة لم تسكن لهم من قبل :

هذه هي طوائف الناس الذين يسببون الظلم والجريمة (أى ويمكنهم التنصل بالخطابة) .

١٧ - ونعرض الآن للطوائف من الناس يقع عليهم الظلم ، ولأنواع المظالم التى يتعرضون لها : تقع المظالم أولاً على من يملكون ما يحتاج إليه احتياجاً ضرورياً ، أو احتياجاً زائداً (غير ضرورى) أو احتياج تمتع ولذة .

١٨ - وتقع المظالم على من هو بعيد عنا ، وعلى من هو قريب منا ، فإن هذا يقع عليه العمل الظالم بسرعة (من غير أن يحس به) أما ذلك فلأن العقوبة مؤجلة (نظراً لبعده) كالذين يسرقون القرطاجيين^(١) مثلاً .

١٩ - وعلى هؤلاء الذين لا يأخذون حذرهم ، وعلى من يعتمدون على الثقة فى الناس . وعلى الذين يسهل الإيقاع بهم ، وعلى الغافلين ، فالتقوى لا يترك حقه . وتقع المظالم أيضاً على المنزوين الهادين الذين لا يحبون الخصومة فى مسألة نفعية أو فى أمر يعود عليهم بالرجح^(٢) .

٢٠ - كذلك يستضعف هؤلاء الذين تحملوا ظلم جماعة من غير أن

(١) فى ترجمة دوفور « الذين يسرقون أهالى كالميدونيا » Calcédoine بلدة من بلاد آسيا الصغرى على البوسفور كان قرصان البحر يهددونها من وقت لآخر ص ١٢٨ هامش رقم (١) . لاروس ، بلدة Bithynie .

(٢) ترجمت هذه الفقرة حسب نص دوفور فإن فيه زيادة ص ١٢٨ .

أن يتعقبوهم فهو لاء هم مضرب المثل « فريسة الميسنيين » (١) .

٢١ — ومثلهم هؤلاء الذين لم يتعد عليهم أحد بظلم أبداً ، وهؤلاء الذين تسكرر وقوع الظلم عليهم ، فإن الأولين لا يحترسون لأنهم لم يكونوا يوماً من الأيام ضحية أحد ، والآخرون لا يحترسون لأنهم لا يعتقدون أن فيهم بقية لأن يظلمهم أحد .

٢٢ — هؤلاء الذين سبق اتهامهم بما يخدش الكرامة ، أو المتعرضون لمثل هذه التهم ، لأن من في مثل هذه الحال يؤثر ألا يظهر أمام القضاء خوفاً من القضاة ، وإذا طالب بحقه أمامهم يخشى ألا يصدقوه ، (لأنه كان متهماً أو متعرضاً لتهمة) . ومثلهم هؤلاء الذين هم مظنة كراهة أو حسد .

٢٣ — ويقع الظلم على هؤلاء الذين إذا احتكوا للقضاء أمكن للظالم أن يدعى عليهم بأنهم هم أو آبؤهم أو من يليهم من أقربائهم أساءوه ، أو كانت عندهم نية الإساءة له أو لأبائه ، أو لمن يهيم أمرهم ، والمسألة لاتعدو أن تكون كما قال المثل : « لا يحتاج الشر لأكثر من الادعاء » .

٢٤ — يظلم الناس الأعداء والأصدقاء ، فظلم الأصدقاء سهل ، وظلم الأعداء سار . ويظلم الذين ليس لهم أصدقاء . وكذلك الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم لبالقول ولا بالعمل ، لأنهم لا يحبون أن يتورطوا في القضاء ، وأحياناً يؤثرون الصلح ، وأحياناً لا يجرون في القضاء إلى نهاية الشوط .

٢٥ — ويقع الظلم أيضاً على من يخسرون أكثر مما يكسبون إذا التجأوا إلى القضاء ، لأنهم يضيعون وقتهم في انتظار الحكم ، أو في انتظار

(١) « ميسنيا » Mysie بلدة يونانية مات ملكها فاستضيف أهلوها .

« رويل » ص ١٥٦ هامش رقم ١ . « دوفور » ص ١٢٨ هامش رقم ٢ .

سداد الغرامة التي يحكم بها القضاء ؛ وعلى الغرباء والعمال الذين يكسبون عيشهم
بمحصول أيديهم ، وهؤلاء وأمثالهم يتخلون عمالهم ، ويفضلون أن
ينسحبوا بشكاويهم ودعاويهم.

٢٦ - ويقع الظلم على الظالم الذي ارتكب مظالم عديدة ، أو ارتكب
مظالم من جنس التي وقعت عليه فلا يعد ظالماً في الحقيقة من يرتكب
جريمة ضد من ارتكب ضد الناس كثيراً من أمثالها ، وإنى لأعنى هذه الحال
التي نحمل فيها بالموجع والمقذع على من عادته السباب والشتيم .

٢٧ - ويقع الظلم على من أساء إلينا ، وعلى من أراد الإساءة إلينا ،
وعلى من يريد الإساءة إلينا ، وحتى على من سببنا إلينا ، فظلم هؤلاء
ليس بظلم ، بل الظلم في هذه الحال عمل يمكن أن يكون ساراً وجميلاً .

٢٨ - ترتكب الشر والأذى أحياناً من أجل هؤلاء الذين يهملنا
التظاهر أمامهم ، ومن أجل الأصدقاء ، ومن أجل من نعجب بهم ، ومن
أجل الحبيب ، ومن أجل معلمينا ، ومن أجل هؤلاء الذين وقفنا حياتنا
عليهم بصفة عامة ، ومن أجل هؤلاء الذين ننتظر منهم لفتة كريمة .

٢٩ - ونظلم أيضاً هؤلاء الذين قطعنا علائقنا بهم من قبل على أثر
ما قدفناهم به من تهم ، فمثل هذه القضية تقرب من ألا تكون ظلماً ، وذلك
ما كان من سلوك كاليب Callipe مع ديون Dion^(١) .

٣٠ - ويقع الظلم على من عندهم استعداد لظلمنا إن لم نحذرهم (أي

(١) ديون تلميذ أفلاطون وكان حاكماً على سيراكوز Syracuse في القرن الرابع قبل
الميلاد . ويفهم من التعليق الذي كتبه « روبل » أن Callipe تألب على Dion في
تهمة أدت إلى قتله « روبل » من ١٥٧ هامش (١) .

ونأخذهم قبل أن يأخذونا) لأن المناقشة في مثل هذه الحال لاتجدى .^(١)
ومن هنا ما قيل من أن انيزيدم Enésidème^(٢) أرسل إلى Gélon^(٣)
جائزة Le prix du cottabe بمجرد أن أخضع المدينة فقد كان انيزيدم
يريد أن يخضعها ولكن جيلون سبقه إليها .

٣١ — ن ظلم أيضاً هؤلاء الذين إذا وقع عليهم شيء من الظلم استطعن
أن تقدم لخيرهم كثيراً من المنافع ، وتلك طريقة سهلة لدرء المفسدة وهو
بعينه ما قاله جاسون Jason ملك تساليا Thessalie ويجب ارتكاب بعض
المظالم حتى نستطيع القيام بعدة إصلاحات عادلة .

٣٢ — وقد نفعل الشر الذي يتدفع إليه الناس أو معظمهم تحت تأثير
العادة ، لأننا نعتقد أنه سيتسامح فيه .

٣٣ — وإذا نستحوذ على الأشياء التي يسهل إخفاؤها ، وعلى الأشياء
سريعة الاستهلاك ، كالمواد الغذائية مثلاً ، وعلى الأشياء التي يسهل تحويل
أشكالها ، وتغيير ألوانها ، ومزج تركيبها .

٣٤ — وكذلك الأشياء التي يسهل في معظم الظروف إخفاؤها ، والتي
نستطيع أن ننقلها في غير صعوبة ، أو يسهل إخفاؤها لأنها لاتحتاج إلى
حيز كبير .

٣٥ — كذلك نستحوذ في سهولة على الأشياء المتشابهة ، والتي يصعب

(١) في ترجمة Ruelle « هؤلاء الذين إن لم نسارع إليهم أسرع إليهم غيرنا » وهي
أكثر ملاءمة للفنل بعدها . قارن بين ترجمة Ruelle ص ١٥٧ وبين ترجمة Dufour ص ١٢٩ .

(٢) قائد يوناني تغلب على صقلية (القرن الخامس ق م) .

(٣) قائد معروف مجروبه مع القرطاجينيين وتغلب عليهم .

تميز بعضها من بعض ، والتي يملك المستحوز كثيراً من أمثالها .
كذلك يسهل الظلم في الجرائم التي يستحق المظلوم أن يتشكى منها ،
أو يعلنها ، كقذف المرأة زوجها ، وكقذف الرجل نفسه ، وكقذف
الولد أباه ، ومثلها الجرائم التي يفهم منها أن المشتكى يجب الخصومة
والقضايا ، وذلك ظاهر في الجرائم قليلة الأهمية والتي من شأنها أن
يتسامح فيها .

هذا هو تقريباً الاستعداد والميل الذي يحسه كل من يسبب ظمناً
أو ألماً أو خسارة . وتلك هي طبيعة الجريمة ، وطبيعة هؤلاء الأشخاص
الذين يهاجمون ويتطاولون ، وتلك أيضاً هي الأسباب التي تحدد الجريمة .

الفصل الثالث عشر

ملخص الفصل:

يتحدث في هذا الفصل عن القوانين ويفصلها ويقسمها إلى أقسامها من قانون مكتوب وقانون غير مكتوب (تقليدى) ثم يتحدث عن الجريمة ودوافع الإرادة وعن الفروق في الأخطاء الإرادية وينحدر من ذلك كله إلى شرح روح القانون وضرورة الأخذ بها وعن التسامح والضعف الإنساني وتقدير الخطيئة على أساس مراعاتهما فذلك هو الانصاف وهو أرقى من العدل .

— فالقانون قسمان خاص وعام فالأول ماوضع لتحديد أعمال جماعة معينة من الناس والثاني هو المتعارف بجرى العرف وتقرير التقاليد ، وإلى جانبهما القانون الطبيعي الذى يتلاءم مع الطبيعة ويسايرها ، فهناك عدل بالطبيعة ، وظلم بالطبيعة ، وكأن الطبيعة هى المصدر الأول لهذا القانون ، فكل الناس تجرى على سنته ، وكل الناس تدركه بغريزة تكاد تقرب من الإلهام ، فأنتيجون ، جرت على القانون الطبيعي لما دفنت جثة أخيها بعد أن حرم القانون دفنه ، وقد دونت « سفوكل » فى روايته هذا القانون فقال « هو حق لم يورخ اليوم ولا الأمس ، ولكنه ثابت فى الأجيال ولا يعلم أحد مصدره ومأناه . » ومثل هذا القانون نافذ فى الناس وفى الأجيال « فهو عالمى يحتسز أجواء الأثير ، ويخترق طبقات الأرض الفسيحة ،

— وهناك قانون يشرع للفرد وآخر يشرع للجماعة ، كما أن هناك جرائم فردية كضرب الغير والتطاول عليه وجرائم جماعية كالامتناع عن الانتظام فى سلك الجندية ، وهناك جرائم إرادية ، وأخرى يدفع إليها صاحبها دفعاً قوياً لا يستطيع

رده؛ والأعمال الإرادية ليست سواء في الجريمة أو في العقاب فكثيراً ما يقع العمل وتنقصه صفات الجريمة : فالمجرم يمكن أن يعترف بأنه أخذ ولكنّه لم يسرق ، وأنه أول من تناول بالضرب ، وليس الأول في التناول بالسباب ، وأن له علاقة بهذه المرأة أو تلك ، ولكنّه لم يرتكب ما يشين ، وأنه سرق ولكن يده لم تدن من شيء مقدس ، وأنه حرث في غير أرضه ، ولكنّه لم يحرث في أرض مخصصة للمنافع العامة ، وأنه تحدث مع الأعداء ، ولكنّه لم يخن وطنه . هذا كله يدفعنا إلى أن نحدد الجريمة في القانون تمام التحديد .

وعليّنا أن نحدد الصفات المميزة للجريمة حتى نقف بوضوح على الصفات المميزة للعدالة ، والصفة المميزة للجريمة تجد أصلها في القصد والتعمد ، وفكرة التعمد تجد أصلها في إطلاق اسم بعينه على جريمة بعينها كأن يقال « هذا ضرب » ، « وهذا سب » ، ولا يمكن أن تكون هناك سرقة بمجرد أخذ شيء بل لابد من قصد الإساءة إلى المسروق منه ، ولا بد من قصد تملك المسروق .

بعد ذلك يبين في فلسفة دقيقة العدل الطبيعي أو العدل غير المكتوب فالعدل الطبيعي عدل ، إلا أنه غير مكتوب ، والمشرعون يعرفونه وأحياناً يتواضعون عليه ، وأحياناً لا يتواضعون عليه لأنهم لا يتفقون على تحديد نوعه ، فهم بطبيعتهم مضطرون إلى التعميم أو إلى التطبيق على أكبر عدد ممكن من مفردات نوعه ، لأن طبيعة الأشياء التي تقع تحت اسم العدل الطبيعي هي الفرار بطبعها من تحديد القانون وعدم الخضوع لضبط المشرعين وتقنينهم ، فهناك جروح مثلاً تنشأ عن الضرب بآلات حادة ، وهذه الآلات غير محدودة ، والمشرع مضطر أن يجابه الحالات العامة فقط ، فلو أن متخماً بخاتم من حديد ضرب إنساناً فجرحه وقع تحت طائلة العقاب ، وفقاً للقانون المكتوب ، ولكنّه يرى في نظر القانون الطبيعي ، فكل عمل يحمل عذره معه يعد في الأعمال البريئة ،

فلا نسوى فى العقوبة بين الهفوة والجفوة ، ولا بين الأمر يقع عرضا ، وبين الأمر بجمع إلى القصد روح الشر ، فالعادل المنصف هو الذى يفهم الضعف الإنسانى ولا يسير مع القانون وحده ، ولكن يسير مع روح المشرع أيضا ، وهو الذى لا يقف أمام الحالة الخاصة ، ولكن أمام التطبيق العام ، ولا يحكم على أخلاق الشخص فى لحظة الجريمة ، ولكن على الأخلاق التى عرف بها ، والواجب أن نتذكر فى المخطئ الخير الذى قدمه إلينا إلى جانب الشر الذى صدر عنه ، والحسنات التى تلقيناه عنه ، إلى جانب الحسنات التى قدمناها إليه . وبعد فالتحكيم أولى من الالتجاء إلى العدالة ، لأن المحكم ينظر إلى النواحي البريئة فى الموضوع ، فى حين أن القاضى لا ينظر إلا إلى القانون ، والمحكم يتنور دائما الطريق الذى ينحدر منه إلى التسامح .

(١٣)

القانون الطبيعي والقانون المكتوب

العدول من الناس . « تقدير الخطيئة » ، (١)

١ — لا بد لنا من تحديد عدة تقسيمات وفروق بين الأعمال الظالمة ، والأعمال العادلة . ولنبدأ بأبسط تحديد العدل والظلم يتصل بنوعين من القوانين ، وبأن تطبيق هذين النوعين على من يتصل بهما من الناس يظهر في شكلين من الأشكال .

٢ — ليكن حديثنا أولاً في القانون الخاص *La loi particulière* وفي القانون العام *La loi commune* . فالقانون الخاص هو ما تضعه جماعة من الناس لأفرادها ؛ ومثل هذه القوانين تنقسم إلى قسمين ، قانون مكتوب وقانون غير مكتوب .

أما القانون العام فهو القانون الطبيعي الذي يتفق مع الطبيعة ويتلاءم معها . والحقيقة أن هناك عدلاً بالطبيعة ، وظلماً بالطبيعة ، وكأن الطبيعة هي التي أوجدتهما ، وكل الناس تعترف بهما بنوع من الإلهام حتى ولو لم تكن هناك عقود أو ارتباطات . وهذا ما كان من « أنتيجون » *Antigone* التي أخفت جثة أخيها « بولونيس » *polynice* فاستعمال هذا الحق الذي قرره الطبيعة لكل إنسان كان عدلاً . (٢)

(١) هذه لعبارة المختصرة من ترجمة « دوفور » .

(٢) كتب سقراط رواية « أنتيجون » ابنة « أوديب » لما حكم عليها بالقتل لأنها أخفت جثة أخيها بعد أن حرم القانون دفنه .

« هذا الحق لم يؤرخ اليوم ولا الأمس ، ولكنه ثابت في الأجيال ، ولا يعلم أحد من أين جاء . »^(١)

ومن هذا ما قال « أمبيدوكل » Empédocle^(٢) يعزز فكرته في تحريم قتل السكان الحي بحجة أنها كانت فكرة خلافية أجازها البعض وحرّمها البعض الآخر^(٣) .

« فهذا القانون العام عالمي يحتاز أجواء الأثير ، ويحترق طبقات الأرض الفسيحة ، ومن هذا المعنى أيضاً ما قاله « أليسدماس » Alcédamas في خطبته الميسينية (لاهل Mésénie) »^(٤)

٣ - وفيما يتعلق بالأشخاص يحدد القانون في صورتين : لأنه إما أن يتعلق بالجماعة كلها ، وإما أن يتعلق بواحد من أفرادها فيما يجوز ويمتنع عمله . لهذا كان هناك نوعان من الأعمال الظالمة والعادلة بحسب اتصال العمل بالفرد أو بالجماعة : فمن يرتكب جريمة كالزنا ، أو يتناول بالضرب على غيره ؛ يرتكب جريمة فردية ضد شخص بعينه^(٥) ومن يمتنع عن الانتظام

(١) رواية سفوكل Sophocle Antigone V 450. chap. XV, 6.

وستشكك أرسطو عن هذا الحق الطبيعي في الفصل الخامس عشر ، الفقرة السادسة .

(٢) طيب وفيلاسوف عاش في القرن الخامس ق.م

(٣) « كان « المعري » على علم بالمناقشة في هذه المسألة حينما حرم قتل الحيوان ؟ !

(٤) العبارة التي قالها « أليسدماس » وهو بدافع عن المسيحيين هي :

« ان العناية الآلهية جعلت الناس أحراراً ، ولم تستعبد الطبيعة أحداً من الناس . »

Volhen, Der Rhetor Alkédamas, dans les Sitzungsberichte der K. Akademie der Wissenschaften T XLIII, Wien 1863, p. 504.

(٥) غريب أن يعد أرسطو جريمة الزنا من الجرائم الفردية^(٥) وعلماء الاجتماع الحديثون يقررون أن وظيفة الزواج وظيفة اجتماعية ، وأن ما يهدمه من طلاق أو خيانة جريمة اجتماعية ولكن أرسطو نظر إليها فيما يبدو من ناحية حق الزوج بحسب .

في سلك الجنديّة يرتكب جريمة ضد الجماعة .

٤ - تقررت إذن هذه التفرقة في الأعمال الظالمة من أنها تنال الجماعة أحياناً ، وتنال الفرد أو المجموعة من الأفراد أحياناً أخرى ، فلنأخذ الآن في البحث الخاص بالأعمال الظالمة ، ثم نأخذ في شرح غيرها .

٥ - معنى ظلم شخص شخصاً آخر ، أن هذا الآخر عانى خسارة أو إرهاقاً من أناس ظلموا عن قصد واختيار . لأننا قررنا فيما سبق أن العمل الظالم عمل إرادي .^(١)

٦ - والواقع أن المعتدى عليه تصيبه خسارة ، وتصيبه على الرغم منه ! وما تقدم فهمنا معنى الخسائر وما تسببه ، فقد سبق أن فرقنا بين الخيور والشرور في حد ذاتها ، وبيدنا أن الأعمال الإرادية المنبعثة عن حرية واختيار ، هي كل عمل يعملها صاحبه وهو عاقل أسبابه ودواعيه

٧ - ويتبع هذا بالضرورة أن كل ما يعد اتهاماً هو ما ارتكب ضد الجماعة أو ضد الفرد ، أو هو ما ارتكب على غير علم من فاعله ، أو على الرغم منه ، أو باتفاقه وعلى علم منه ؛ وأن من بين هذه الاتهامات ما هو متعمد مقصود ، وما هو مدفوع بدوافع قوية لا يمكن ردها .

٨ - وسنتكلم على الغضب ودوافع الانتقام في الفصل الخاص بالمرغائب القوية Les passions^(٢) بعد أن سبق القول في الاستعدادات الخلقية التي تدفع هذه المرغائب الجارحة^(٣)

(١) الفصل العاشر الفقرة الثالثة .

(٢) في الفصل الثاني من الكتاب الثاني .

(٣) الفقرة الثانية عشرة من الفصل العاشر .

٩ - (وهناك فروق بين الأخطاء الإرادية) فكثيرا ما يعترف
المتهم بعمل من الأعمال ، وينكر الصفات التي تعتبر هذا العمل جريمة ،
أو ينكر أن عمله تنطبق عليه صفات الجريمة ، كأن يعترف مثلا أنه أخذ
ولسكنه لم يسرق ، أو أنه حقيقة أول من تطاول بالضرب ولسكنه لم يكن
الأول في التطاول بالسباب ، أو أن له علاقة قوية بامرأة ولسكنه لم يزن ،
أو أنه قد سرق ولسكنه لم يتطاول على قدسية ، (كأن يكون المسروق
خاصا بالآلهة .) أو أنه حرث أيضا ولسكنها من غير المنافع العامة ، أو أنه
تحدث مع الأعداء ولسكنه لم يخن ، وهذه الأسباب كلها يجب أن نحدد
أيضا السرقة ، والسباب والزنا حتى نستطيع أن نحكم في كل حالة على حدها
فيما إذا كان العمل وقع فعلا أو أنه لم يقع ، وحتى نستخلص بوضوح الصفة
المميزة للعدالة .

١٠ - وكل هذه المسائل ترجع إلى مسألة واحدة هي معرفة ما إذا كان
العمل الذي ارتكب شيئا أو غير سيء ، ظلما أو غير ظالم . ويجب أن تتوجه
المناقشة إلى هذه الناحية ، لأن الصفة المميزة للعمل السيء الظالم تنحصر في
القصد والعمد ، وفكرة العمد موجودة في إطلاق اسم على الجريمة ، كأن
يقال هذا من الضرب ، وهذا من السرقة . والحقيقة أن الإنسان لا يعد متعديا
لمجرد أنه ضرب أو سب أو قصد التعدي ، ولسكنه يعتبر متعديا حقا إذا
ضرب بقصد إهانة المضروب ، أو بقصد إشباع رغبته ، ولا يمكن أن يقال
إن هناك سرقة بمجرد أخذ شيء ، ولكن يقال إن هناك سرقة ، إذا قصد
الإساءة إلى المسروق منه ، وإذا قصد تملك المسروق . وهكذا الأمر في بقية
الجرائم والالتزامات التي سردناها .

١١ — قررنا أن الأشياء العادلة والأشياء الظالمة نوعان : مكتوبة وغير

مكتوبة ، وقد عرضنا لما عرض له القانون وحدده (أى المكتوبة) أما
الأشياء غير المكتوبة التي لم يعرض لها القانون فهي نوعان أيضاً :

١٢ — أما أحدهما فيشمل كل ما يمثل أكبر درجة في الفضيلة أو الرذيلة
(من الأشياء العادلة والظالمة) مما يستحق مدحاً أو ذماً أو تمجيذاً أو احتقاراً
أو مكافأة كالاعتراف بالجميل مثلاً لمن قدمه إلينا ، وكره هذا الجليل لمن أسداه
وكمساعدة الأصدقاء وغير ذلك مما يتصل بالفضيلة العالية . وأما ثانيهما فكل
ما سد نقصاً في القانون الخاص وفي القانون المكتوب لأن ما يحسب في
الإنصاف يحسب في العدل ولأن الإنصاف عدل حقيق .

١٣ — فالعدل الطبيعي (أو الإنصاف) *L'équité* هو عدل أيضاً
ولسكنه مستقل عن القانون المكتوب ، وهذه الصفة (الاستقلال) يتفق
عليها المشرعون أحياناً ، وأحياناً أخرى لا يتفقون حينئذ تند منهم الأعمال
(المنصفة أو الظالمة غير المكتوبة) وإذا اتفقوا فعلى أنهم لا يستطيعون
تحديد نوعها ، وهذا ما يضطرهم إلى التعميم أو إلى التطبيق على أكبر عدد ممكن ^(١)

(١) أرسطو درس الفرق بين العدل القانوني والعدل الطبيعي (الإنصاف) *L'équité*
في كتابه الأخلاق *Eth. nic. V 10* وقد نقل عنه « دوفور » هذه الفقرة التي
نترجمها فيما يلي : « الإنصاف أرقى من بعض صنوف العدل ، فهو عدل ، ولسكنه لا يقارن
بالعدل لأنه يتصل بنوع آخر يختلف عنه ، فالعدل والإنصاف شيء واحد ، وكلاهما
خير ، ولكن الإنصاف خير من أعلى درجات الخير في السمو . وما يظن من فرق بينهما
مأناه أن المنصف عادل ، ولكن عدالته لا ترجع إلى القانون ، بل ترجع إلى تحويل العدالة
القانونية . والسبب في ذلك أن القانون عام دائماً ، والتعميم غير ممكن في بعض الحالات
الخاصة وغير سليم دائماً ، واذن في المسائل التي نجد أنفسنا فيها ملجئين إلى التعميم ، وفي
المسائل التي يستحيل أن يكون التعميم فيها صحيحاً ، يكتب في القانون برعاية معظمها في غير
جهل بما تتناولوه ، وتلك نظرة سليمة أيضاً . والخطأ فيها لا ينسب إلى القانون ولا إلى المشرع
ولسكنه خطأ أت من طبيعة الأشياء نفسها ، فالأشياء العملية هكذا خلقت . »

« دوفور » ص ١٣٢ ، ١٣٣ هامش (١)

والمشرعون لا يتفقون أيضاً في الأشياء التي لا يمكن تحديدها ، والتي يصعب التحديد فيها : فمن الصعب مثلاً — في الجروح الناشئة عن استعمال آلة حديدية — أن نحدد طبيعة هذه الآلات ، أو أن نحددها في الكبير والصغير فالحياة نفسها تضيق بهذا التحديد .

١٤ — وإذا كان عدد الحالات غير محدود ، وإذا كان لا بد مع ذلك من التشريع ، فالمشرع مضطر أن يجابه الحالات العامة ، وأن يضعها في مدلولات عامة : فلو أن إنساناً كان متختماً بخاتم من حديد ورفع يده فضرب إنساناً لوقع تحت طائلة العقاب وفقاً للقانون المكتوب ولحسب مجرماً لأنه ضرب بآلة حديدية ولكن في نظر قانون « الإنصاف » ، — وهو قانون طبيعي — لا يعاقب عقاب المجرم .

١٥ — وإذا كان الإنصاف ما وصفنا عرفنا طبيعة الأعمال المنصفة وطبيعة غيرها ، وعرفنا (مع ذلك) صفة الرجل غير المنصف ، وفي الحق أن كل الأعمال التي تحمل معها أضرارها تعد في الأعمال المنصفة .

١٦ — فلا ينبغي إذن أن نسوى بين الهفوة والظلم ، ولا بينها وبين الأمر يقع عفواً ، لأن مثل هذا الأمر يقع من غير تفكير وهو بعيد عن سوء القصد . وزد على هذا أن الهفوة ليست نتيجة لشر ، أما الظلم فيجمع بين القصد وبين روح الشر ، والمظالم التي توحى بها رغبة ملحة في صاحبها تتجد جذورها في الرذيلة وفي سوء القصد .

١٧ — ومعنى الإنصاف التسامح في الضعف الإنساني ، ومعناه أيضاً عدم الجرى وراء القانون ولكن السير مع المشرع ، وعدم التزام حرفية القانون ولكن متابعة روح التشريع وروح المشرع ، ومعناه أيضاً عدم

معاقة العمل ولكن معاقة القصد . (١)

١٨ - ومن الإنصاف أيضا عدم الوقوف أمام الحالة الخاصة ، ولكن أمام التطبيق العام ، وعدم الحكم على أخلاق الشخص المحاكم في الساعة التي هو فيها ، بل الرجوع إلى أخلاقه التي عرف بها دائما ، أو التي عرف بها في غالب أحواله ؛ ومن الإنصاف أن نتذكر في المخطيء الخير الذي قدمه إلينا لا الشر الذي فرط منه ، والحسنات التي قدمها إلينا أولى بالتذكر مما قدمناه إليه ، والإنصاف أيضا في معرفة طاقة الإنسان لتحمل الظلم (الذي وقع منه أو عليه) ، وفي إثارة الإصلاح بالشرح والإيضاح بدل البحث عن الحادث وطرقه .

١٩ - والإنصاف في الاتجاه إلى التحكيم لا إلى القانون فالمحكم ينظر إلى النواحي البريئة في الموضوع ، والقاضي لا ينظر إلا إلى القانون ، والمحكم بوصف أنه محكم يهدف بالطبيعة إلى الغاية التي ينحدر منها إلى الإنصاف .
هذا ما يجب أن نحدد به الجهات الخاصة بمسائل الإنصاف

(١) هذه الفقرات كان لها أثرها في التشريع الجنائي الحديث ، وكانت مثيرة لعلماء القانون الذين يترددون إلى الآن بين نظريتين : هل نعاقب الجريمة ؟! هل نعاقب المجرم ؟ وكثيرا ما يلجأ المشرعون إلى الأخذ بالأولى في الثورات العامة وفي الجرائم التي تهدد كيان الدولة ولكن التشريع الحديث يسير دائما نحو البحث عن المجرم الحقيقي ، والمسئولية في تطورها الاجتماعي والقانوني تسير من العقاب الجماعي إلى العقاب الفردي « ولا نزر وأزره وزر أخري »

الفصل الرابع عشر

ملخص الفصل:

في هذا الفصل يبين أرسطو عظم الخسارة وتفاهتها فيعرض للظروف التي بقيت إلى الآن في مصطلحات القانون الحديث *Circonstances aggravantes* (الظروف المشددة) فقد تكون الجريمة تافهة ولكن منشأها خطير فتعظم الجريمة بخطورة منشأها ، كأن يتناول المجرم على الأشياء المقدسة في المعابد والهياكل ، والأخطاء العظيمة موجودة بالقوة في الهفوات الصغيرة فمن يجرأ على سرقة التافه من المعابد يقدر على سرقة العظيم من غيرها . والأمر فيما يتعلق بالعدالة على العكس فقد يكون منشأ الجريمة عظيماً وعقابها هين كأن يسرق السارق ويعطى مما يسرق ! وكما تعظم الجريمة بالقوة تعظم بالفعل إذا سببت خسارة فادحة ، كأن يكون العمل الخاطئ عظيماً ولا تكون العقوبة التي وقعت من أجله متناسبة مع عظم الذنب ، وفي الحق تكون كل عقوبة أقل من الخطيئة إذا لم يكن هناك مجال لإصلاح مافسد بسبب الجريمة كأن تكون الأشياء التي أصابها الفساد غير قابلة للأصلاح والجبر ، والعقوبة أصلاً لجبر الخسائر التي وقعت من الخطيء ومن الخطيئة !

وتعظم الجريمة أيضاً إذا كان الذي وقع عليه الظلم قد تأثر بظلمه فظلم نفسه هو أيضاً فلا ينبغي إذن أن ينال المجرم أقل مما ناله البريء من نفسه ! وتعظم الجريمة أيضاً إذا كان المجرم هو الوحيد الذي ارتكب مثلها ، أو كان الأول في ابتكارها . وتعظم أيضاً إذا تكررت من صاحبها عدة مرات . وتعظم إذا حملت المشرعين على تغيير القانون ، وعلى البحث عن وسائل تشريعية جديدة . وتعظم إذا دلت على غرائز وحشية يبعد أن تكون في إنسان ، وإذا كانت استعادة تمثيلها

تملأ القلوب بالرعب ، وإذا كانت مهيئة منذ زمن بعيد .

وتجد الخطابة مجالا فسيحا للتكبير من شأن الجريمة إذا كان المتهم تعدى على الالتزامات المقررة ، وخالف جميع القواعد التي قررتها العدالة ، كأن يخدس بعهد ، أو يتحلل من يمين ، أو يتعدى على حق من حقوق الصداقة أو الزوجية ، فالجريمة الواحدة من هذه تجر إلى عدة جرائم . ويعظم خطر الجريمة إذا ارتكبت في حصن العدالة ، أو في سجن المجرمين ، وشهداء الزور يرتكبون جرائمهم أمام القضاة وفي ساحة العدل ، وإذا كانت جرائمهم مكتبتهم من الجريمة في هذه الساحات المقدسة فكل مكان بعدها مسرح لجرائمهم !! وتعظم الجريمة إذا كانت مخجلة ، وإذا أصابت من قدم لنا خيرا ، فعمل الشر جريمة ، وعدم مقابلة الخير بالخير ، أو مقابلة الخير بالشر ، جريمة أيضا .

وأخيرا تعظم الجريمة إذا ارتكبت ضد قانون غير مكتوب ، فالجرائم المحددة في القانون تجد عقابها فيه ، وقد يكون احترام الانسان للقانون خوفا من القانون أما من يحترم القانون غير المكتوب فهو الفاضل الذي يعمل بعيداً عن القسر والرهبة ، وترجع فنقول إن من يجرأ على القانون المكتوب لا يصعب عليه أن يخالف القانون غير المكتوب !

في عظم الخطيئة وقتلتها وأسباب ذلك^(١)

في أهمية الجرائم^(٢)

١ — يكبر خطر الجريمة إذا كان سببها خطيراً ، ومن هنا قد يعظم خطر الخطيئة التافهة . ومن أمثلة ذلك ما أخذه كالسترات Callistrate على ميلانوبوس Mélanopus^(٣) حينما عظم خطيئة بشاة المعابد الذين سرقوا منها ثلاثة أنصاف من النقود الصغيرة . والأمر على العكس فيما يتعلق بالعدالة^(٤) . هذه الأخطاء الخطرة موجودة بالقوة في الأخطاء الصغيرة ، لأن من يسرق هذه النقود المقدسة لا يبعد عليه أن يرتكب أية خطيئة أخرى ! فالخطأ يعتبر خطيراً من هذه الناحية أحياناً ، وأحياناً أخرى تكون خطورته على قدر الخسارة التي يسببها .

٢ — تعظم الجريمة إذا لم تتناسب مع العقوبة الموقعة عليها، أى إذا كانت

(١) العنوان كما في ترجمة « رويل » .

(٢) العنوان كما في ترجمة « دوفور » .

(٣) ذكر « بلوتارك » عند الكلام على ديموستين ما كان من أمر العداوة بين « كالسترات » الخطيب وبين « ميلانوبوس » Plutarque, Démosthène P. 581 « رويل » ص ١٦٥ هامش (١) . « دوفور » ص ١٣٤ هامش (١) .

(٤) يريد أن يقول إن الجريمة إذا كان سببها عظيماً وهي تافهة عظمت بعظم سببها كما في السرقة من المعابد . أما العدالة فأذا كان سببها عظيماً فليس بلازم أن تعظم الجريمة التي ارتكبت من أجلها كأن يسرق السارق ثم يحسن فيها عدالة سببها جريمة عظيمة ، ولكن يخففها ما تحقق من العدالة بسببها .

أية عقوبة قليلة بالنسبة لها . وتعظم أيضاً إذا كان علاجها صعباً ، أو إذا كان من المستحيل جبرها . وأيضاً إذا كان من المستحيل أن يدرك المعتدى عليه العدالة بسبب أن موضوع الجريمة غير قابل للإصلاح ، مع أن العقوبة موضوعة (أصلاً) لتسكون جبراً وعلاجاً لما أفسدته الجريمة ! .

٣ - وتعظم الجريمة وعقوبتها إذا كان المعتدى عليه قد أصاب نفسه بضرر عظيم (على أثر ما أحسه من الظلم) وإذن يجب أن ينال المعتدى عقوبة أشد وأقسى فهكذا كان «سفوكل» Sophocle يدافع عن «أوكتيمون» Euctimon الذي قتل نفسه على أثر ماناله من فاحش السباب حينما قال : ^(١) «إن هذا الساب لا ينبغي أن ينال عقاباً أقل مما فعل المسبوب بنفسه» .

٤ - وتعظم الجريمة إذا كان المجرم هو الوحيد الذي ارتكبها ، أو كان الأول في ارتكابها ، أو كان هو الذي قام بها مع نفر قليل من الناس . وتعظم أيضاً إذا تكررت من شخص واحد ، وليست أقل منها خطراً هذه الجريمة التي تحمل الحاكمين على أن يبحثوا عن وسائل تشريعية جديدة للعقوبة أو للوقاية . وهذا ما كان عليه الحال في «أرجوس» Argos ^(٢) فأنها كانت ترمى بأشد العقوبة المجرم الذي كان يضطرها إلى تغيير في التشريع أو إلى تشريع جديد في القانون ، والمجرمين الذين كانوا يضطرونها إلى بناء سجن جديد .

(١) ليس هذا هو سفوكل الشاعر وإنما هو خطيب يوناني كان من أوائل من ينتخبون للقضاء ، وسيدكره أرسطو مرة أخرى في الكتاب الثالث في الفقرة السادسة من الفصل الثامن عشر :

(٢) مدينة يونانية تسمى الآن بلانيتزا Planitza .

٥ - يعظم إثم الجريمة أيضاً إذا دل على توحش مخيف ، وإذا كانت مهيئة منذ زمن طويل ، وإذا كانت استعدادتها تبعث الرعب والخوف أكثر مما تثير الشفقة والرحمة .

وتجد الخطابة مجال القول ذا سعة في بيان جسامه الجريمة إذا كان المعتدى قد محاقوداً ، أو غير من التزامات ، أو خالف كل قواعد العدالة تقريباً ، بأن خاس بعهد التزمه ، أو تحلل من حلف ربطه وضغط عليه مع إخوانه باليمنى ، أو خان مبدءاً معروفاً من مبادئ الصداقة ، أو حقاً من حقوق الزوجية . ففي هذه الحالات تجر الجريمة الواحدة إلى عدة جرائم .

٦ - ويعظم الإثم في الجريمة إذا ارتكبت في حصن العدالة ، وفي مكان العقوبة وتلك حال شهود الزور (فجر يمتهم في بيت العدالة) ، وإذا كانت جرائمهم قد ذهبت بهم إلى ارتكاب الجريمة في ساحة المحكمة ، وعلى منصة القضاء ، فكل مكان يتسع لجرائمهم ١١ .

وكذلك تعظم الجريمة إذا التصقت بالخيال ، وإذا سببت أضراراً لمن قدم لنا خيراً ، فهنا تتعدد نواحي الشر : لأن عمل الجريمة شر في ذاته ، وعدم مقابلة الخير بالخير شر ، ومقابلة الخير بالشر شر .

٧ - وتعظم الجريمة إذا ارتكبت ضد قانون غير مكتوب فالشريف هو الذى يحترم العدالة فى غير جبر ولا إكراه ، والقوانين المكتوبة تفرض الضغط ، أما غير المكتوبة فلا ، هذا وإن التعدى على القوانين المكتوبة يمكننا من تكوين دليل آخر :

هو أن من يتعدى عليها غير عابئ بنتائجها وآلام عقوبتها ، يسهل عليه
جداً أن يخالف القوانين غير المكتوبة ! (١) .
وهذا كل ما يقال فيما يجسم الجريمة أو يقلل من شأنها .

(١) ظاهر هنا أن أرسطو لجأ الى دليلين : دليل نفسي خلقي يدل على عظم جريمة الذي
يجرؤ على العادات والتقاليد والعرف (قانون غير مكتوب) فهو يريد أن يبعث الاخلاص
من نفس صاحبه بالفضيلة في غير خوف من القانون . ودليل منطقي « بالتلازم » محصله
أن من يجرؤ على القوانين المكتوبة يجرؤ من باب أولى على القانون العرفي الذي لا يفرض
عقاباً وانما يسبب لوماً اجتماعياً ، ومن لا يبالى بالعقاب لا يبالى باللوم !

الفصل الخامس عشر

ملخص الفصل :

يتكلم في هذا الفصل عن البراهين والأدلة التي سماها « أدلة خارجة عن الصناعة » وهذه الأدلة هي ألصق ما تكون بالخطابة القضائية في الاتهام والدفاع، بل إن بعضها قاصر على هذا النوع من الخطابة .

وهو يقسم هذه البراهين خمسة أقسام : —

نص القانون — الشهود — العقود والالتزامات المكتوبة — الاعتراف القسري — حلف اليمين . وبعد ذلك يتحدث عنها واحداً واحداً مبيناً طرق استخدامها في دفعها ودحضها ، وفي دفاعها وإقرارها .

القانون :

إذا كان القانون المكتوب ضدك فدعه ، والتجئ إلى الإنصاف ففيه ما ليس في العدالة . ثم بين أن هذه العبارات التي كتبت بين يدي القانون « الحكم بما يملكه الضمير » و « الحكم بما تملكه الروح الطيبة » هي عبارات تستدعي الإنصاف أكثر مما تقتضي العدل ، ومن شأنها ألا تجعلنا نلجأ دائماً إلى القانون المكتوب ، فهو كثير التغير ، قابل للتأويل في حين أن القانون الطبيعي وقانون الإنصاف — إن صح هذا التعبير — ثابتان دائماً يستندان إلى الطبيعة الثابتة الدائمة . فالقانون الطبيعي هو الذي التجأت إليه « أنتيجون » لما دفنت جثة أخيها على رغم القانون الذي حرم دفنه ، وعلى رغم « كريون » الذي حكم عليها بالموت فقبلته راضية قائلة « ما أريد — تحت تأثير أي خوف يدركني من أية ناحية أن أخالف القانون الطبيعي أمام الآلهة . »

ولك أن تقول في مناقشة القانون المكتوب إن العدالة شيء حقيقي لا مظهر

من المظاهر ، ووظيفة العدالة إحقاق الحق وإقرار العدل ، والقانون الذى يخرج
عنهما لا يؤدى وظيفة القانون ، ثم قل كما قال نقاد الأدب « إن القاضى كالصيرفى
مهمته تمييز النقد من الزيف ، ولو كان الزيف سائراً رائجاً . ثم ناقش القانون
من ناحية تضارب مواده ، وناقشه فى غموضه وظروفه ، وأدر المناقشة الى الناحية
التي تنحدر منها الى الصالح والنافع .

هذا إذا كان القانون يخالف ماتدعيه ، فان وافقه فأيد القانون ، واطلب
تنفيذه ، وقرر أن لافرق بين غيبة القانون وبين عدم تطبيقه ، وليس للتأول أن
يدعى أنه أكثر ذكاً من واضعى القانون كما أنه ليس لإنسان أن يدعى أنه فى
الطب أمهر من طبيب ! والفرق كبير بين خطأ الطبيب وخطأ القاضى وهو الفرق
بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة .

الشهود :

والشهود قدامى ومحدثون ، ويقصد بالقدامى هؤلاء الشعراء الذين يرسلون
الحكمة ، وهؤلاء الفضلاء الذين يحكمون الرأى ، فاستشهد بأقوال الأولين ،
وخذ بما أخذ به الفضلاء فتلك شواهد قديمة حققها التجربة ، وتلك آراء أصدرها
فضلاء وحكم بها فضلاء وحكمهم قانون أو ينزل منزلة القانون . ويقصد بالمحدثين
القضاة المعاصرين الذين حكموا بمثل ماتريد أن يحكم لك به ، وشهود الزور شهود
محدثون لأنهم يرتكبون جرائم فى إثبات أو نفي جرائم لا علم لهم بها . وإذا
أعوزتك الشهادة فاعمد إلى الأدلة الاحتمالية ، وإذا كانت الشهادة ضدك ، فاعمد
إلى « تفسير الشهود » وتحدث عن الاستقامة والكرامة وعن السلوك والشهرة ،
فى هذه الناحية أدلة لاتقل فى أهميتها عن الاحتمالات والظنيات .

العقود :

فى الالتزامات المكتوبة ، الخطب قليلة الجدوى والدفاع لا يفيد إلا فى تقوية
الثقة بها أو إضعافها لإقراراً ونقصاً حسب الناحية التي تجد فيها النافع والصالح .

وبما يجب الالتفات إليه أن العقود لا تمنح السلطة للقانون ولكن القوانين هي التي تمنح السلطة للعقود المشروعة ، والقانون نفسه عقد وللزام فمن ينكر عقداً يبطل قانونا ، ولكن من السخرية أن نعتقد أن طاعة القوانين واجبة حتى ولو كانت قلقمة ، وحتى إذا أخطأ المشرع فإن معنى ذلك وجوب الطاعة للالتواء والباطل .

ولك أن تقول أن القاضى هو الفيصل فى تفسير القانون ، فمن واجبه ألا يحترم حرفية العقد ، بل من واجبه أن يحترم العدل ، وما أنت بصدد عدل وأكثر من عدل ! وهذا العدل لا تقلقه المخاتلة لأنه مستند إلى الطبيعة . وقل أيضا إن هناك عقوداً تحمل الغش فى أثنائها وحنايها ، وأحيانا تكتب تحت تأثير القسر ، وإذن يجب البحث فيما إذا كانت مضادة لقانون مكتوب ، أو لقانون عام ، أو إذا كانت مضادة للعدالة نفسها وللكرامة والشرف !

ويبحث التضاد أيضا بالمقايضة إلى العقود السابقة أو اللاحقة ، فإذا كانت اللاحقة صحيحة كانت السابقة باطلة ، وإذا كانت السابقة قانونية ، كانت اللاحقة مظنة الغش !

القسر والتعذيب:

التعذيب نوع من الشهادة يحمل معه عناصر صدقة لأنه قسر وضغط فإذا كان التعذيب فى صالح قضيتك فألح عليه فهو شهادة لا يرقى إليها الشك ، وإذا كان فى صالح خصمك ، فاهدم هذا الدليل وانكر الصفات المميزة للتعذيب . وبما يلتفت إليه أن الذين يعذبون يكذبون أيضا ولا يقولون الصدق دائما : فهناك من يقاوم التعذيب ويحتمله بصبر عجيب وهناك من يسارع إلى الكذب تخلصا من العذاب فهى أدلتك على هذا الاحتمال واسندها بالسوالف والسوابق الشهادة .

القسم :

وأما الأيمان ففرق فيها بين من يقبلها بسهولة وبين من يرفضها وافهم هذا

الرفض إذا كان عن تقية أو عناد . ولك أن تقول أن الحلف ليس دليل البراءة بل هو دليل التنصل من العقوبة ، ولك أن تقول إنا نؤثر أن نلجأ إلى القضاة لا إلى اليمين فلنا ثقة في العدل وليس لنا ثقة في العدو . واليمين الغموس تشتري بضمن بخس ، فالدنيء يحلف ، وإذا كانت الدنائة هي الدافع على الحلف فلأن يكون القسم بنقود خير من أن يكون بلا مقابل . وإذا لجأت إلى اليمين فقل إنه دليل التقوى ، وقل إنا نقبل من الخصم أن يحتكم إلى نفسه ، وقل أيضا إذا رفض خصمك القسم إن من السخرية والتضاد أن يرفض الخصم اليمين في مسألة هو نفسه كان يلجأ إلى اليمين لو وقع مثلها من غيره ! وإذا أقسمت في الحاضر على شيء قسما مضادا لما أقسمت به في الماضي فقل لاحث ولا غموس ، ولكنها الإرادة والغفلة ولا نعاقب على ما يقع مناساهين أو غافلين ! والحث في اليمين إرادة في النفس لا كلمات تتردد على الشفاه ! هذه هي الأدلة الخارجة عن الصناعة (الفن) وقد تزيد عن طريق الإطناب والتفريع ولكن الكفاية فيما قدمناه .

في البراهين التي لاعلاقة لها بالصناعة

في الأدلة الخارجة عن الصناعة (١)

١ - لم يبق بعد ما قدمنا إلا أن نتكلم فيما سميناه الأدلة المستقلة عن الفن (الصناعة) . وهذه الأدلة تصلح بطبيعتها للخطابة القضائية (وبعضها قاصر على هذه الخطابة) (٢) .

٢ - وهذه الأدلة خمسة أنواع :

نصوص القوانين - مركز الشهود - العقود والالتزامات - الاعتراف القسري (تحت تأثير التفذيب) - اليمين .

٣ - ولنتحدث أولاً عن القوانين وعن كيفية الانتفاع بها في النصيحة والتحذير ، والالتهام والدفاع .

٤ - فما لا شك فيه أن القانون المكتوب إذا كان مضاداً لنا ، وجب الالتجاء إلى القانون العام ، وإلى غيره من الاعتبارات التي تميل إلى الإنصاف أكثر مما تميل إلى العدالة ، ففي الإنصاف أكثر مما في العدالة .

٥ - ويجب أن يقال إن عبارة « الحكم بما يملكه الضمير »
Juger selon la Conscience ليس معناها الالتجاء دائماً

(١) العنوان الأول في ترجمة « رويل » والعنوان الثاني ترجمة « دوفور » .

(٢) العبارة التي بين القوسين من زيادة « دوفور » من ١٢٦ .

إلى القوانين المكتوبة . (١)

٦ — ويجب أن نلجأ إلى الإنصاف فهو دائم لا يتغير شأنه شأن القانون العام الذي يستند إلى الطبيعة .

أما القوانين المكتوبة فكثيرة التغير . ومن هنا هذه العبارات التي نقرأها لسفوكل في روايته « أنتيجون » Antigone (٢) ، فقد دافعت الفتاة عن نفسها بأنها إذا خالفت ما قاله كريون Créon (٣) في دفن جثة أخيها ، فإنها لم تخالف فيما فعلت القانون الطبيعي غير المكتوب :

« قانون لا من عمل اليوم ، ولا من عمل الأمس ، ولكنه قانون أبدي »
« وما أريد — تحت تأثير أى خوف يلتصق ابني من أية ناحية — أن ،
أخالفه أمام الآلهة . » (٤)

٧ — ويجب أن يقال إن العدالة شيء حقيقي لذاته ، وإن العدالة هي النفع الحقيقي ، وليست العدالة مظهراً من المظاهر التي لاحقيقة لها فالقانون

(١) عبارة « الحكم بما يمليه الضمير » هي عبارة « روبل » أما « دوفور » فيوردها بالنص الآتي « الحكم بما يمليه الروح الطيبة » Dans la meilleur esprit قارن بين روبل ص ١٧٦ وبين « دوفور » ص ١٣٦ ويعلق « روبل » على عبارته بما يأتي : « كان القضاة في اليونان يقسمون على ضرورة تطبيق القانون مادام موجوداً ، وفي غيبة القانون يقسمون على أن ينزلوا على الفكرة التي تتفق مع العدالة أكثر من غيرها » . وهو يحيل على « سينجل » وعلى « سالنجر » في كتابه : Novus Thesaurus, ant . Rom . T 111 P . 1103 . P . Fabre , De Magistrat rom .
(٢) سفوكل Sophocle , Antig . , vers 454 . انظر أيضاً الفقرة الثانية من الفصل الثالث عشر .

(٣) ملك مستبد وهو الذي حكم على « أنتيجون » بالموت .

(٤) Sophocle , Traduction de Mascray , T . 1 . (٤)
(Paris Belles - Lettres .)

المكتوب ليس بقانون إذن لأنه لا يؤدي وظيفة القانون .^(١) كما يجب أن يقال إن القاضي كالصير في وظيفته تميز النقد من الزيف .

٨ — والأكرم أن تطبق وتنفذ القوانين غير المكتوبة لا القوانين المكتوبة (التي نقف عند حدود ألفاظها في غير رعاية للعدل والإنصاف .)

٩ — ويجب البحث أيضاً فيما إذا كان القانون متضارباً مع قانون آخر مشهور ومعروف ، أو فيما إذا كان متضارباً مع نفسه ، فأحياناً ينص القانون على أن كل العقود والالتزامات نافذة ، ويأتى نص آخر فيحكم ببطالان العقد المضاد للقانون .

١٠ — إذا كان في القانون غموض ، وجب أن نديره إلى ناحيتنا فنبحث عن المعنى الذى نريد من العدالة أو النفع ، وندير المناقشة إلى هذه الناحية التى تتجه إلى مصلحتنا .

١١ — ويجب أن نبحت أيضاً في الظروف والأسباب التى نشأ عنها القانون إذا كانت هذه الظروف قد زالت ، ولا يزال القانون باقياً وواجباً نبرز الموقف في جلاء ، ومن هذه الناحية لنا أن نعارض في تطبيق القانون .

١٢ — وإذا كان القانون المكتوب مؤيداً لما ندعيه ، وجب أن نقول إن هذه العبارة التى تقال إلى جانب القوانين (الحكم بما يمليه الضمير) *juger selon le Conscience* أو (الحكم بروح طيبة) *Dans la meilleur esprit* ليس معناها الحكم بما يضاد القانون ، وإنما المراد منها عدم الخفر بالذمة أو اليمين ، إذا كان المتقاضون يجهلون القانون . وكذلك يقال ، ليس هناك من يطلب الخير المطلق ، ولكن هناك من يسعى الخير لنفسه (أى مادام القانون معنا فلنا أن نطالب بتنفيذه) . ويقال

(١) يريد أن يقول ان وظيفة القانون المكتوب النفع والعدل فان لم يؤدهما

أيضاً إنه لا فرق بين غيبة القانون ، وبين عدم تطبيقه ، ويقال أيضاً إن الأمر في الفنون الأخرى لا سبيل إلى ادعاء العلم أمام نصوص قواعدها ، وليس لإنسان أن يدعى في الطب « أنه أمهر من الطبيب »^(١).

(أى أنه مادام القانون موجوداً والمشرع المختص هو الذى قرره ، فلا معنى لعدم الأخذ به) . ومع ذلك فإن خطأ الطبيب أقل ضرراً من تعود مخالفة الإنسان مايلزم به ، وإن البحث فى أن نكون أكثر تعقلاً وحكمة من القوانين نفسها ، هو بعينه المنهى عنه فى التشريع الصحيح .

١٣ — وإلى هنا نكتفى بما أوردناه خاصاً بالقوانين ، فلنتقل الآن إلى ماهو خاص بالشهود : الشهود صنفان : قدامى ، ومحدثون ، وهؤلاء المحدثون منهم من يشترك فى الخطر ، ومنهم من هو بعيد عنه .

وأقصد بالشهود القدامى هؤلاء الشعراء ، ومشاهير الرجال من الذين تحترم آراؤهم ، ويعترف بها الخاصة والعامة من الناس .

فالأثينيون مثلاً كان شاهدهم « هومير »^(٢) فى حرب « سلامين »^(٣) ضد « الميغاريين » Les Légariens . وكذلك « التنيديون » كان شاهدهم « برياندر السكوتى » Périandre فى وقائعهم^(٤) ضد « السيجيين » Sigéens .

(١) هذه العبارة من زيادة «دوفور» قارن بينه فى ص ١٣٧ وبين «رويل» فى ص ١٦٩ .
(٢) L'Iliade II, 557 « بلوتارك » فى كتابه « سولون » Solon.p.83
يقرر أن الشعر المنسوب « لهومير » فى واقعة « سلامين » من زيادة « سولون » نفسه .
وكوتليان فى كتابه « النظام الخطائى » يقول إنه لم يعثر على هذا الشعر فى كل مخطوطات الاليزادة (Quintilien (Inst . Orat.v, 11,40

(٣) من تعليق «دوفور» أن «سولون» استشهد ببيتين من شعر «هومير» على تفوق أثينا فى معركة «سلامين»
Plut. Vie de Solon.
Diogène Laerce, Vie de Solon,48.

(٤) كتب «رويل» تعليقا على هذه الوقائع أنها مجهولة. أما «برياندر» فهو أحد الحكماء السبعة المعروفين بشعر الحكمة ص ١٧٠ هامش (٣) .

وكذلك « كليفون » Cléophon هجا « كرتياس » Critias بأبيات لسولون يقول فيها « إن بيته نجس » ودليل هذا الاستشهاد أن « سولون » نفسه هجا « كرتياس » في بيت من الشعر :

« اذهب وقل عني » لسكرتياس ، الأشقر أن يطيع أباه ، ^(١) .

وهذا النوع من الشهادة يختص بالماضي .

١٤ — أما المستقبل فيستشهد له بما تقوله سدنة الهياكل . وهذا ما فعله

« تيميستوكل » Thémistocle حينما سرد قصة « توت الغابة » Mur du Bois وقال إن معناها ضرورة مقابلة العدو في البحر ^(٢) .

وكذلك الأمثال تعتبر من الشهود (لأنها شواهد قديمة) فهؤلاء الذين لا يرغبون في صداقة الشيوخ ، إنما يعتمدون على هذا المثل السائر « لا تصنع جميلاً مع شيخ ! » . وهؤلاء الذين ينصحون بقتل الأولاد بعد قتل آبائهم إنما يعتمدون على هذا المثل « أحق هذا الذي يبق على الأولاد بعد قتل آبائهم » .

١٥ — أما الشهود المحدثون فيقصد بهم الرجال المعروفون بالكرامة الذين أصدروا أحكاماً في أية ناحية من النواحي (التي نحن بصدد هاجمها) ، فهذه الأحكام تعتبر سوابق فاصلة يرجع إليها هؤلاء الذين ينكرون أو يناقشون موضوعات مماثلة لها . ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره « إيبول » ^(٣)

(١) كان « كرتياس » مستبدًا وكان « كليفون » يهاجمه بأبيات « سولون » . « دوفور » ص ١٣٧ ، ١٣٨ هامش (٣) .

(٢) لعل تأويل « توت الغابة » بالبحر جاء من الشبه القديم والحديث بين الكلمتين Mur بمعنى « توت » و Mer بمعنى « بحر » .

(٣) « إيبول » كان عدوًا لديموستين الخطيب ، وكثيراً ما هاجمه خطيب أثينا في خطبته « السفارة الخائنة » Sur L'ambassade infidèle وفي خطبته « التاج » Sur la Couronne.

Euibule أمام المحاكم ضد « شاريس »^(١) Charis فقد وصفه بأنه « أدخل في المدينة عادة التظاهر بالذيلة »^(٢) وهي كلمة قالها « بلاتون »^(٣) من قبل ضد « أرشيبيوس » Archibios^(٤) .

ويقصد أيضا بالشهود المحدثين هؤلاء الذين يشاركون المتهم في الجريمة إذا ارتكبوا التزوير في الشهادة .

١٦ — ومثل هؤلاء الشهود لا يشهدون إلا بحقيقة الحادث ، إذا كان قد وقع ، أو لم يقع ، وإذا كان موجوداً ، أو غير موجود ؛ ولا يُسألون عن صفة الحادث إذا كان عادلاً أو ظالماً ، نافعاً أو ضاراً ، فهذا مما لا يقع في مهمة الشهود .

١٧ — إن الشهود البعيدين (أى الذين لا دخل لهم في الجريمة)^(٥) مظنة الثقة في هذه المسائل . والجدير بالثقة بصفة عامة هم الشهود الأول القدماء (لا الذين يؤتى بهم وقت نظر القضية) لأنه من الصعب إفساد ضمائرهم .
والآن نعرض لوسائل الإقناع المستمدة من الشهادة .

يحسن بمن لا شهود له أن يعتمد إلى الاحتمالات ، وأن يطالب بأن يكون الحكم بمقتضاها وذلك هو موضع تطبيق هذه العبارة (الحكم بما يرضى الضمير) Juger selon la Conscience إن الاحتمالات لا يستطيع

(١) شاريس كان معروفاً بعداوته لفيليب (٤٠٠ — ٣٣٠ ق.م.) .

(٢) عبارة « دوفور » (ذكر رذائله شر على تقدم المدينة) قارن بينه في ص ١٣٨ وبين « رويل » ص ١٧١ .

(٣) « بلاتون » كان شاعراً ساخراً ، وهو غير « أفلاطون » الفيلسوف .

(٤) من ترجم « كتاب الخطابة » أهل أمره ، ومن تعرض له قال إنه مجهول .

(٥) كلمة بعيدين ترجمها « دوفور » بالبعد المكاني وترجمها رويل بالبعد عن الشبهة أى من لا دخل له في الجريمة ، ومآل العبارتين واحد ، وهو أن الشهود الذين يأتون من بعيد تصعب رشوتهم ويصعب إفساد ضمائرهم .

تخطئتها بالرشوة ، ولا يمكن أن تفاجيء بشهادة الزور؛ وإذا كنت مستندا إلى شهود في حين أن خصمك لا شهود له ، فإن القضاء لا يستند إلى الاحتمالات البسيطة . ولا يكون المتقاضى في حاجة إلى شهود إذا كانت الحقيقة تظهر بجلاء بمجرد الاستناد إلى أدلة بسيطة .

١٨ — قد تتعلق الشهادة بشخص المدعى نفسه ، وقد تتعلق بخصمه ، وقد تتعلق بموضوع القضية ، وقد تتعلق بأخلاق المتخاصمين ، وواضح من هذه الاتجاهات العديدة أن الإنسان لا يضيّق بالبحث عن الشهادة الصالحة له ، فإذا أعوزتنا الأدلة ولم نجد لموضوع القضية شهادة في صالحنا ، أو شهادة ضد خصمنا ، فسنجدّها في الأقل عند الكلام في الأخلاق^(١) إذا أثبتنا شرفنا واستقامتنا ، أو أثبتنا أخلاق الخصم التي لا تهتم بالشرف ولا بالاستقامة .

١٩ — أما ما يتعلق بالأدلة التي يمكن استخلاصها من أن الشاهد صديق أو عدو ، أو هو شخص بين الصديق والعدو ، أو أنه تمتع بسلوك حسن ، أو أن له شهرة غير مشرفة ، أو أن سلوكه يتردد بين الحسن والقبح ، أو غير ذلك من فوارق هذا النوع من الاستدلال ، فالأدلة فيها تؤلف من المواضع العامة Lieux Communs التي تتألف منها الأقيسة المضمرة^(٢) .

٢٠ — أما ما يتعلق بالعقود^(٣) فالخطب فيها قليلة الفائدة ، والدفاع فيها

(١) هذه الناحية هي ما يعبر عنها الآن بعبار « تفسيق الشهود » .

(٢) راجع الفصل الثاني في هذه الأقيسة .

(٣) العقد Le Contrat هو اتفاق بين أفراد بقصد التجارة أو التبادل . أما المعاهدات التجارية Traité de Commerce فهي اتفاق بين عدة أمم . وأما الاتفاقات التجارية التي يتفق فيها المتعاقدان على التساهل والاستقطاع فعتها عام ولا ينبغي أن يفهم منها «العقد المتفق عليه» فقط وإنما يفهم منها أيضاً العلاقات الجبرية Eth.Nic.v . وهذه الاتفاقات بعضها إرادي ، وبعضها غير إرادي ، فالإرادي منها هو البيع والشراء والقرض والرهن =

لا يفيد إلا من ناحية تقوية الثقة بها أو إضعافها ، بالآقرار أو بالنقض ، فإذا كانت العقود في صالحنا فواجبنا أن نقوى الثقة بها ، وإذا كانت في مصلحة الخصم فدفاعنا يتوجه إلى التقليل من أهميتها ونزع الثقة منها .

٢١ - ولإثبات الثقة أو نفيها عن « العقد الملزم » تطبق الوسائل نفسها التي اتخذت فيما يتعلق بالشهود .

ومهما كان مركز الأشخاص الذين وقعوا عقدا والتموه في اللحظة التي حصل فيها الاتفاق ، يجب علينا أن نقوى الثقة بالعقد بمختلف الوسائل إذا كان في صالحنا . إن الالتزام أو العقد قانون ، وليسكنه فردى خاص . وليست العقود هي التي تمنح السلطة للقانون ، ولكن القوانين هي التي تمنح السلطة لعقد مشروع . وفي العموم إن القانون نفسه عقد والتم ، ومن هنا كان من ينكر عقداً أو يبطله إنما يبطل القوانين نفسها .

٢٢ - زد على ما تقدم ، أن معظم المصالحات ، وكل الاتفاقات الاختيارية تستند إلى عقود ، فلو أنا أضعفنا من قوتها محونا جميع العلاقات الموجودة بين الناس بعضهم مع بعض أو رددناها في الأقل إلى الاستحالة . وإذن فكل الأدلة التي تجد تطبيقها هنا واضحة جلية .

٢٣ - إذا كانت العقود (المتخاصم من أجلها) ضد صوالحنا ، أو في مصلحة خصومنا فإن الأدلة الأولى التي تناسب الموقف هي بنفسها الأدلة التي نوردتها إذا أردنا أن نهاجم قانونا ضد مصلحتنا .

إن من السخريّة أن نعتقد أن طاعة القوانين واجبة حتى إذا كانت هذه

== والفائدة والتخزين لأن كل هذه الأشياء الأصل فيها الاتفاق . وغير الإرادي بعضها يرتكب غلصة مثل السرقة والزنا والتسميم والوقعة بين الناس وتجارة الرقيق ، والقتل ، والزور ، والبيع الآخري هجوم وتعد كالضرب والسجن ، والغصب ، والكسر والقطع ، والتخريب ، والتهجم . «دوفور» ص ١٣٨ ، ١٣٩ هامش (١) .

القوانين قلقه ، وحتى إذا أخطأ المشرعون فيها ، فإن معنى ذلك أن الطاعة تكون واجبة حتى للعقود الملتوية الباطلة!! (المبينة على مثل هذه القوانين)^(١).
 ٢٤ — ويقال أيضا إن القاضى هو الحكم فى القانون ، وإذن فن واجب ألا يحترم حرية العقد ، ولكن يحترم العدل ، وما نحن بصدد عدل وأكثر من العدل ، وهذا العدل لا يمكن أن يتحول عن طبيعته لا بالتضاد ولا بالمخاللة ، لأنه مؤسس على الطبيعة .

٢٥ — ومع ذلك فهناك عقود تحمل فى طياتها المخاللة والغش ، أو الضغط والجبر ، لأنها عملت تحت تأثير القوة ، فالواجب أن نبحث إذا كانت متضادة مع قانون مكتوب ، أو مع قانون عام ، أو إذا كانت مضادة للعدالة نفسها ، أو للكرامة والشرف ، أو إذا كانت مضادة لعقود سابقة ، أو لأخرى جاءت بعدها . كما يجب البحث فيما إذا كانت العقود التى ظهرت فيما بعد صحيحة لتكون السابقة عليها باطلة . أو إذا كانت السابقة قانونية لتكون اللاحقة مظنة الغش . والواجب إذا وقفنا وقفة مترددة (إما كذا وإما كذا) أن نختار الناحية التى تتفق وحاجتنا ، ولا ينبغي أن نغفل ناحية المنفعة فى العقد إذا كان العقد فى أية ناحية من النواحي ، أو بأى وجه من الوجوه ، مخالفا لفكرة القضاة . كل هذه النواحي جديرة بالنظر ، ومن السهل كشفها والتفتيش عنها^(٢) .

٢٦ — التعذيب نوع من الشهادة ، وهو فيما يظهر يحمل معه صدقه

(١) ما بين القوسين من زيادة « رويل » الايضاح .

(٢) فى هذه الفقرة زيادة « أو للعدالة نفسها أو للكرامة والشرف » سقطت فى ترجمة « دوفور » على أن فى ترجمته زيادة « إذا كانت القوانين المكتوبة وطنية أو أجنبية » لم يذكرها « رويل » . قارن بين ترجمة « رويل » ص ١٧٣ وبين ترجمة دوفور ص ١٤٠ .

لأنه تعذيب وقسر وضغط ، فمن السهل إذن أن نعرف ما يتصل بموضوعنا ، وما ينبغي أن يقال فيه : فإذا كان التعذيب في صالحنا ، فالجمال واسع للإلحاح على هذه النقطة التي تعتبر شهادة حقيقية لا يرقى إليها الشك ، وإذا كان التعذيب ضدنا كأن يكون في صالح الخصم ، فليس لنا إلا العمل على هدم هذه الشهادة الحقيقية ، وتوجيه الخطبة (المرافعة) إلى إنكار هذا التعذيب أو إنكار صفاته .

إنهم يقولون إن الأشخاص المضغوط عليهم بالتعذيب يمكن أن يكذبوا ، وهم ليسوا في كذبهم بأقل منهم في صدقهم : فمنهم من يقاوم ولا يعترف بالحقيقة ، ومنهم من يسارع إلى الكذب تخلصا من الآلام ، فواجبنا أن نستند على مثل هذه الأدلة بسوق الأمثلة والاستشهادات المعروفة لدى القضاة (١) .

٢٧ — أما فيما يتعلق بالآيمان (القسم) فتجب التفرقة بين أربع حالات :
 إما أن نلجأ للقسم ونقبله ، وإما أن نمتنع عنهما معا (أى فلا نطلبه وإذا كان الخصم مستعداً للقسم لا نقبله منه) وإما أن نقبل أحدهما دون الآخر ، بمعنى أن يكون الخصم مستعداً للقسم ولا نقبله منه ، أو نقبله منه وهو على غير استعداد له ، وهناك حالة أخرى يكون فيها القسم قد أدى فعلا إما من المدعى وإما من المدعى عليه .

(١) راجع لايضاح هذه الفكرة ملاحظه « هافي » في كتابه « دراسات في خطابه أرسطو »

M.E.Havet (Etudes sur la Rhétor.d'Arist.P. 71) .

راجع « بونافوس » « خطابه أرسطو » .

Bonafous (Rhétor.d'Arist.P.415) .

٢٨ — فاذا لم نلجأ إلى اليمين اعتذرنا بأن الناس تحنث في أيمانهم بسهولة ولأن الحلف ليس دليلاً على البراءة ، لأن الناس تعتقد أن الذي يمتنع عن الحلف يعاقب . ويمكن أن يقال أيضاً إننا نشوثر أن نلجأ إلى القضاة لا إلى اليمين ، لأن لنا ثقة في عدلهم ، وليس لنا ثقة في عدونا .

٢٩ — وعند رفض اليمين لنا أن نقول إن اليمين تشتري بضمن بحس ، فاذا كان الحالف دينياً حلف ، ومتى كانت الدماء هي الدافعة فلأن تعود اليمين بربح خير من أن تحلف بلا مقابل . وأيضاً أن في حلف اليمين كسباً للقضية وفي الامتناع عنه خسارة . ومن هنا كان رفض اليمين أحياناً من علامتهم الفضيلة لا من خوف الحنث ، ولعل هذا من المواطن التي تطبق فيها كلمة اكسينوفان Xenophane من أن تحدى الطالح للصالح لا مساواة فيه بل ، هو أشبه ما يكون برجل قوى يتحدى رجلاً ضعيفاً ليكيل له الضربات ويشخنه بالجراح .

٣٠ — وعند قبول اليمين لنا أن نقول إننا نشق بضائراً ولكن خصمنا لا يثق ، ولنا أن نحول كلمة « اكسينوفان » فنقرر أن مانحن فيه من مواطن المساواة ، لأنه إذا كان الطالح لا يقبل اليمين والصالح يقبلها ويقسم ، أمكن أن يضاف إلى ما تقدم أنه من الغريب أن ترفض اليمين في موضوع يلاحظ فيه استعداد القضاة لصدور حكمهم في مصلحة الحالف !!

٣١ — وإذا التجأت إلى اليمين فقل إن اليمين دليل التقوى والإرادة الطيبة في الاحتكام إلى الآلهة ، وقل إن خصمك لا ينبغي أن يلجأ إلى قضاة آخرين ، مادامنا قد قبلنا الاحتكام إلى نفسه ، ويمكن أن يقال أيضاً

إنه من التضاد أن يرفض الإنسان اليمين في مسألة كان الخصم نفسه يطلب اليمين في مثلها إذا وقعت من الغير ! (١)

٣٢ — مما تقدم عرفنا كيف تؤلف الأدلة في سهولة ووضوح في كل حالة على حدتها ، ومن الممكن أن نعرف على هدى ما تقدم ما يجب عمله في الحالات الأخرى التي تتفرع منها حينما تجتمع حالتان في صورة واحدة : كأن يقبل المدعى مثلاً حلف اليمين ويرفض أن يحلف خصمه ، أو كأن يقبل اليمين ويرفض الحلف (لأنه لم يتعوده) أو كأن يقبل اليمين لنفسه ويطلبها من خصمه ، أو كأن يرفضها له ولغيره ، فهذه المسائل المركبة لا تخرج عن الحالات الأربع المفردة ، وما يقال فيها من ادعاءات يؤلف بالضرورة من الأدلة السابقة .

وإذا أقسمنا يميناً في الحاضر مضادة ليمين مضت فلنا أن نقول أن لاحت ولا غموس ، لأن ارتكاب الظلم عمل إرادي ، وأن الحنث في اليمين ليس معناه ارتكاب الظلم ، وأن كل الأعمال الناشئة عن الغفلة أو عن الغضب أعمال خارجة من إرادتنا . (أى من الجائز أننا وقعنا في التضاد من الغفلة)

٣٣ — والحنث في اليمين عمل إرادي مقره النفس لا الشفاه ، ولكن إذا كانت الاعترافات التي اعترف بها الخصم بعد اليمين متضادة ، فلنا أن

(١) في الكتاب المنسوب الى أرسطو La Rhéto. à Alex تعريف لليمين « هو توثيق لا دليل له الا نسبته إلى القداسة ، فإذا أردنا أن نزيد في أهميته وجب أن نقول : ليس هناك من يريد أن يحنث ، وإلا تعرض لغضب الآلهة ، ولاحتقار الناس ، وإن الحانث يمكنه أن يفر من الناس ولكن أمره لا يخفي على الآلهة .
من تعليقات دوفور ١٤٢ ، ١٤٣ هامش (١)

نقول إن المسألة قد قلبت رأسا على عقب وإن الخصم لم يحترم ما أقسم
عليه ، ولهذا السبب يقسم القضاة قبل تطبيقهم القوانين .
• إنهم يطالبون القاضى بأن يحتفظ بقسمه وهم لا يأخذون
أنفسهم بذلك ، ١١

وكذلك الأمر فى كل الأدلة التى نقدمها عن طريق الإطناب والتفريع
إلى جانب الأدلة الخارجة عن الصناعة ، وقد قدمنا فيها جميعا ما فيه الكفاية .

إلى هنا ينتهى الكتاب الأول للخطابة .

المراجع العربية

- ١ - « أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني (طبعة رشيد رضا)
- ٢ - « البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر ، للأستاذ الدكتور طه حسين بك ، « مقدمة نقد النثر ،
- ٣ - « نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر (طبعة الجوائب)
- ٤ - « البيان والتبيين ، للجاحظ طبعة ١٣٣٢ هـ
- ٥ - « الفهرست ، لابن النديم طبعة جوستاف فلوجل ١٨٧١
- ٦ - « إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ابن القفطي ، .
- ٧ - « وفيات الأعيان ، ابن خليكان طبعة ١٢٩٩ هـ
- ٨ - « الحيوان ، للجاحظ طبعة ١٣٢٣ هـ
- ٩ - « كتاب البديع ، لابن المعتز طبعة كراتشكوفسكى ١٩٣٥
- ١٠ - « مختصر ابن رشد ، طبعة (فوستولا زينبو)

المراجع الفرنجية

- 1 Annuaire de l'association greque, année 1882, Constantin Sathas .
- 2 Aristote, Poétique et Rhétorique, ch. Emile Ruelle, Paris 1883.
- 3 Aristote Rhétorique, Collection des Universités de France, par Médérie Dufour., Paris 1932.
- 4 Aristote, Poétique, par Emile Ruelle, Chefs-d'œuvre de la littérature grèque. Paris 1882.
- 5 Abd Allah Ebn al Mu'tazz, ettited from the unique Ms. in the Scorial, introduction, notes and indices by, L. Koratehkovsky, 1935.

- 6 Dix-Septième Siècle, études et portraits littéraires
Emile Faguet.
- 7 Dictionnaire critique, Bayel, art. Aristote.
- 8 Etude. sur le Rhétorique d' Aristote, 2^e édition,
Ernest Havet, 1846.
- 9 Etudes sur Aristote, Politique, Dialectique, Rhéto-
rique, par ch. Thurot Paris 1860.
- 10 Essai sur la Rhéiorique greque avant Aristote, par
Octve Navarre, Paris 1900.
- 11 Histoire de la littérature greque 2^e édition, Alfred
Croiset.
- 12 Histoire de la littérature greque, Max Egger.
- 13 Journal des savants, Octobre 1840, September 1842 et
Février 1843, par M. J. P. Rossignol.
- 14 La Rhétorique arabe de Djahiz à Abd el Kaher, par
Dr. Taha Hussène Bey.
- 15 La philosophie des Grèces considérée dans son
développement hislorique, Edouard Zeller.
- 16 Les Penseurs de la grèce de Th. Gomperz, traduction
d'A. Reymond, avec préface d'A. Croiset Paris
1908-1910.
- 17 Reflections sur l'éloquence, la roétique, l'histoire et la
Philosophie . Rapin 1693.
- 18 The Rhetoric of Aristotle with a Commentary, by
E. N. Cope. and johu Edwiu Sondys, Cambridge
Universty press, 1877.

مواد المقـدمة

الصفحة	الموضوع
١ —	التعريف بأرسطو
٥ —	كتب أرسطو وتقسيمها العلمى .
٩ —	أصالة كتب الخطاب — فكرة فى الأصالة — الشك فى كتاب الشعر .
١٢ —	آراء النقاد فى كتاب الخطاب — أصالة موضوع الكتاب .
١٦ —	نقد أرسطو للخطباء قبله — المدرسة اليونانية والمدرسة الإيلية .
١٨ —	السوفسطائيون وصناعة الكلام — مبادئهم الفلسفية — السوفسطائيون والنثر الفنى — السوفسطائيون وسقراط — السوفسطائيون وأفلاطون — أفلاطون والشعراء .
٢٦ —	سقراط والخطابة — المنهج الجدلى والمنهج النفسى .
٢٨ —	أفلاطون والخطابة — العلوم النسبية والعلوم الضرورية — مكانة الخطابة بين العلوم — الأدب والخلق — فصل أرسطو لمنطقتى نفوذهما —
	المحتملات والمظنونات مواضع الأدلة الخطابية .
٣٦ —	نظرية أرسطو فى الفن الأدبى — الفنية فى نفس الأديب لا فى موضوع الأدب — عناصر الابتكار الفنى : (الاستعداد العقلى والإضافة والابتكار) — الفنية لا تعنى بالرياضة ولا بالعلوم المحضة — الفنية لا تعنى بالاستقراء والتعميم لذاتهما — العرضيات والابتكار الفنى — الإنتاج الفنى شاعرى بطبعه — الفنية الأدبية والطبيعة .
٤٣ —	كتاب الخطابة فى الزمن — تأثيره فى خطباء الرومان — المخطوطات اليونانية لكتاب الخطابة — التراجم الفرنسية المختلفة — لماذا آثرنا ترجمة « رويل » — العرب وكتاب الخطابة .

- ٤٩ — أرسطو في البلاغة العربية — عرض مقال الأستاذ الدكتور د طه حسين بك « الجاحظ والبيان العربي — أصالة الارتجال في العرب — موقف الجاحظ من أرسطو — الارتجال في العرب وفي السوفسطائيين — الجاحظ والمصطلحات البلاغية — القران ومكانته في البلاغة .
- ٦٥ — ابن المعتز وأثره في البلاغة :

البلاغة رفاهية في الكلام — الدوافع التي دفعت ابن المعتز إلى هذا التأليف الفني — العراك بين القدامى والمحدثين وأثره في التقنية الأدبية — ابن المعتز والنقد الأدبي — مقارنة بين عمل « ابن المعتز » وعمل « نقولا بوالو » في النقد والتشريع الأدبي — رأى كراتشكوفسكي في أصالة البلاغة العربية — صنوف ابن المعتز البلاغية وما يقابلها في البلاغة اليونانية — التجنيس عند العرب وعند اليونان — فضل العرب في تدوين البلاغة — رأينا في أصالة عمل ابن المعتز

مواد كتاب الخطابة لأرسططاليس

٨٨ — ملخص الفصل الأول

- ٩٠ — علاقة الخطابة بالجدل — فائدة الخطابة ومهمتها — كيف عالج الخطباء الخطابة قبل أرسطو — ضرورة تحديد القوانين — أسباب هذا التحديد — القصاحة والخطب السياسية — نفع الخطابة — (إقرار الحق والعدل — عدم الاعتماد على العلوم في إقناع الناس) — الخطابة كالجدل تتناول الطرفين الموجب والسالب معاً — القوة الكلامية لا تؤدي إلى الباطل كما لا تؤدي الصحة إلى المرض ، ولا القوة إلى الضعف .

٩٨ — ملخص الفصل الثاني

- ١٠٠ — تعريف الخطابة — الاحتمال — العلامة — المثل — الخطابة لاموضوع لها

الأدلة التي تقوم عليها الخطبة : (ما يتصل باخلاق الخطيب — ما يتصل
بالسامعين — ما يتصل بالخطبة) — القياس الحقيقي والقياس
الظاهري — المثل استقراء — القياس المضمر قياس — دليل الخطابة
في المثل والقياس المضمر — مجال الخطابة المحتملات والممكنات —
العلامة الدالة والعلامة غير الدالة — الأقيسة الجدلية والأقيسة الخطابية.

١١١ — ملخص الفصل الثالث

١١٢ — أنواع الخطابة : (استشارية — قضائية — استدلالية) — صنوف
المستمعين ثلاثة — عناصر الخطبة ثلاثة — النصيح والتحذير موضوع
الخطابة الاستشارية — الاتهام والدفاع موضوع الخطابة القضائية —
المدح والهجاء موضوع الخطابة الاستدلالية — تقسيم الخطابة وفق الزمن —
زمن الخطابة الاستشارية المستقبل — زمن الخطابة الاستدلالية الحاضر —
زمن الخطابة القضائية الماضي — الأنواع الخطبية والغايات .

١١٦ — ملخص الفصل الرابع

١١٨ — الخطابة التشاورية — أهم مقدماتها — الختميات والمستحيلات
والممكنات والمشاورة — ما يتشاور فيه الناس : (الإيرادات — الحرب
والسلم — حماية الوطن — الاستيراد والتصدير — التشريع) واجب
الخطيب اذا تكلم في واحدة منها .

١٢٣ — ملخص الفصل الخامس

١٢٥ — الغاية التي تهدف إليها في النصيحة والتحذير — السعادة ومظاهرها —
تعريف السعادة — عناصر السعادة — عناصر نفسية — عناصر اجتماعية —
عناصر جسمية — عناصر خارجية — عناصر داخلية — الثروة
 وأنواعها وقيمتها — سمات الشرف — جمال الشباب — جمال الشيخوخة —

سمات القوة — الصديق والصدافة — الصدفة والطبيعة .

١٣٢ — ملخص الفصل السادس

١٣٤ — في الخير — في الشريف والنافع — تعريف الخير — موضعان للترابط : المعية والتتابع) — أفضل الخيرين وأخف الضررين — الفضائل والخير — الخيور الحقيقية : (العدالة — الشجاعة — العفة — السخاء — العظمة) الصحة والجمال من الفضائل — الفضائل النفسية : (قوة التذكر — سهولة التعلم — حيوية النفس) الخيور الاحتمالية — عدم المغالاة خير — ما يسبب الألم شر — مدحك ما تألم منه شر — إيثارك الشيء خير — يؤثر ما يتفق مع استعداداتنا النفسية .

١٤٣ — ملخص الفصل السابع

١٤٥ — فيما يؤثر من الخير والنفع — النسب الاضافية بين الخير والنافع — النسب بين الكميات والكيفيات — نسبة التلازم — نسبة الغائية — نسبة الأصل والمبدأ — علاقة المبدأ بالغاية — من أغرى بالجريمة يعاقب باسم المبدأ ، ومن ارتكب الجريمة يعاقب باسم الغاية — علاقة الندرة بالكثرة — علاقة الصعب بالسهل — علاقة السبب بالنتيجة — نسبة زيادة الفروق — تشرف العناصر بشرف الأصل — ما حكم بخيره الاختيار فهو خير — العلوم وصدق الحس يقرران طبيعة الشيء وكيفيته وكميته — التحليل والتركيب يدلان على عظم الأشياء — التحليل تكثير والتركيب أصل وغاية — تقدير الظروف : (من السن والزمان والمكان والموهبة) له أثره في القيم الجمالية — الطبع والاكتساب — أنفع الشئيين أدناهما إلى الغاية — ما يوافق الحقيقة أرق مما يوافق الرأي — الحقائق أفضل من المظاهر — اللذة وغيبة الألم .

١٥٨ — ملخص الفصل الثامن

١٦٠ — في النظم الحكومية — أنواع الحكومات : (الديمقراطية — الأوليغارشية — الأرستقراطية — المونارشية) — غاية كل حكومة — القوانين والغايات والمنافع — الصفات الخلقية لكل حكومة — ملاحظة العادات والتقاليد لكل حكومة — مكانة الخطيب في الفضيلة والحرص.

١٦٤ — ملخص الفصل التاسع

١٦٧ — في النوع الاستدلالي — في الفضيلة والنقيصة — في الجمال والقبح الخلقين — في عناصر المدح والهجوم — تعريف الجميل والمقبول والمستحسن — الفضيلة ومظاهرها — كبريات الفضائل — تعريفات (العدالة — والشجاعة — والعفة — والكرم — والعظمة — والسخاء — وصدق الحس) الفضيلة والجمال — ما يتصل بالمال وما يتصل بالكرامة — جمال الذكريات — جمال التقاليد — فضائل تشبه النقائص والعكس — حد الوسط في الفضيلة — مدح الناس بما يعرفه عنهم الناس — المدح بكرم الآباء والأجداد — مدح الإنسان بما يعمل — عناصر خلقية مشتبكة — المدح والقداسة — الفرق بين المدح والنصيحة — الخطيب قادر على أن يقلب الحكمة العامة مدحا خاصا — الأطناب مطلوب في المدح — العمل الإرادي أجدر بالمدح من العمل الاتفاقي.

١٨٠ — ملخص الفصل العاشر

١٨٣ — في خطب الاتهام والدفاع — في طبيعة مصادر القياس وأنواعها — الأسباب الدافعة الى الظلم — استعداد مرتكبي الظلم — ظروف من يقع عليهم الظلم — تعريف الظلم — تعريف القانون — القانون نوعان خاص وعام

دوافع الأذى — دوافع داخلية ودوافع خارجية — تعاريف هذه
الدوافع

١٩٠ — ملخص الفصل الحادي عشر

١٩٣ — في الأشياء المستحسنة — في اللذة — تعريف اللذة أو المسرة — القسر
والآلم — الرغائب عقلية وغير عقلية — رغائب مصدرها الخيال
والتذكر — لذة الآلم — لذة الأمل — لذة الحب — لذة الأحزان —
لذة الانتقام والانتصار — لذة الألعاب والألقاب — لذة التغيير —
لذة المفاجئات — لذة الاتحاد والمشاركة — لذة الطموح

٢٠٤ — ملخص الفصل الثاني عشر

المخطئون والظلمة — ما يحدثون من الآلام — من يصيبهم الآلم —
لم ترتكب الظلم ؟ — كيف نتصل من الجريمة ؟ — أسباب التنصل —
ظلم القريب والبعيد — ظلم الأصدقاء وظلم الأعداء — الظلم لخير المظلوم

٢١٦ — ملخص الفصل الثالث عشر

٢١٩ — القانون الخاص والقانون العام — القانون العام والقانون الطبيعي
الظلم الفردي والظلم الجماعي — معنى الظلم — فروق بين الأخطاء
الإرادية — القصد والجريمة — ضرورة تحديد الجريمة — القانون
المسكتوب والقانون غير المسكتوب — فرق بين العدل والإنصاف —
اضطرار المشرع الى التعميم — طبيعة الأعمال المنصفة — التسامح في
الضعف الإنساني — التحكيم بين العدالة والإنصاف .

٢٢٦ — ملخص الفصل الرابع عشر

٢٢٨ — العلاقة بين الجريمة وسببها — تناوب الجريمة مع العقوبة — تعود
الإجرام — الجريمة وتغيير التشريع — الجريمة الواحدة تجر إلى عدة

جرائم — خرق القانون (المكتوب وغير المكتوب) والفرق في الحاليتين

٢٣٢ — ملخص الفصل الخامس عشر

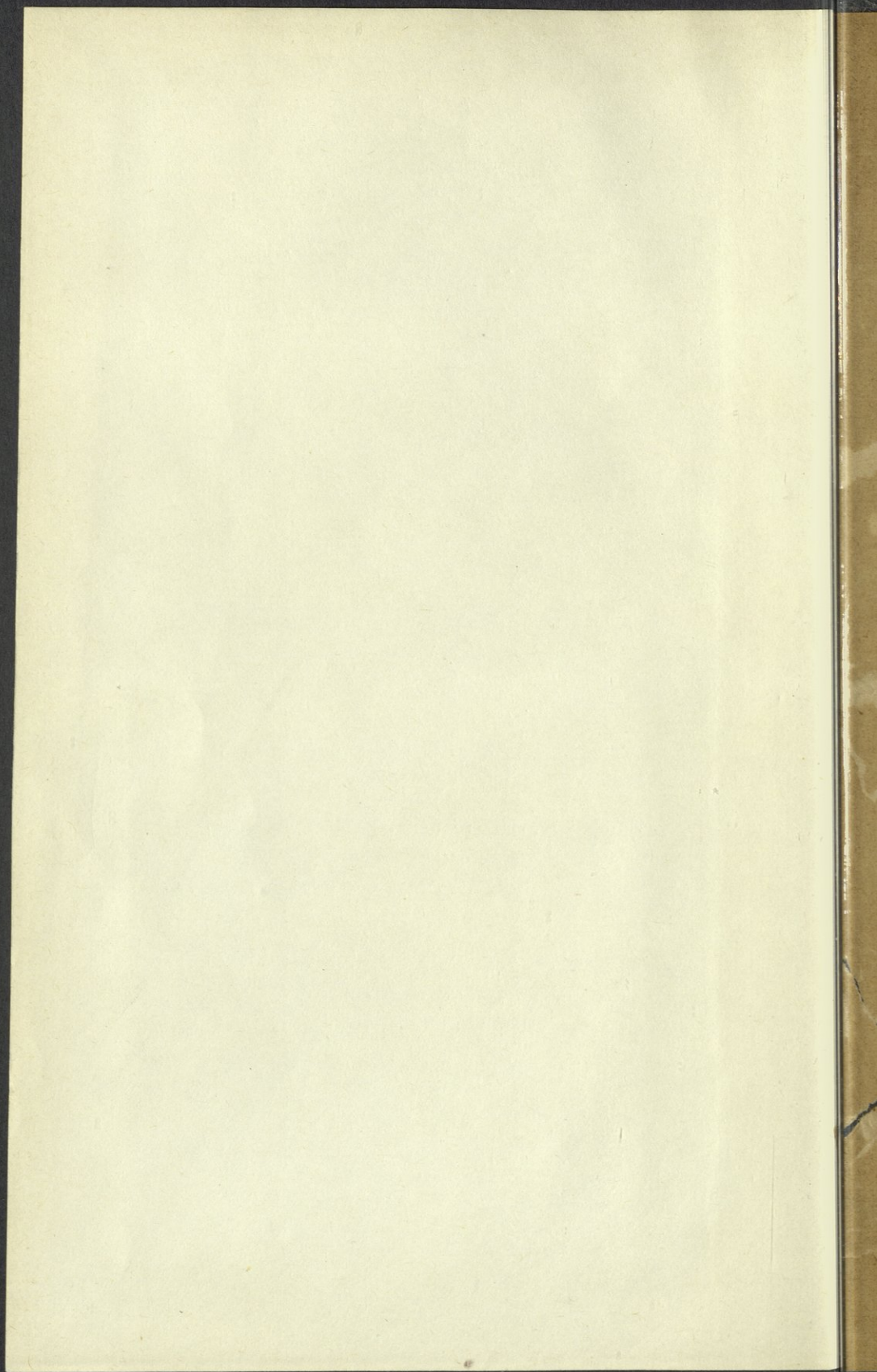
٢٣٦ — الأدلة الخارجة عن الصناعة — نص القانون — عبارة « الحكم بما يملكه الضمير » — عبارة « الحكم بما تملكه الروح الطيبة » — ثبات القانون الطبيعي وتغير القانون المكتوب — تطبيق القانون غير المكتوب أكرم من تطبيق القانون المكتوب — غموض القانون القانون والظروف — متى نطالب بتنفيذ القانون ومتى نتخلص منه — الشهود القدامى والشهود المحدثون — شهادة الماضي وشهادة المستقبل — تفسير الشهود — العقود والالتزامات والدفاع فيها — قوة العقد وقوة القانون — العقود المتضادة — العقود والجبر — التعذيب نوع من الشهادة — الاعتراف تحت تأثير التعذيب — القسم أو اليمين — اليمين الغموس واليمين المشتراة — اليمين اللاحقة تتضاد مع يمين سابقة .

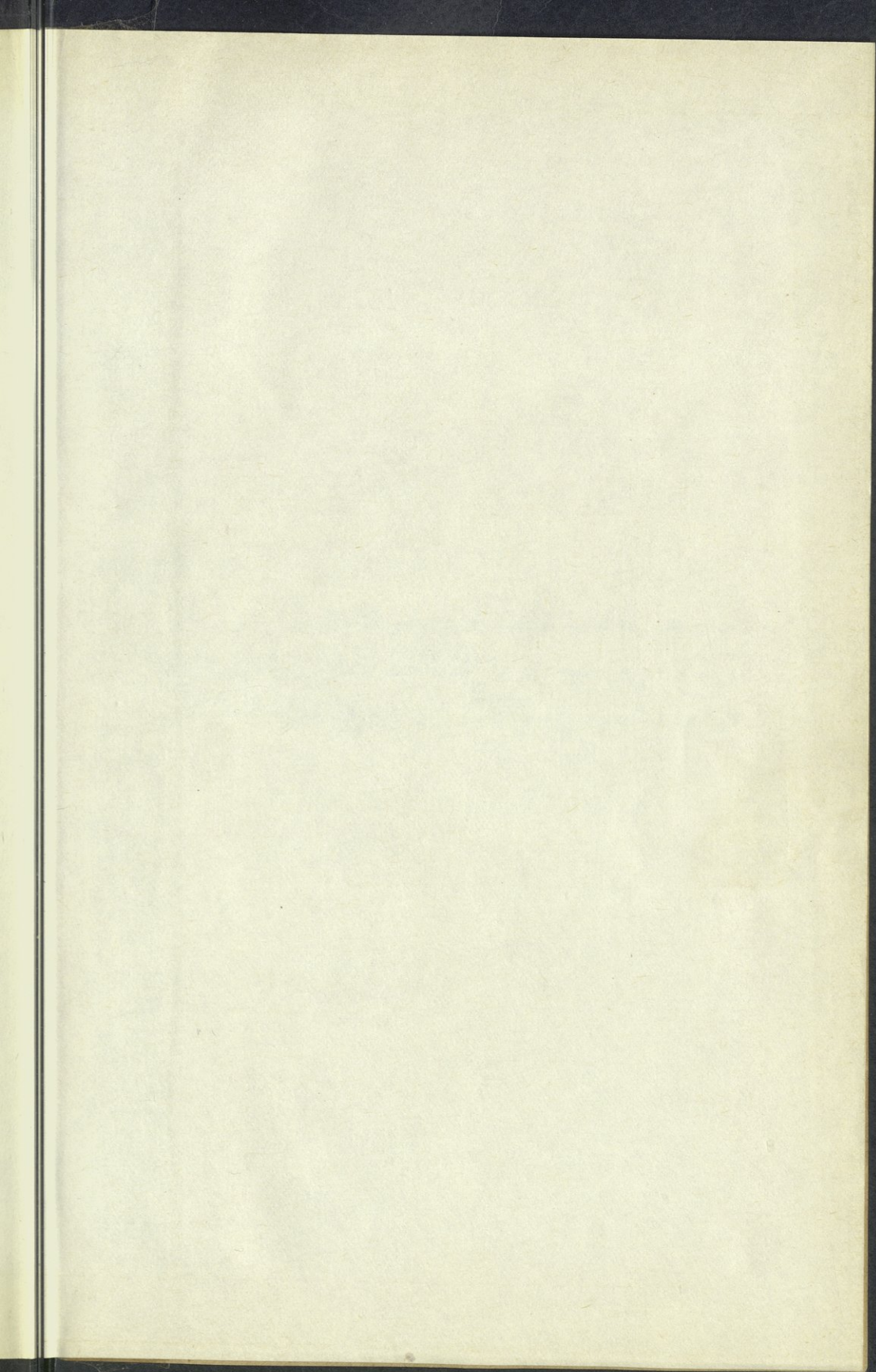
٢٤٩ — مراجع الكتاب .

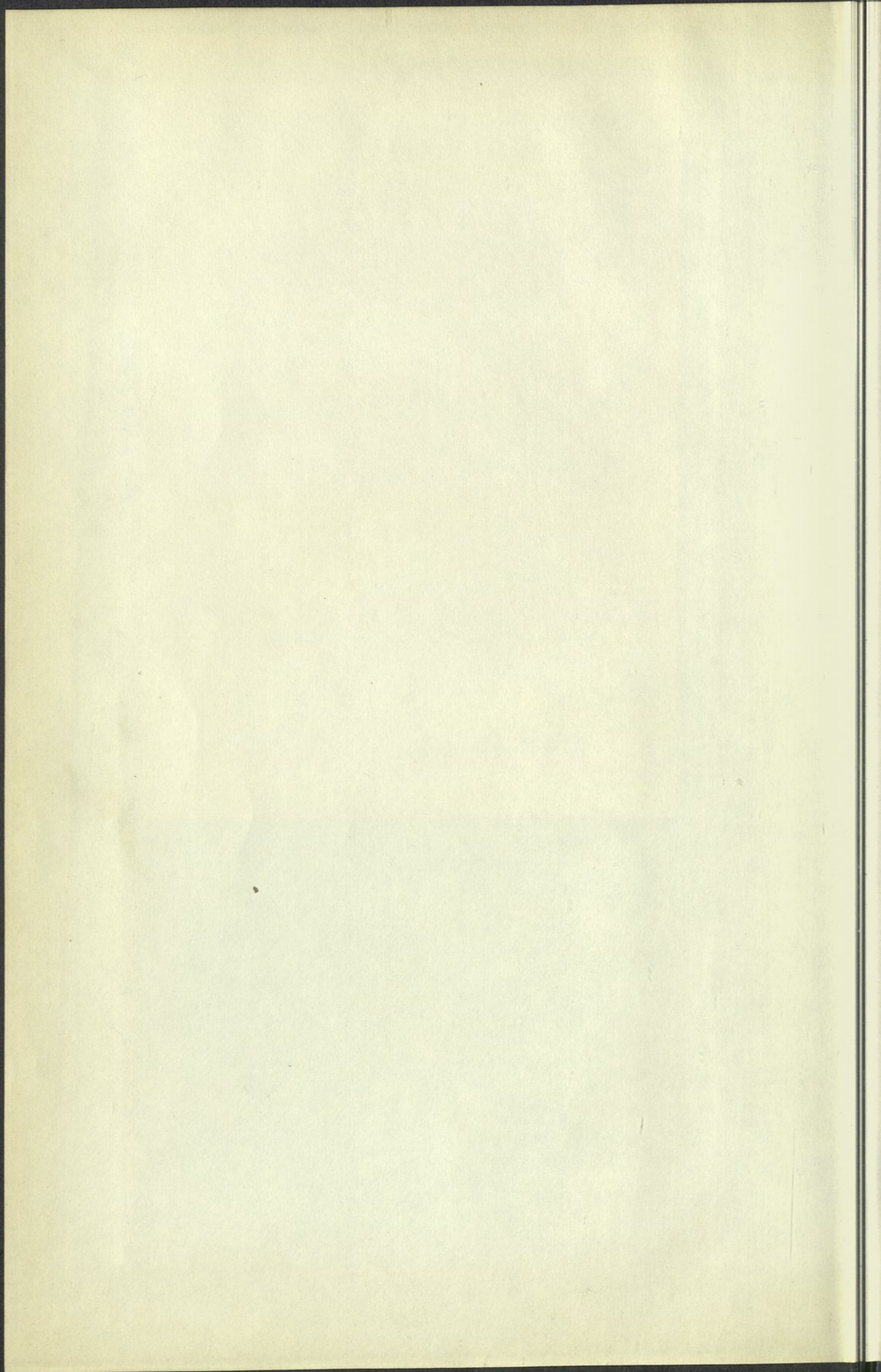
٣٥١ — مواد المقدمة .

٢٥٢ — مواد الكتاب .

تنبيه : كانت الطريقة العلمية تقتضينا وضع فهرس للأعلام العربية واليونانية ،
ووضع قاموس صغير لترجمة المصطلحات المنطقية والجدلية والخطائية
الواردة في النصوص ، ولسكننا آثرنا أن نؤخر هذا كله بعد تمام الكتاب .







DATE DUE

J. LIB.

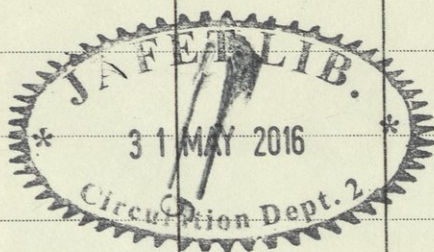
5 JUN 1981

J. Lib.

1 FEB 1982

J. Lib.

1 JUN 1983



A.U.B. LIBRARY

ارسطوطاليس
كتاب الخطابة الارسططاليس
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030268

808.5
A714kA
c.1